أ.د. عبد الكريم بكّار

في إشراقة آية

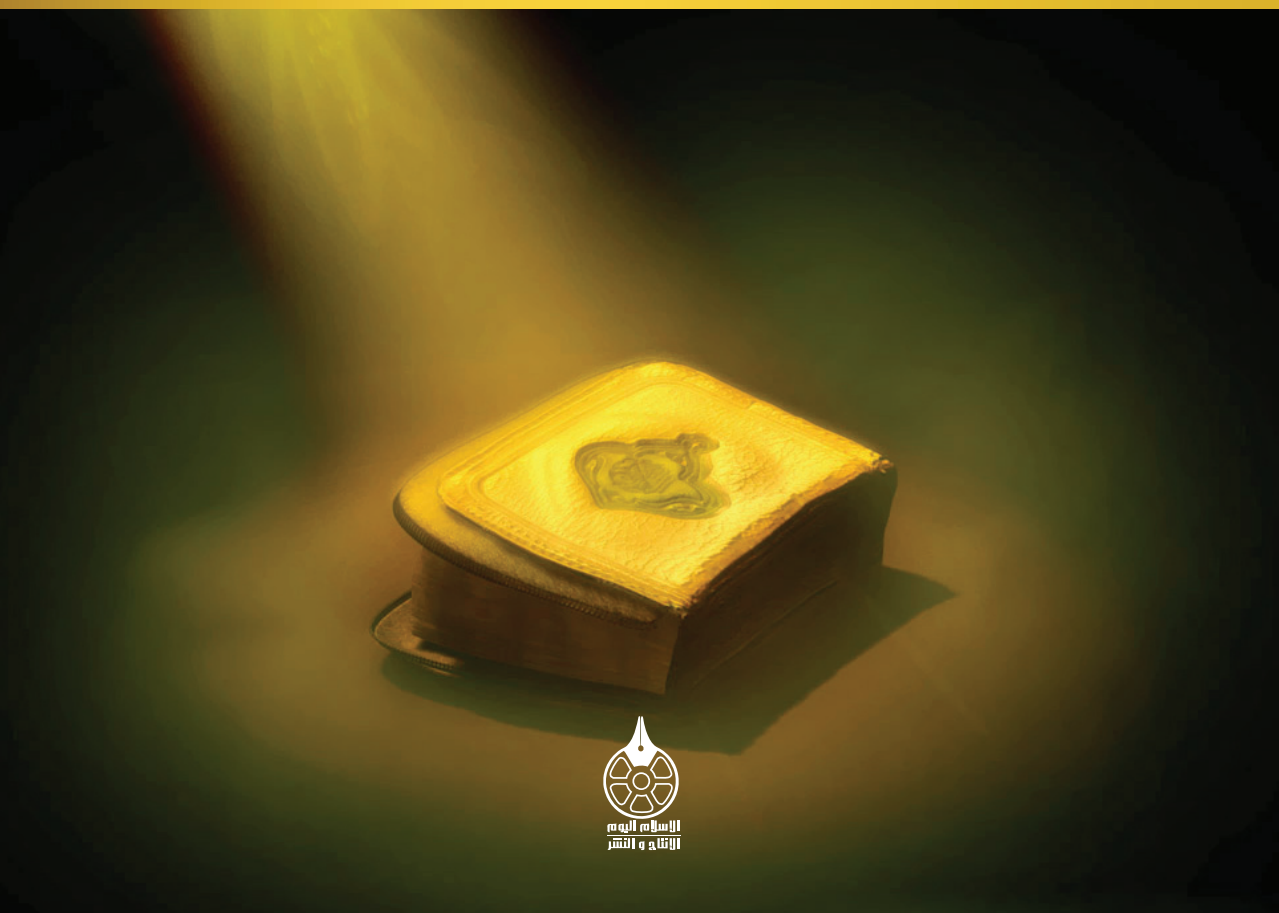

الإسلام اليوم
للإنتاج والنشر

في
إشراقة آية

أ.د عبد الكريم بكار

الطبعة الثانية
جمادي الأولى ١٤٣١ هـ

مؤسسة الإسلام اليوم
إدارة الإنتاج والنشر
المملكة العربية السعودية الرياض
ص.ب. 28577 الرمز: 11447
هاتف: 012081920
فاكس: 012081902
جدة:
هاتف: 026751133
هاتف: 026751144
بريدة:
هاتف: 063826466
فاكس: 063826053
info@islamtoday.net
www.islamtoday.net

التنفيذ الفني والنشر والتوزيع

دار وجوه للنشر والتوزيع
Wojooh Publishing & Distribution House
www.wojoooh.com

المملكة العربية السعودية – الرياض
ت: ٤٩١٨١٩٨ فاكس: تحويلة ١٠٨
للتواصل والنشر:
wojoooh@hotmail.com

في إشراقة آية

أ.د. عبد الكريم بكار

الطبعة الثانية

جمادى الأولى ١٤٣١ هـ

جميع الحقوق محفوظة

مقدمة الطبعة الثانية

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين وبعد:

فهذه هي الطبعة الثانية من كتاب ((في إشراقة آية)) وقد صدرت الطبعة الأولى منه عام ١٤١٧ هـ عن دار هجر في أبها ـ وكان هناك أمل بأن تقوم الدار المذكورة بطباعته مرة أخرى، لكن لظروف صعبة أغلقت الدار أبوابها، وتوقفت عن النشر، ومن ثم فقد عزمت على إعادة النظر فيما تم نشره، ورفده بمقالات جديدة، بعضها نُشرفي مجلة البيان و(المسلمون) الصادرة في لندن و مجلة المعرفة ... وبعضها لم يسبق نشره من قبل . وإذا عدنا إلى الطبعة الأولى، فسنجد أنها اشتملت على (خمس وعشرين مقالة)، أما هذه الطبعة فقد اشتملت على (أربع وثلاثين مقالة) وبما أن ما يكتبه الإنسان يعبِّر عن رؤيته ونظرته للحياة والأشياء، فإني أحب أن أكون أميناً مع قرائي، ولهذا فقد تفحصت هذه المقالات مرة أخرى لأرى مدى تمثيلها لرؤيتي اليوم، وذلك لأن بين أول مقال منها وآخر مقال ما يزيد قليلاً على عشرين

عاماً، وهي مدة كافية لأن يحصل لدى أي كاتب الكثير من التجديد والتطوير في مقولاته ورؤاه، وإن في إمكاني أن أشير في هذا الصدد إلى ثلاثة أمور أساسية :

١ـ وجدت أن الخطوط العريضة في فكري لم تتغير، بل زادت رسوخاً، وزادت البراهين لديَّ على صوابها ورشدها، وهذا في اجتهادي طبعاً .

وتلك الخطوط تتمثل في التركيز على التغيير السلمي البعيد عن القسر والعنف والإكراه والمعتمد على المنطق والوعي والجاذبية والإنجاز والمشروعية .

وقد زاد يقيني خلال هذه المدة بأن مشكلة المسلمين داخلية، وتلك المشكلة تتمثل في ضعف الالتزام وضعف الوعي وضعف التنظيم والفاعلية بالإضافة إلى انتشار الفساد وضياع الحقوق.

٢ـ لمست في المقالات القديمة بعض الأمور التي لا تمثِّل اليوم أسلوبي وذوقي في الكتابة ومنهجيتي في معالجة الأمور، ولعل منها ما يلي :

أـ أشعر أنني كنت في بعض الأحيان أكثر حزماً وحسماً في الربط بين بعض الأسباب والمسببات، مما يجعلني أظهر وكأنني صاحب تفكير حتمي آلي، واليوم أرى أن الظواهر الكبرى تتأثر بعوامل كثيرة، ونحن لا ندري بالضبط حجم تأثير كل عامل، وهذا يتطلب منا التسامح في ربط المقدمات بالنتائج، والصيرورة إلى استخدام لغة أكثر مرونة وأرحب في دلالالتها .

ب ـ وجدت في مراجعتي أنني ميَّال إلى التشكيك فيما لدى الآخرين والتقليل من شأنه، وهذا يجعلني أبدو وكأنني أبخسهم أشياءهم في بعض الأحيان، وهذا ما لا أراه اليوم، فأنا أعتقد أن جزءاً من حلول مشكلاتنا موجود لدى أعدائنا، كما أن بعض ما يخفف من مشكلاتهم موجود لدينا، وهذا لا يعني أبداً أنني لا أدرك

المسافات الثقافية الفاصلة بيننا وبين الأمم والملل الأخرى، كما لا يعني أنني غافل عن الأذى الذي يسبِّبونه لنا .

جـ ـ لاحظت أنني ربما أكون أسرفت في إطلاق بعض العبارات الرنانة انسياقاً وراء فخامة الألفاظ أو حدة المعاني، وهذا ما لا أراه اليوم حيث أعتقد أن علينا أن نكون أكثر حرصاً على الدقة وأكثر تحفظاً في استخدام التعبيرات ذات الدلالات الضخمة أو العائمة .

د- سيلاحظ القارئ الكريم وجود تكرار بعض الأفكار والاستشهادات، وهذا بسبب تباعد تواريخ كتابة هذه الإشراقات، فأرجو المعذرة.

٣ـ أود أن ألفت الأنظار إلى أنني وجدت بعض المقالات المنشورة على الشابكة (الإنترنت) تحت عنوان (في إشراقة آية) وتلك المقالات نسبَها بعض الناس إليَّ، وهي ليست مما كتبته، وإن أدنى نظر فيها يدل على أنها لا تنسجم مع منهجيتي كما أن أسلوبها مغاير لأسلوبي .

هذا وإني لأسأل الله ـ تعالى ـ بأسمائه الحسنى وصفاته العليا أن يتقبل هذا الجهد، وأن ينفع به إخواني القراء، إنه ولي ذلك، والقادر عليه.

وصلى الله على عبده ونبيه محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

المؤلف

الرياض في ٢٢/ ٤/ ١٤٣١ هـ

في
إشراقة آية

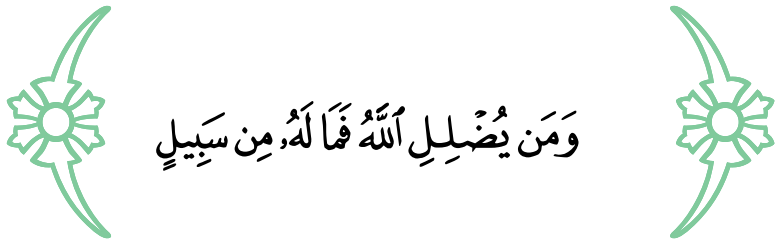

قصة البشرية هي قصة البحث عن طريق السعادة والأمن والاستقرار... وقصة البحث عن الفهم والوضوح، ومحاربة (العماء) و (اللاتكوّن) لكن نتائج ذلك كثيراً ما تكون موضوعاً محزناً للقراءة!

وهذه الآية المباركة تفتح أعيننا على السبب الجوهري لذلك؛ إنه بحث البشرية عن نجاتها بعيداً عن هدي الله – تعالى – وبعيداً عن سبيله الذي وضَّحه لعباده في كتبه، وعلى لسان رسله وأنبيائه ـ عليهم الصلاة والسلام– ولعلنا نقف مع هذه الآية الكريمة بعض الوقفات التي نستجلي من خلالها بعضَ ما تشعِّه من معان ومفاهيم، وبعضَ ما ترتب على الحَيْدة عن سبيل الله من مآسٍ ومهلكات، وذلك من خلال الحروف الصغيرة الآتية:

١– تقرر هذه الآية المباركة أن سبيل الهداية هو السبيل الوحيد الذي على البشرية أن تسلكه، وفي حال تنكبه، فليس هناك سبل أخرى للنجاة والفوز والنجاح.

ومعنى الآية: أن من يضلله الله فليس له طريق يصل به إلى الحق في الدنيا، وإلى

الجنة في الآخرة، لأنه قد سُدَّت عليه سبل النجاة. إن الضال يجد سبلاً كثيرة، لكنها جميعاً توصله إلى غير ما يؤمِّله، وإلى غير ما يحقق من خلاله ذاتيته ووجوده، وهذا هو الذي يُفهم من قوله - جلَّ وعلا: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾﴾ الأنعام: ١٥٣.

وفي حديث ابن ماجه عن جابر - رضى الله عنه - قال: (كنا عند النبي ﷺ فخط خطاً، وخط خطين عن يمينه، وخط خطين عن يساره، ثم وضع يده في الخط الأوسط، فقال: هذا سبيل الله، ثم تلا هذه الآية: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا﴾[1].

إن هناك دائماً الكثير من إمكانات الحركة، والكثير من اتجاهات السير، لكن عدم وجود (الهداية) الربانية يجعل تلك الإمكانات وبالاً على البشرية، وهذا هو الحاصل الآن.

٢- يلمس كل من يُعمل فكره في واقع البشرية وجود مفارقة عجيبة بين ما تُحرزه في مضمار الاكتشاف والتقنية والتنظيم والسيطرة على البيئة، وبين ما تحرزه من تقدم على الصعيد النفسي والاجتماعي والأخلاقي والإنساني - عامة - حيث إن التقدم التراكمي المطرد على الصعيد الأول، لا يكاد يوازيه سوى الحيرة والارتباك، واتساع الخروق على الصعيد الثاني، وهذا مع أن الناس يؤملون دائماً أن ينعكس توفر وسائل الراحة والرفاهية على وضعهم الروحي والنفسي والاجتماعي، لكن ذلك - مع الأسف - أمنية لم تتحقق!

في الغرب تساؤلات كثيرة اليوم عن سبب هذه الظاهرة المزعجة، وتفسيرات عديدة لها، فمن قائل: إن العالم لم يوجِّه من إمكاناته وطاقاته البحثية ما يكفي لسبر

١- أحمد، ح / ١٤٨٥٣.

غور الأبعاد الإنسانية والاجتماعية المختلفة؛ وما بُذِل من جهد في هذه المجالات أقل بكثير مما بذل في المجالات الفلكية والطبية والفيزيائية والكيميائية...، ولذلك فالنتائج لم تكن غير متوقعة، ومن قائل: إن المشكلة تعود إلى طبيعة العلوم الاجتماعية، فهي على درجة من الهلامية تجعلها تتأبى على التشكيل، ومهما حاولنا تقنين أساليب التعامل معها، فإن النتائج التي يمكن أن نتوصل إليها ستظل ظنية واحتمالية، ومن قائل: إننا لم نكتشف بَعدُ المنهجَ الملائم لبحث قضاياها ومشكلاتها، والأدوات المعرفية المستخدمة الآن في المجالات الاجتماعية أكثرها مستعار من منهجيات البحث والمعالجة في المجالات العلمية، ولذا، فإنها ستظل محدودة الفاعلية... وهكذا، فالتحليلات كثيرة، لكن لا يبدو أن هناك سبيلاً للخروج من المأزق!

وعندي أن التقدم في مجالات العلوم الطبيعية، يعود إلى أسباب عدة، أهمها:

توفر الإطار الذي تتفاعل فيه الخبرات والإنجازات في المجالات المختلفة، مما يجعل التقدم الأفقي في المجالات العلمية المختلفة يساعد على التقدم الرأسي في كل مجال على حدة. وقدأمكن التقدم في بلورة هذا الإطار، وفي تحديد المبادئ الأساسية للعمل فيه لسببين أساسيين:

يعود الأول منهما إلى أن العلم محدود الطموحات، ويشتغل بالجزئيات؛ فكثافة إنجازاته من تواضع طموحاته.

ويعود الثاني إلى ضعف صلته بمسائل الوحي والروح والاعتقاد، فكأن الإنجاز فيه في الأصل جزء من سنة الابتلاء في هذه الحياة، والذي على الناس أن يستخدموا فيه كل مواهبهم وإمكاناتهم للنجاح. أما في مجال العلوم الاجتماعية، فالأمر مختلف تماماً، فمهما بذل الناس من جهود، ومهما اكتشفوا من مناهج، فإنهم لن يستطيعوا –

مثلاً – تحديد الغاية النهائية للوجود، كما أنهم لن يستطيعوا توفير المقدمات الكافية لتحديد ما يحتاج إليه العقل من مسارات حتى يقوم بأعمال الاستنتاج والتوليد، كما أنهم سيجدون أنفسهم مشتتين حيال تقويم التجارب الكلية.

العقل البشري – على ما يتمتع به من طاقات هائلة – تظل وظيفته عند بحث القضايا الكبرى أشبه بوظيفة (المدير التنفيذي) الذي يجهِّز كل أدوات الرحلة ووسائلها، لكنه لا يحدِّد أهدافها ووجهتها؛ فذاك من مهام (القائد) الذي يتجسد هنا في المنهج الرباني المعصوم. وممن انتهى إلى هذه النتيجة (أنشتاين) وهو من أكبر عباقرة القرن العشرين عندما قال: (إن حضارتنا تملك معدات كاملة، لكن الأهداف الكبرى غامضة).

٣- حين أعرض الغرب عن (سبيل الله) أخذ يبحث بجدية نادرة عن السبيل البديلة التي يمكن أن توصله إلى كل أمنياته، وتحقّق له كل رغباته، وقد كان (القرن التاسع عشر) قرن التفاؤل الكبير؛ إذ حقق العلم انتصارات كبيرة، واعتقد الناس في الغرب عندئذ أن (العلم) سيكون قادراً على تحقيق كل شيء وحلِّ كل معضلة، وسيطرت من جرَّاء ذلك النزعة الوضعية أو العلمية المتطرفة التي اعتقد أصحابها أنهم قادرون على حل لغز الكون والإجابة على كل الأسئلة التي يطرحها الإنسان، والمسألة مسألة وقت ليس أكثر. وانتهى بهم الأمر إلى الاعتقاد بالتضاد بين (العلم) و(الإيمان) فإما أن تكون عالماً غير مؤمن، أو مؤمناً غير عالم!

في النصف الثاني من القرن العشرين – على نحو أكثر وضوحاً – بدأت النظرة تختلف[1]، حيث شهد هذا القرن حربين عالميتين إلى جانب أكثر من ١٣٠ حرباً

١- انظر كتاب العلم والإيمان في الغرب الحديث: ٦، ٧ تأليف: هاشم صالح، ضمن سلسلة كتاب (الرياض) عام

صغيرة، وحيث صارت البيئة الطبيعية في حالة يرثى لها، وأخذت البنى الاجتماعية المختلفة بالتداعي والانهيار، وتبين لصفوة من علماء الغرب عظم الخطأ الذي ارتكبه الغربيون حين ردوا على انحرافات الكنيسة بالإلحاد وتأليه (العلم)، كما تبين لهم أن العلم أعجز من أن يدل على طريق النجاة. يقول (بيير كارلي)[1]: (العلم يهدف إلى تمكيننا من معرفةٍ أفضل بالعالم وعلاقتنا به، كما أن العلم ينير لنا الطريق في صدد ما يمكن فعله، وبخصوص الوسائل والإمكانات المتاحة، أو الرهانات والمخاطر. أما (الإيمان) فيقول لنا ما ينبغي فعله لكي نعطي لحياتنا معنى، إنه يقدِّم لنا الغاية من الوجود والقيم وأسباب الأمل والعمل)[2].

هذه الأفكار صارت من جملة معتقدات بعض صفوة العلماء والمفكرين في الغرب، لكنها ليست في واقع الأمر سوى خطوات قليلة في طريق طويل، والتخريب الذي أحدثته (العلمانية) في بنى الحياة الغربية على مدى ثلاثة قرون شديد الانتشار والعمق؛ والأمل في الإصلاح على المدى المنظور ضئيل للغاية!

٤- إن أمة الإسلام ما زالت تنعم - بفضل الله - بالهداية ومعرفة (سبيل الله) وهذا ما يوفر للمسلمين اليوم تميزاً، لا يَشْرَكهم فيه أحد، كما أنه يخفِّف الكثير من لأواء الحياة ومشاقها. وأكبر دليل على هذا عدم وجود ظاهرة (الانتحار) في أي مجتمع إسلامي، على حين أنها تنتشر في أكثر دول العالم تقدماً ورفاهية. لكن لا ينبغي لنا أن نطمئن كثيراً إلى ما نحن فيه، فهذا الفيض من الأفكار والصور والنظم والنماذج التي يبثها في كل اتجاه أكثر من خمسمائة قمر صناعي تدور حول الأرض

١٩٩٨م.

١- أستاذ فسيولوجيا الأعصاب وعضو أكاديمية العلوم منذ عام ١٩٧٩ م.

٢- السابق: ٦٣.

أربك (الوعي) لدى كثير من المسلمين، وبتنا نرى الكثير من الثقافات المحلية العميقة الجذور آخذةً في التحلل والتفكك والانكماش لصالح رموز الحداثة القادمة من الغرب، وهذا يُفْرِغ الكثير من الأطر والقوالب الإسلامية من مضامينها، ويُدخِل مجتمعاتنا في امتحان ليست مستعدة له!

إن الذي يقرأ التاريخ بشفافية يجد أن التقدم العمراني كثيراً ما يكون مصحوباً بانخفاض في وتائر التدين وسويّات الالتزام، فالقرن الرابع الهجري – مثلاً – كان قمة في التقدم العلمي والعمراني، لكن الالتزام بتعاليم الشريعة لم يكن كذلك، فقد كان في القرون التي سبقته أفضل وأرسخ. وهذا معنى تحذير النبي ﷺ لأمته من الانبهار والافتتان بزخارف الدنيا، وخوفه من أن تعجز عن إقامة أمر الله – تعالى – في ظروف الرخاء والرفاهية.

إن المنتجات التقنية – بالإضافة إلى هيمنة (نظام التجارة) – أخذت تعيد تشكيل حياتنا على نحو لا يعبأ كثيراً بمقتضيات التدين الحق، وصار من الواجب علينا أن نتدبر أمرنا، ونرفع درجة حساسيتنا للوافدات الجديدة، وإلا فقد نستيقظ بعد فوات الأوان. إن على مثقفي الأمة – على اختلاف تخصصاتهم – أن ينهضوا بمسؤولياتهم والوفاء بالعهد المأخوذ عليهم في هذا الشأن، فالثقافة ليست وجاهة فحسب، وإنما ريادة ومسؤولية في آن واحد.

ولله الأمر من قبل ومن بعد.

في
إشراقة آية

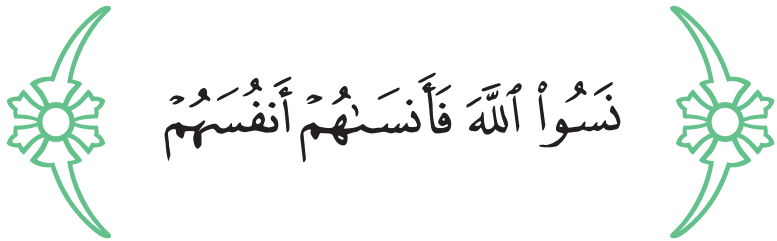

يقول الله ﷻ: ﴿ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿١٩﴾ ﴾ الحشر: ٩.

هذه آية جليلة الشأن في كتاب الله ـ تعالى ـ وهي تضع أيدينا على حقيقة كبرى من حقائق هذا الوجود، وتمنحنا استبصاراً بشأننا العام، لا يليق بنا أن نتجاوزه دون أن يملأ حياتنا بمعنى جديد!

ولعلنا في الصفحات التالية نقتبس من نور هذه الآية:

١- إن نسيان الله - تعالى- يكون على مستويين: مستوى ضعف صلة المسلم به، وتبلد أحاسيسه ومشاعره نحو خالقه ﷻ ومستوى الإعراض عن هديه واستدبار منهجه.

وفي إطار المستوى الأول نجد أن لدينا الكثير الكثير من النصوص التي تحثُّ المسلم على أن يكون كثير الذكر والمراقبة لله ـ تعالى ـ حتى يصل إلى مرحلة الحب له

وفرح الوعي به، والاستئناس بذكره، وقد قال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكۡرٗا كَثِيرٗا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾﴾ الأحزاب: ٤١-٤٢ وقال: ﴿وَلَذِكۡرُ ٱللَّهِ أَكۡبَرُ﴾ العنكبوت: ٤٥.

وفي الحديث الصحيح: (مثل الذي يذكر ربه، ولا يذكره كمثل الحي والميت)[1] ولو رجعنا إلى ما حثت عليه النصوص من الذكر، مما يسمى بعمل اليوم والليلة، لوجدنا أن الالتزام بذلك يجعل المسلم لا يكاد ينفك عن تسبيح وتحميد وتهليل واستغفار وتضرع ودعاء، ما دام مستيقظاً. إن كثرة ذكر الله تعالى تولّد لدى المسلم الحياءَ منه وحبه، وتنشّطه للسعي في مرضاته، كما تملأ قلبه بالطمأنينة والأمان والسعادة؛ ليَنْعَمَ بكل ذلك في أجواء الحياة المادية الصاخبة.

إن الفكر يرسم المسار، ويرشد إلى الطريق الأصلح للحركة والعمل، لكنه لا يكون أبداً منبعاً للطاقة والعزيمة والإرادة الصلبة، وإن الصلة بالله ـ تعالى ـ والتي هي لباب كل عبادة هي التي تَمُدُّنا بكل ذلك، وإن المعاناة التي يشعر بها المسلم اليوم من جراء الانفصال بين قيمه وسلوكه، لم تتجذر في حياة كثير من المسلمين إلا بسبب ما يشعرون به من العجز عن الارتفاع إلى أفق المنهج الذي يؤمنون به؛ وذلك العجز لم يترسخ، ويتأصل إلا بسبب نضوب ينابيع المشاعر الإيمانية في داخلنا!

إن تيار الشهوات والمغريات الذي يجتاح كل ما يجده أمامه اليوم، لا يقاوَم إلا بتيار روحي فياض، يعبُّ منه المسلمون ما يسمو بهم عن أوحال الملذات والمتع الدنيوية، ويعوضهم عن نشوتها. ولذا فإن (أدب الوقت) يقتضي من

١- أخرجه البخاري.

المربين والعلماء الناصحين وأهل الفضل التوجيهَ إلى إثراء حياة الشباب والناشئة بالأعمال الروحية، وعلى رأسها الذكر، حتى لا يقعوا في مصيدة النسيان واللهو والإعراض عن الله؛ تعالى.

إن مما صار شائعاً أن ترى بعض العاملين في حقل الدعوة، وقد شُغلوا بضروب من أعمال الخير، لكن الجانب الروحي لديهم صار ذابلاً، وأقرب إلى الجفاف بسبب إفراغ طاقاتهم في السعي إلى تحقيق أهداف عامة، كنفع الناس، أو الدعوة إلى الله – تعالى– دون أن يستحضروا النية، ودون أن يطبعوا على ذلك اسم الله تعالى ودون أن يعطروه بشذى من الصلة به، والإحساس العميق بالامتثال لأمره.

وكانت نتيجة ذلك أن فقدت تلك الأنشطة نكهتها وتأثيرها، وقَصُرت عن بلوغ أهدافها، بل صار تسرب حظوظ النفس إليها أمراً قريباً و وارداً. إن البنية العميقة للثقافة الإسلامية متمحورة على نحو أساسي حول تعظيم الله ومرضاته، وإن المسلم إذا فقد قوة الشعور بالارتباط بذلك، لن يسعى في إعمار الأرض، وإذا فعل ذلك فإن عمله لن يكون له أدنى تميز، وسيتخبط، ويرتع كما يفعل غيره!

٢– هناك مستوى آخر من نسيان الله ـ جل شأنه ـ يتمثل في تخطيط شؤون الحياة بعيداً عن الاهتداء بكلماته، والتقيد بالقيود التي فرضها على حركة عباده. وهذا في الحقيقة هو النسيان الأكبر، وعند تقليب النظر في واقع أمة الإسلام اليوم نجد أن نسبة محدودة من المنسوبين لهذه الأمة تلتزم على نحو كلي بفعل الواجبات، وترك المحرمات. وبما أن الإحصاء حول أي شيء ليس مرغوباً فيه لدى جهات عديدة، فإننا لا نعرف، ولا نحزر الاتجاه الذي تسير فيه تلك النسبة المحدودة من الملتزمين: هل هو النمو، أو هو الانكماش والانحسار؛ لكن من الواضح أن العديد من القيم

والأخلاق الإسلامية العتيدة بدأ يفقد التأثير في ضبط السلوك، وتكوين المواقف لأسباب عديدة، ليس هنا موضع شرحها. وحين تسمع لكلام كثير من ذوي النفوذ والثقافة في الساحات الإسلامية لا تجد في أحاديثهم وخطابهم العام ما يدل في الشكل أو في الروح على أنهم على شيء من ذكر الله والدار الآخرة، أو أنهم متأثرون بشيء من منهجيات هذا الدين وأدبياته، على الرغم من أنهم يُذكَرون في عداد المسلمين! وإن مما يلاحظ في هذا السياق أن تطوراً مُريعاً قد اجتاح لغة الخطاب لدينا خلال السنوات العشر الماضية، فقد كانت لدينا قيم موضوعية ثابتة، على من يستحق الثناء أن يتخلق بها، وقد كان الناس يقولون: فلان طيب، ابن حلال، خلوق، صالح، مستقيم، تقي، متواضع.. أما اليوم فإن ألفاظ المديح تتمحور حول عدد من المزايا الشخصية المرتكزة على مهارات معينة، وعلى علاقات اجتماعية واسعة، هي أشبه بما على (مندوبي المبيعات) أن يتقنوه! وصار يقال: فلان ناجح، شاطر، اجتماعي (دبلوماسي) حَرِك، مَرِن، أثبت ذاته، وحقق وجوده، وفي اعتقادي أن مثل هذا التطور سوف يجعل المجتمع يموج باللصوص والمرتشين والمحتالين ما دام النجاح، لا الفلاح، هو المنظِّم الخفي للتراتيبية الاجتماعية! وقد نعدُّ هذا من أسوأ ما شاهدناه من أشكال التطور الأخلاقي والاجتماعي والتربوي، وسوف تكون له آثار بعيدة المدى في البنية الأساسية للشخصية المسلمة على مدى عقود عديدة قادمة!

٣- إن الآية الكريمة صريحة في أن نسيان الله - تعالى كان سبباً مباشراً في جعل المرء ينسى نفسه، وكأن الذي يضيّع نفسه في عاجلها وآجلها، يضيّع الدنيا فتلفه المشكلات من كل صوب، ويضيِّع الآخرة بخسران النجاة والفوز بالجنة.

إن نسيان النفس ليس على درجة واحدة، وإن الضرر الذي سيلحق الناس

سيكون بالتالي متفاوتاً، وعلى مقدار النسيان والتضييع لأمر الله ـ تعالى ـ سيكون التضييع للنفس والدنيا والآخرة.

إن خسران الآخرة للذين ينسون الله، واضح المعالم، ويستوي في معرفته العامة لدينا والخاصة، لكن التضييع لأمر الدنيا هو الذي يحتاج إلى نوع من البيان، ولعلنا نجلوه في النقطتين التاليتين:

- إن عصر المعلومات الذي يظلّنا الآن سيكون - والله أعلم - أقصر العصور الحضارية، وسوف يعقبه عصر آخر، هو عصر (الفلسفة) وبحث المسائل الكلية، وستُطرَح الأسئلة الكبرى: من أين جئنا، ولماذا نحن هنا، وإلى أين المصير، ما حدود الطبيعة البشرية، وما ماهية الخير والشر..؟ وإنما نقول ذلك؛ لأن قراءة التعاقبات التاريخية، تنبئنا أنه حين تصل حالة ما إلى حدود متقدمة، تبزغ من الطبيعة البشرية حالة مضادة لها؛ فحين تشتد العقلانية أو التقنيّة في أمة، فإن أشواقاً تنبعث لكسرها، فينبثق من العقلانيّ العاطفيُّ، ومن التقنيّ الفلسفيُّ والفكريّ، إنه أحد مظاهر سُنّة التوازن التي بثها الخالق ﷻ في هذا الكون! ولذا فإن الهمجيّين وسوقة السوقة وحدهم، هم الذين لا يتشوّفون إلى معرفة مصيرهم النهائي، وإلى معرفة الغايات الكبرى للوجود!

حين تصير البشرية إلى هذه المرحلة، سيكتشف الذين نسوا الله، أنهم لا يملكون أي جواب جازم، أو مُقْنع على الأسئلة الكبرى المثارة بإلحاح، بل سيجد الغرب على نحو خاص أنه قد أحرق كل سفن العودة إلى (الوحي) الذي يُعدُّ المصدر الوحيد الذي يجيب على تلك الأسئلة.

إن كل إصلاح لشؤون البيئة والاقتصاد، وإن أي نوع من المحافظة على منجزات

البشرية، سيقتضي من اليوم فصاعداً تقدماً ملحوظاً على صعيد (الإنسان) وما لم يحدث هذا التقدم، فإن كل شيء سيكون في مهب الريح! والملاحظ بقوة أن الحضارة الحديثة بصبغتها المادية، قد نقلت مجال السيطرة من الإنسان إلى الأشياء، حيث أضعفت إرادة البشر، وأحاطتها بكل ما يخل بتوازنها، وهذا يعني أن الحضارة الغربية ببنيتها الحاضرة ليست مؤهلة للنهوض بالإنسان. إذا كنا نعتقد أن الطبيعة البشرية واحدة، فهذا يعني أن غايات وجودها يجب أن تكون واحدة، وهذا هو منطوق الوحي، وهذا ما لا يبصره الإنسان العلماني اليوم! لن تكون الأسئلة المثارة أصيلة إلا إذا كان لها أجوبة موجودة عند جهةٍ ما وهذه الجهة لن تكون أبداً الإنسان، فمن تكون إذن ؟

إن الله ـ تعالى ـ خلق العقل البشري ليكون في الأصل عقلاً عملياً، وهو في عمله يشبه (الحاسوب)، وهو كالحاسوب لا يستطيع إدخال تحسينات جوهرية على المدخلات التي يُغذى بها، وسيكون الأمر مضحكاً إذا عمدنا إلى تشغيل العقل البشري وتحسين طروحاته وعمله بشيء من منتجاته التي تولّى تنظيمها الفلاسفة، وهم الذين لم يفلحوا في الاتفاق على أي شيء! . إن كل شيء اليوم يتقدم إلا الإنسان فإنه في تدهور مستمر، وإن مما يثير الفَزَع أنه على مدار التاريخ كان التقدم المادي والعمراني مشفوعاً بانخفاض في وتائر التدين والسمات الإنسانية الأصيلة، مما يدل على أن الإنسان لا يستطيع أن يوازن بين مطالبه الروحية والجسدية، دون عون من خالقه، ولكن المؤسف مرة أخرى أننا لا نريد أن نعترف بذلك ؛ لأن ذلك يقتضي منا تغييراً هائلاً، نحن غير مستعدين الآن لدفع تكاليفه! إن نسيان الله – تعالى– قد أفسد النسيج الإنساني كله، وحين يفسد النسيج العام، فلن يكون ثمة فائدة تذكر من وراء التعليم والتدريب والتربية،

وكيف يمكن إصلاح خبز أو كعك أو فطير فسد طحينه ؟!

إن ضعف الإنسان على مدار التاريخ كان من عوامل استمرار بقائه، أما اليوم فقد اجتمع للبشرية القوة الغاشمة مع الطيش الشديد وضعف الوازع الداخلي، وهذا ما سيسبِّب الكوارث ما لم يحدث انعطاف كبير في اتجاه الرشد، والهداية، والتدين المبصر الأصيل.

ب – إن المهمة الأساسية للرسل ـ عليهم السلام ـ أن يبصِّروا الناس بما يجب عليهم تجاه خالقهم، وأن يذكّروهم الدار الآخرة ومطالب الفوز فيها: ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلۡعَرۡشِ يُلۡقِي ٱلرُّوحَ مِنۡ أَمۡرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوۡمَ ٱلتَّلَاقِ ﴿١٥﴾﴾ غافر: ١٥.

ومهمة المصلحين إذا ما أرادوا الاستجابة لدعوتهم أن ينضحوا من التعاليم الإسلامية شيئاً يمزجونه بالخيال الخصب والخبرة البشرية والملاحظات الذكية، من أجل توفير الظروف التي تجعل الناس أقرب إلى الالتزام. وإن هذه الدنيا دار ابتلاء، ولذا فإن علينا دائماً أن نختار ما يُصلح أحوالنا، وإن لكل عصر اختياراته واجتهاداته. والمشكلة أن الفضائل والقيم والنظم لا يتفق بعضها مع بعض اتفاقاً كلياً، بل إن إقامة كثير منها قد يتطلب التضحية ببعضها الآخر: إذا اخترنا الحرية الفردية، فقد يقتضي ذلك التضحية بشكل تنظيمي نحن في أمس الحاجة إليه، وإذا اخترنا العدالة، فقد نُرغَم على التضحية بالرحمة، وإذا اخترنا المساواة، فقد نضحي بقدر معين من الحرية الفردية..

ومن وجه آخر هل يصح أن نعذب أطفالاً كي ننتزع منهم معلومات عن خونة أو مجرمين خطرين ؟ وهل للمرء أن يقاوم حاكماً ظالماً، ولو أدى ذلك إلى مقتل والديه أو أطفاله ؟ كل هذا لا يستطيع العقل أن يعطي أجوبة واضحة، وقاطعة عنه. وننتهي

من هذا إلى أن كل مجتمع يحتاج إلى مقدار ما من تلك الفضائل والنظم، كي يجعل حياته متوازنة ومتسقة، فكيف يتم تحديد ذلك المقدار؟

إن المنهج الرباني لا يحدد لنا على نحو دقيق القدر المطلوب من التماثل الاجتماعي، ولا القدر المطلوب من الحرية الفردية، أو العدل أو الرحمة.. لكنه يضيِّق دوائر الاختيار، ومساحات البحث والاجتهاد؛ والفارق بين المهتدي بنور الله والمحروم منه كالفارق بين من يبحث عن إبرة في صحراء، ومن يبحث عنها في غرفة. على الجميع أن يبحث، ولكن حظوظ العثور على المطلوب متفاوتة تفاوتاً عظيماً، كما أن إمكانات الوقوع في الخطأ، هي الأخرى متفاوتة كذلك. إن العقل بطبيعة تركيبه لا يستطيع أن يعمل في أي مجال: فلسفي أو تنظيمي أو تقني إلا إذا أُسعِف بإطار توجيهي يهيئ له بعض المقدمات و المدخَلات الضرورية، وإن المنهج الرباني عقيدةً وشريعةً هو الذي يوفر ذلك الإطار. في مجال التربية الاجتماعية مثلاً نجد أن الشريعة الغراء حدَّدت لنا محاور أساسية، يجب أن ترتكز عليها أنشطتنا التربوية، وهي ما سماه أهل الأصول بالكليات أو الضرورات الخمس، وهي حفظ الدين والنفس والعقل والعرض والمال، وقد تكفّل الفقه الإسلامي بتوفير الأحكام والأدبيات التي ترسم حدود الحركة التربوية في ظل هذه المحاور الخمسة، وتوضيح المرتبية التي يجب اتباعها عند ضرورة التضحية ببعضها لحفظ الآخر، على ما هو معروف في كتب الأصول والفقه؛ فالشأن التربوي لدينا على علاته أفضل مما هو موجود لدى دول كثيرة متقدمة عمرانياً؛ وذلك بسبب وجود هذا الإطار التوجيهي، وهذا كله مع أن أكثر الشعوب الإسلامية تعاني من أوضاع معيشية قاسية، ولا ننسى أن الجرائم الأخلاقية لدينا أقل، والتماسك الأُسْري والاجتماعي أفضل.

إن محنة العقل الذي نسي الله لم يحن أوانها بعدُ، ولكن إذا وصل النمو الاقتصادي إلى حدوده القصوى، وانتشرت البطالة، وعم ضنك العيش، فسوف يرى كل المعرضين عن دين الله أن الليبرالية والرأسمالية ليست أفضل ما أنتجه العقل البشري، وأن الخلاص يتطلب مراجعة جذرية، من أجل العودة إلى سبيل الرشاد.

الإنجازات الحضارية وسعادة الأفراد، ووحدة الكيان الحضاري، كل ذلك سيكون على حافة الهاوية إذا لم يضئ كل منعطفات الطريق شعاع من الغاية الكبرى، وإذا لم تتلفع جميعاً بهدي من هدي الله؛ والله غالب على أمره.

في
إشراقة آية

فَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَ

يقول الله ﷻ: ﴿فَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطۡغَوۡاْۚ إِنَّهُۥ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ١١٢ وَلَا تَرۡكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنۡ أَوۡلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ١١٣﴾ هود ١١٢-١١٣.

قضية الاستمرار في الامتثال لأمر الله ـ تعالى ـ في المنشط والمكره من القضايا الجوهرية في التصور الإسلامي، ومن القضايا الجوهرية كذلك في بنية التشريع وأدبياته، وليس أدل على ذلك من وصية الله ـ تعالى ـ لنبيه ﷺ في هذه الآية وفي غيرها بـ (الاستقامة)، التي هي: (المداومة على فعل ما ينبغي فعله، وترك ما ينبغي تركه).

وقد قام ﷺ بإسداء النصح بلزومها لمن سأله عن قولٍ فصل يُصلِح به جماع أمره، حيث جاء في الصحيح: أن سفيان بن عبد الله (رضي الله عنه) قال: قلت: (يا رسول الله، قل لي في الإسلام قولاً لا أسأل عنه أحداً غيرك، قال: قل: آمنت بالله، ثم استقم)[1].

١- أخرجه مسلم.

ولنا مع هذه الآيات المباركة الوقفات التالية:

١- إن في قوله ﷻ ﴿وَلَا تَطْغَوْا﴾، وقوله: ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓا إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ﴾ إشارة واضحة إلى ما يعترض سبيل الاستقامة من ملابسات السرّاء والضرّاء، وقد أخبرنا ربنا ﷻ أن من طبيعة البسط والتمكن استدعاءَ البغي والطغيان، حيث قال - سبحانه -: ﴿وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ الشورى: ٢٧.

البغي هو مجاوزة الحد، وهو يتجسد في صور متعددة: فبغي القوة: البطش بالضعفاء، وبغي الجاه والنفوذ: الظلم وأكل الحقوق، وبغي العلم: اعتماد العالم على ما لديه من شهرة ومكانة؛ مما يدفعه إلى القول بغير دليل، ورد أقوال المخالفين من غير حجة ولا برهان، وطغيان المال: التبذير والإسراف والتوسع الزائد في المتع والمرفهات.

والعارض الثاني للاستقامة على خلاف الأول، حيث تدفع الطموحات والتطلعات المصلحية والضعف والظروف الصعبة إلى مصانعة الظالمين ومداهنتهم وإشعارهم بالرضا عما هم فيه، والاستفادة من قوتهم وما لديهم من متاع في تحسين الأحوال وتحقيق المكاسب... مع أن طبيعة الاستقامة والالتزام في هذه الحال تقتضي المناصحة، والهجر، والضغط الأدبي، والتحذير من التمادي في ذلك، وهذا كله منافٍ للركون؛ لكن الشيطان يبرهن دائماً على أنه يملك خبرات مميَّزة في تزيين الباطل والتلبيس على الخلق، فهو يُنسيهم أحكاماً ومواعظ وأدبيات ومواقف وتجارب، ويدفع بهم بعيداً عن كل ذلك!

٢- إن الاستقامة في التحليل النهائي ليست سوى تمحور المسلم حول مبادئه ومعتقداته، مهما كلَّف ذلك من عَنَت ومشقة، ومهما فوَّت من فرص ومكاسب.

وينبغي أن يكون واضحاً أن المرء إذا أراد أن يعيش وفق مبادئه، ورغب إلى جانب

ذلك أن يحقق مصالحه إلى الحد الأقصى، فإنه بذلك يحاول الجمع بين نقيضين، وسيجد أنه لا بد في بعض المواطن من التضحية بأحدهما حتى يستقيم أمر الآخر.

إن تحقيق المصلحة على حساب المبدأ يُعدُّ انتصاراً لشهوة أو مصلحة آنيّة، أما الانتصار للمبدأ على حساب المصلحة فإنه بمثابة (التربع) على قمة من الشعور بالسعادة والرضا والنصر والحكمة والانسجام والثقة بالنفس، وقد أثبتت المبادئ أنها قادرة على أن تكرر الانتصار المرة تلو المرة، كما أثبت الجري خلف الشهوات دون قيد ولا رادع أنه يحقق نوعاً من المتع والمكاسب الآنيّة، لكنه لا يفتأ أن يرتدَّ على صاحبه بالتدمير الذاتي، حيث ينمو الظاهر على حساب الباطن، ويتألّق الشكل على حساب المضمون!

إن المبدأ أشبه شيء بـ (النظارة) إذا وضعناها على أعيننا، فإن كل شيء يتلّون بلونها، فصاحب المبدأ له طريقته الخاصة في الرؤية والإدراك والتقويم، إنه حين يرى الناس يتسابقون على الاستحواذ على منصب يستغرب من ذلك، ويترفّع؛ لأن مبدأه يقول له شيئاً آخر غير ما تقوله الغرائز للآخرين، وإذا رأى الناس يخبطون في المال الحرام تقززت نفسه؛ لأنه يعلم ضخامة العقوبة التي تنتظر أولئك، وإذا أصيب بمصيبة فإنه يتجلد ويصبر؛ لأنه يرجو عليها المثوبة من الله؛ تعالى.

إذا قلّبنا النظر في اهتمامات الناس ومناشطهم اليومية، فإن من السهل الوقوف على المحور الذي يعلّقون عليه توازنهم العام، ويدورون بالتالي في فلكه، وهناك تشاهد من همُّهُ الأكبر النجاح في عمله والمحافظة على سمعته فيه، كما تشاهد من يتمحور حول المتعة، فهو يبحث عنها في كل نادٍ وواد، ومن يتمحور حول المال، فهو يجوب العالم بحثاً عنه، ومن يبحث عن السيطرة والنفوذ، فهو مستعد لأن يفعل أي شيء

في سبيل التمكن والتحكم.. وتجد ثلة قليلة بين هذا الطوفان من البشر استهدفت أن تحيا لله، وأن تبحث عن رضوانه، ومن ثم: فإنه يمكن تفسير كل أنشطتها ومقاصدها في ضوء هذا المحور، وهذه الثلة هي التي أُمِر النبيّ ﷺ أن يفصح عن محورها بوصفه رائدها وهاديها: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾﴾ الأنعام: ١٦٢، ١٦٣.

إن الذين يعلنون الولاء للمبادئ كثيرون، بل هم جُلُّ أهل الأرض، ولكن لا برهان على ذلك لدى أكثرهم، ويمكن أن يقال: إن لأكثر الناس دينين: ديناً معلَناً وديناً حقيقيّاً، ودينُ المرء الحقيقي هو الذي يكرِّس حياته من أجله.

إن من طبيعة المبدأ أنه يمد من يتمحور حوله بقوى وإمكانات خارقة وخارجة عن رصيده الفعلي، ولذا: فإن التضحيات الجليلة لا تصدر إلا عن أصحاب المبادئ والالتزام، وهم أنفع الناس للناس؛ لأنهم يثرون الحياة دون أن يسحبوا من رصيدها الحيوي، حيث إنهم ينتظرون المكافأة في الآخرة.

التمحور حول المبدأ هو الذي يمنح الحياة معنى، ويجعلها تختلف عن حياة السوائم الذليلة التي تحيا من أجل التكاثر ومجرد البقاء!

المبدأ هو الذي يُضفي على تصرفاتنا الانسجام والمنطقية، ويجعلها واضحة مفهومة. نحن لا ننكر أن الظروف الصعبة تُوهِن من سيطرة المبدأ على السلوك، لكن تلك الظروف هي التي تمنحنا العلامة الفارقة بين أناس تشبَّعوا بمبادئهم؛ حتى اختلطت بدمائهم ولحومهم، وأناس لا تمثل المبادئ بالنسبة إليهم أكثر من تكميل شكلي لبشريتهم[1].

١-انظر في ميزات التمحور حول المبدأ: العادات السبع للقادة الإداريين، ص ١٢٠.

٣- لا يماري أحد في أن الإنسان اكتشف في العصر الحديث من الآيات والسُّنن ما لم يكتشف عشر معشاره في تاريخ البشرية الطويل، لكن مع هذا فعنصر المخاطرة والإمكانات المفتوحة ما زال قائماً؛ حيث يتحكم في الظاهرة الواحدة عشرات الألوف من العلاقات التي يصعب معها التنبؤ بنتائج الاجتهادات والأنشطة المختلفة، ولا سيما في القضايا الكبرى، كمصائر الأمم والحضارات، وقضايا التقدم والتخلف، وما تنطوي عليه من تفاعلات وتغيرات، وإن الله ﷻ قد ضمن لنا نتائج الاستقامة في الدنيا والآخرة، فهي بوجه من الوجوه وعلى نحو من الأنحاء لا تكون إلا خيراً، وإلا في صالح الإنسان، وقد قال الله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾﴾ الأعراف: ١٢٨،

وقال: ﴿لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴿١٣٢﴾﴾ طه: ١٣٢، وقال: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾﴾ الأعراف: ٩٦.

أما من يسلك دروب المعاصي والفجور، ويتبع مغريات الأهواء والشهوات، فإنه يظل يتوجس خيفة من سوء العاقبة، لكنه لا يعرف شكل العقوبة، ولا طريقة نزولها ولا توقيتها؛ وبهذا يصبح الشك والغموض والخوف عاجلَ جزائه، ومقدمةً للبلاء الذي ينتظره، ثم تكون الخيبة الكبرى والخسارة العظمى!

إن هناك فترة سماحات تطول، أو تقصر بين الانحراف وعواقبه، وهذا هو الذي جعل الابتلاء تامّاً، كما أنه هو الذي جرّأ أهل المعاصي على التماري في غيهم، لكن العاقل الحصيف ينظر دائماً إلى الأمام، ويتحسس ما هو آتٍ، ويضغط على واقعه من أجل السلامة في مستقبله.

٤- علينا أن نجمع بين النصوص التي تدل على ضرورة الاستقامة والالتزام بالمنهج الرباني، والنصوص التي تفيد رفع الحرج والعنت عن هذه الأمة، من مثل قوله ﷻ: ﴿هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖ﴾ الحج: ٧٨، وقوله: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَا﴾ البقرة: ٢٨٦، وقوله: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلۡيُسۡرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلۡعُسۡرَ﴾ البقرة: ١٨٥، وإذا فعلنا ذلك، فإننا سنفهم من مجموعها أمرين:

الأول: هو ضرورة تزويد المسلمين بثقافة شرعية تتضح فيها حدود الواجبات والمباحات والمحظورات، بما يشكِّل خارطة فكرية واضحة لما ينبغي أن يكون عليه سلوك المسلم وعلاقاته.

الثاني: توفير الظروف والشروط الموضوعية التي تجعل التزام المسلم بدينه ميسوراً، وبعيداً عن الحرج والمشقة التي لا تُحتمل؛ إذ إنه لا يكفي أن تكون التعاليم الإسلامية ضمن الطوق، بل لا بد إلى جانب ذلك من أن تكون الظروف المعيشية العامة التي يحيا فيها المسلم مناسبة ومشجِّعة على الالتزام. إنه كلما تعقدت الظروف المطلوبة للعيش الكريم قلّ عدد أولئك الذين يتصرفون ضمن مبادئهم ويلتزمون حدود الشرع، فحين يكون المرتَّب الشهري للموظف غير كافٍ لسداد أجرة البيت الذي يسكنه، فإن شريحة كبيرة من الموظفين سوف تلجأ إلى طرق غير مشروعة في تأمين احتياجاتها اليومية، وآنذاك سيشعرون أن الالتزام التام لا يخلو من العنت، وحينئذ سيكون عدد الملتزمين بالطرق الشرعية في الكسب محدوداً.

إن الحضارة الحديثة أضعفت الإرادة بما أوجدته من صنوف اللهو والمتع، وجعلت الشروط المطلوبة للحد الأدنى من العيش الكريم فوق طاقة كثير من الناس، كما أنها أوجدت من الطموح إلى الكماليات وأشكال المرفِّهات ما يتجاوز بكثير الإمكانات

المتاحة، وهذا كله جعل الاستقامة على الشرع الحنيف بحاجة إلى نمط راقٍ من الرجال، كما جعل من الواجب على الأمة أن تفكر مليّاً في توفير ظروف تساعد على الاستقامة، وتحفز عليها.

إن المنهجية الإسلامية تقوم دائماً على ما يمكن أن نسِّميه بـ (الحلول المركبة)؛ إذ إن هناك من النصوص والأحكام ما يرفع الوتيرة الروحية للمسلم، كما أن هناك ما يزيد في بصيرته، وهناك ما يدعوه إلى الصبر والجلد، وهناك ما يحفزه على تحسين ظروف عيشه وأدائه، ولا بد أن نمنح الفاعلية لكلٍّ ذلك حتى يمكن تجسيد المنهج الرباني في حياة الناس، إن الفكر مهما كان قويّاً، وإن الوعي النقدي مهما كان عظيماً، فإن سلوك الناس لن يتغير كثيراً ما لم تنشأ ظروف وأوضاع جديدة تحملهم حملاً على التحول إلى سلوك الطريق الأقوم والأرشد.

ويؤسفني القول: إننا لم نستطع إلى الآن أن نبلور نظرية إصلاحية إسلامية معاصرة ومتعمقة في تلمس شروط الاستجابة لأمر الله والظروف الصحيحة والمثلى لها، إلى جانب تلمس مجمل الحساسيات والترابطات والتداعيات التي تشكل المناخ المطلوب لقيام حياة إسلامية راشدة!.

إن جل اهتمامنا ينصب على بيان ما يجب عمله، أما البرامج والكيفيات والإجراءات والأطر والسياسات التي يجب اتباعها وتأسيسها من أجل تحويل المبدأ إلى واقع معيش.. فإنها لا تلقى ما تستحقه من اهتمام ومتابعة، والخبرات لدينا في ذلك ما زالت ضئيلة، بل إن هناك مَن يستوحش من الخوض في غمار مثل هذا النوع من البحث، ويَعدُّ التعمق في ذلك ضرباً من (الاستغراب) أو الجنوح نحو المادية!، ومن الدعاة من يدعي أنه عارف بكل ذلك، لكن لو نظرت في إنتاجه المعرفي لم تقف

له في هذه السبيل على كتاب أو رسالة، بل على خاطرة أو فكرة.

(وما أطيب العرسَ لولا النفقة)!

ولله الأمر من قبل ومن بعد.

﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾﴾

في هذه الآية الكريمة إخبار عن قاعدة من قواعد الخلق، وناموس من نواميس الوجود؛ وهي في الوقت نفسه: دليل على أن القرآن من عند اللطيف الخبير الذي أحاط بكل شيء علماً.

إن المعرفة والتقدم العلمي الذي كان متوفراً في زمان النبي ﷺ لايمكِّن على أي نحو من الكشف عن قاعدة (الزوجية) في الوجود، بل إن ما كان في حوزة الناس آنذاك من استقراء واطلاع لم يكن كافياً للكشف عن ظاهرة (الزوجية) في (الأحياء) فضلاً عن ميادين الوجود المختلفة، وإن الكشوفات الكونية المتسارعة؛ تُميط اللثام في كل يوم عن أشكال من التزاوج والاقتران والارتباط في ميادين الحياة كافة، وعلى مستويات مختلفة، ابتداءً بالذرة، وانتهاءً بالمجرة؛ مما يُضيف شواهد جديدة على صدق محمد ﷺ.

ولنا مع هذه الآية وقفات عدة، نوضحها في الحروف الصغيرة الآتية:

١- إن فَطْر الله عزَّ وجلّ للكون على المزاوجة دليل إضافي على المغايرة بين المخلوق

والخالق المتفرد في ذاته وصفاته وأفعاله؛ حيث إن ما يترسخ في الخبرة البشرية على الدوام من أن الخلق واحد، ويخضع لقوانين واحدة، وتحكم حركتَه ونموه وانهياره قواعدُ واحدة.. إن كل ذلك يدل على وحدانية الخالق (جل ثناؤه) الذي أوجد كل ذلك التنظيم الدقيق المعجز.

وفي ختم الآية بقوله ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾﴾ إشارة واضحة إلى هذا المعنى، حيث يدرك الناس تفرد الخالق وأَحَديته من خلال ما يشاهدون من ظواهر تزاوج الأشياء وتركيبها، وارتباطاتها، وتوازناتها على نحو يستحيل معه العبث، والارتجال والمصادفة. وكأن في الآية بعد هذا وذاك إيحاءً إلى أهمية استثمار المعرفة بسنن الله في الخلق في غرس الإيمان وتقويته، والارتقاء في إدراك واجبات العبودية وآدابها.

٢- إن ظاهرة الزوجية ليست دليلاً على وحدانية الخالق ﷻ فحسب، وإنما هي دليل على نقص المخلوقات وافتقارها لغيرها، حيث لا تتحدد معاني الأشياء وقيمها الحقيقية من خلال ذواتها، وإنما من خلال كونها أجزاءً في تركيبات أعم، وفي هذا الصدد يمكن القول: إنه عند تدقيق النظر لا يخلو شيء عن تركيب! لولا معرفة الناس بالقبح لما كان للجمال أي معنى أو قيمة إضافية؛ ولذا قالوا: إن للشوهاء فضلاً على الحسناء؛ إذ لولاها لما عُرف فضل الحسناء. ما فضل التنظيم لولا الفوضى، والذكاء لولا الغباء، والغنى لولا الفقر، والفضيلة لولا الرذيلة، والنهار لولا الليل، والحلو لولا المر... أشياء لا حصر لها، لا تستمد قوامها من ذاتها، وإنما من خلال غيرها! وهكذا فالخلق، وما يَتَغَنّوْنَ به من خصائص فقراء فقراً مزدوجاً، فقراً إلى الخالق الموجد، وفقراً إلى مخلوق آخر، يجعل له معنى!

ومن وجه آخر: فإن طبيعة العلاقة الزوجية تميل إلى المرونة، وذات أوساط

متدرجة؛ فالغنى درجات، وكذلك الفقر، وقل نحو ذلك في الذكاء والغباء، والجمال والقبح، والاستقامة والانحراف... حيث تلامس أدنى درجات الأول أعلى درجات الثاني؛ مما يشكِّل مناطق برزخية متأرجحة، هذه الوظيفة للعلاقات الزوجية تكسر من حدة تفرد كل طرف، وتجعل الخصائص الفائقة نسبية، فتتطامن، وجوانب النقص اعتبارية، فتشمخ، وكأنها بذلك تتهيأ للتعاون والاندماج عوضاً عن التنافس والصدام، وكأن ذلك يوحي إلينا بأهمية إيجاد الأرضيات المشتركة، والعدول عن النفخ في الخصوصيات الاجتهادية الذي يحولها إلى حواجز منيعة وقواطع حقيقية بين أبناء التيار الواحد، والأمة الواحدة!، وهكذا فإذا كنا عاجزين عن أن نستشف من النصوص ما يساعدنا على صياغة علاقات ومواقف جيدة ومنتجة.. فإن علينا أن نتعلم من إيحاءات السنن الكونية ما نُصلح به حياتنا الاجتماعية، وعلاقاتنا الأخوية؛ حيث إننا في نهاية الأمر جزء من الظاهرة الكونية الكبرى.

٣- الإخصاب أوضح نتائج التزاوج بين الأشياء، وهو أوضح ما يكون في التقاء الأزواج من الإنسان والحيوان؛ فمن خلال لقاء الزوجين يتم حفظ النوع وإغناؤه بنسل على درجة كبيرة من التنوع والتعدد، ولا يقلّ الإخصاب في الأشياء المعنوية والمادية عنه في الكائنات الحية؛ فمن عناصر الأرض التي لا تزيد على المئة إلا قليلاً يوجد بين أيدي الناس اليوم ما يزيد على مليونين من المصنوعات!، وعلى الرغم من صرامة القوانين والخصائص الكيميائية يوجد في الأسواق ما يزيد على ثمانين ألف نوع من المركبات الكيميائية، كما أنه يُطرَح منها في الأسواق كلّ عام أكثرُ من ألفي نوع جديد!.

هذه الخصوبة الهائلة هي نتيجة مباشرة لألوان التزاوج التي تتم بين العناصر

المختلفة، ومما لا ينبغي أن يعزب عن البال أن اللقاء السعيد بين العناصر المختلفة يجب أن يتسم بالمزيد من العناية والدقة والتجربة، إذا ما أردنا إنجاباً وخصوبة على مستوى عالٍ من الجودة؛ ولهذا السبب أخذ التقدم في علوم الكيمياء يعتمد على الرياضيات أكثر فأكثر، وقد كان من قبل يعتمد على التجربة، حيث تمنح الرياضيات مستويات من الدقة، لا توفرها التجربة، وقد أصبح من مقاييس التقدم العلمي الشائعة: قدرة دولة من الدول على إنتاج (المواد الجديدة) ذات المواصفات الفائقة، والمواد الجديدة لا تتخلق إلا من خلال التزاوج بين عناصر لم يسبق لقاؤها على النحو الجديد، وبالنسب الجديدة.

اللقاء بين الأفكار والثقافات لا يَقِلُّ خصوبة عن اللقاء بين العناصر الطبيعية، وهو يحتاج حاجة ماسّة إلى وعي وفطنة وحذق، حتى يكون منجباً، والقاعدة في هذا: أنه إذا التقت فكرتان ضمن شروط إيجابية، فإنه ينتج عن ذلك اللقاء فكرة ثالثة، هي أرقى منهما جميعاً؛ حيث تؤدي المزاوجة بينهما إلى نضج وتبلور كل منهما، وحيث يتخلص كل منهما من أجزائه المعطوبة من خلال المقارنة ونمو الوعي النقدي، لكن ذلك لا يتم إلا إذا اتّسم حاملو الفكرتين بالكثير من الموضوعية والشفافية والهدوء والمرونة الذهنية والرؤية المركبة... ونحن نلاحظ في هذا السياق أن أكثر من يذهب من إخواننا للدراسة في الغرب ينقسمون إلى فريقين:

فريق يُفتَتَن بما يراه هناك من تنظيم وتقدم صناعي ورعاية لحقوق الإنسان، فيشغله ذلك عن إدراك بذور الانهيار في تلك المجتمعات، وجوانب التخلف فيها، ويؤدي ذلك به إلى الزهادة فيما لديه، والاستحياء من طرحه على مسامع القوم.

أما الفريق الثاني: فإنه بِداعٍ من الكبر أو الخوف ينغلق على نفسه، ويتتبع بجدية

نادرة كل الجوانب السلبية لديهم، لكنه يعجز عن تلمس أسرار النهوض والخيوط الدقيقة التي تمد التقدم المادي الهائل الذي أحرزوه بالحيوية والاستمرار، ويعود هذا الصنف في العادة بنُتَف من المعلومات والمقولات والخبرات التي لا تتكافأ أبداً مع الجهد والمال اللذين بُذلا خلال سنوات عدة، ولا يلامس هذا الصنف أبداً آفاق المنهجية الفكرية والتنظيمية والأخلاقية والثقافية التي تقف خلف (الحضارة الغربية)، فكأنه ما سافر ولا اطلع ولا تعلم! إن احتكاك الثقافات والأفكار والمناهج المختلفة قديكون عامل انحسار وهدم وتمزيق، وقد يكون عامل إثراء وتصحيح وتطوير، والمهم في ذلك أبداً هو شروط ذلك الاحتكاك والخلفيات، والأسس التي يقوم عليها.. إن العزلة والانغلاق لا يكونان أبداً خياراً جيداً إلا إذا كانت شروط التزاوج سيئة وغير متكافئة، وإذا ما استطعنا توفير الشروط الجيدة لذلك، فإن في تلاقح الأفكار والثقافات من عوامل التجديد والنفع والغنى ما يصعب التعبير عنه!.

٤- إن قاعدة اللقاء في ظاهرة الزوجية الكونية هي التخالف، وليست التوافق، فاللقاء الخصب المنجب يجب أن يتم بين متخالفين ومتباينين، ومن ثم فإن العلاقة بين الرجل والمرأة تقوم على التخالف، على المستويات العضوية والعقلية والنفسية، وهذا التخالف هو الشرط الأساس لوجود ظاهرة (التكامل) والتعاون، حيث يظهر لكل واحد من الزوجين أن كمال البنية المشتركة بينهما ـ وهو الأسرة ـ لا يأتي من أيٍّ منهما على انفراد، وإنما من خلال اللقاء الإيجابي بينهما، وتكميل أحدهما للآخر.

ليس إدراك التكامل في ظاهرة الزوجية في الخلق متيسرَ الإدراك واللمس في كل وقت؛ إذ كثيراً ما تغلب علينا النظرة الأحادية، فنتعامل مع الأشياء على أنها عناصر مفردة، ونغفل عن كونها عناصر في تراكيب أعم!

ولنضرب لذلك بعض الأمثلة:

أ – إن تضخم الجانب العاطفي لدى المرأة على النحو المعروف يُنظر إليه عادة على أنه الحلقة الأضعف في تركيبها النفسي، كما أننا ننظر النظرة نفسها إلى ما نحسّه من تضخم (عقلانية) الرجل وبرودة عواطفه، فإذا نظرنا إلى كل منهما على أنه طرف في تركيب واحد هو الأسرة أدركنا أن ما خلناه نقصاً هو في الحقيقة مظهر كمال، وعامل توازن وانسجام، إذ إن طبيعة وظيفة المرأة في رعاية الأطفال ذوي الشفافية والرهافة العالية.. تتطلب مشاعر وعواطف كالتي عند المرأة، وطبيعة وظيفة الرجل في قيادة الأسرة، ومعاناة طلب الرزق، وخوض المواقف الصعبة.. تتطلب من قوة الشكيمة وتماسك الشخصية كالذي نجده عند الرجل، إن دعاة تحرير المرأة لم ينظروا هذه النظرة، فدفعوها إلى المطالبة بالمساواة مع الرجل، وأدى ذلك إلى الإخلال بالتوازن الأسري، وكثرت حوادث الطلاق، وكُلِّفت المرأة بالقيام بأعمال لا يتحملها تكوينها ولا جملتها العصبيّة، والأخطر من ذلك انتشار مظاهر الشذوذ واستغناء النساء بالنساء!

ب– إننا كثيراً ما نصوِّر (القلق) على أنه مرض نفسي – وهو كذلك عندما يتجاوز حدوداً معيَّنة – لكن يختلف الأمر حين نتذكر أن الطمأنينة كثيراً ما تكون زائفة ومبنية على معطيات موهومة، وهي حينئذ تكون أخطر من القلق وأشد فتكاً بوجود الإنسان، ولذا: فإن بعض صور القلق، ولا سيما (القلق المعرفي) تكون ضرورية لتوازن الشخصية وللوعي بالمصير وتدارك الأخطار قبل فوات الأوان.

ج– إذا نظرنا نظرة أحادية إلى ثبات المبادئ والتشبث الشديد بها، فسوف نراه جموداً وعائقاً في سبيل التطور، وربما دفع ذلك ببعض الناس إلى التفريط بها أو إلى

الثورة عليها، وإذا نظرنا إلى (التطور) على أنه مجموعة من التغيرات المستقلة، فسوف نراه (تفلتاً) وطيشاً وخيانة للأصالة... ولكن حين نسلك كلاً من الثبات والتطور في ظاهرة (الزوجية) الكونية، فسوف يتبين لنا أن ثبات الأصول والمبادئ والنواميس ليس جموداً ولا عائقاً للتغير المطلوب، وإنما هو سمة أساسية لطبيعتها؛ إذ لا يستطيع المبدأ أداء وظيفته إلا من خلال ثبوته واستمراره، كما أننا سنجد أن جمود المبادئ شرط أساس لجعل التطور ذا معنى، ولإبقائه تحت السيطرة، وفي الاتجاه الصحيح.

والتطور في الأدوات والأساليب والخطط والأشكال ليس تفلتاً، بل إنه ضروري للمحافظة على المبدأ والجوهر والهدف؛ إذ إن تعاقب الأيام والليالي يعطب بعض جوانب المناهج والخطط والأشياء، وليس هناك حلّ لذلك سوى التخلي عن الأجزاء المعطوبة، وإحلال غيرها محلها، وإن تحويل الأشياء إلى بنىً ثبوتية في سياق وسط مائج بالتغير والتطور لا يعني سوى التضحية بالأصل والفرع، والجوهر والمظهر، والمبدأ والوسيلة... وهكذا فما يُظن نقصاً في بعض الأشياء يتحول إلى ضرب من ضروب الكمال إذا ما نظرنا إليه على أنه جزء من كل، وعنصر في تركيب أشمل.

٥- خَلَق الله (جل ثناؤه) الدنيا داراً للابتلاء، فوفَّر فيها كلَّ شروط الابتلاء، ومن ثم: فإنه حيث يكون أمام المرء مجال للاختيار، يكون في الحقيقة منغمساً في حالة ابتلاء، سواء أأخذ بأحد الخيارات، أو ظل عاطلاً عن اتخاذ قرار، وكثيراً ما تتيح ظاهرة (الزوجية) مجالات للاختيار والابتلاء، وكثيراً ما يجد الإنسان نفسه مأموراً بالتوازن الدقيق في التعامل مع الظواهر الزوجية؛ لأن الإخلال به يعني خروجاً عن المنهج الرباني، وقد يعني ظلماً للنفس أو تفويت مصلحة كبرى، وحتى يكون الابتلاء تامّاً، فإن الله ﷻ قد فطر الإنسان على قابلية قوية للانجذاب نحو

أحد المتقابلات وإهمال غيره؛ مما يجعلني أذهب إلى أن الإخلال بالتوازن المطلوب في هذه المسألة، يكاد يكون أصلاً! ومن هنا فإن الموقف الصحيح كثيراً ما يتطلب نوعاً عالياً من اليقظة الفكرية والشعورية وإلا فما أسهل الانجراف إلى طرف على حساب طرف آخر! عند تقليب النظر في واقعنا التاريخي، وواقعنا المعيش، نجد أن عدم إقامة التوازن بين الأشياء المتزاوجة كان سبباً لانحرافات كثيرة، إذ كثيراً ما نرى جماعة تهتم بالفكر والتنظير ورسم الخطط والتحليل السياسي، لكنها تهمل جانب الروح والأخلاق وجانب السلوك؛ مما جعلها فقيرة في جنود التنفيذ وأرباب الهمم العالية، وجعلها بالتالي قليلة العطاء والتضحية!.. ونجد في المقابل: جماعات تركز على مسائل صفاء القلوب وحسن السلوك، لكنك لا تجد عندها أدنى وعي بأدب الوقت ومتطلبات العصر، وقد يكون عدد أتباعها عشرات الألوف، ثم إنك لا تعثر فيهم على مفكر واحد مرموق!، وكثيراً ما يقودها ذلك إلى أن تكون ألعوبة في يد القوى المتنفذة، مما يدفعها إلى حتفها وقد يصبح ضررها أعظم من نفعها!.

في الماضي البعيد قامت مزاوجة في بنية التربية والتعليم بين علوم الشريعة والعلوم الحياتية والكونية، وقد أنجب ذلك الاقترانُ حضارة إسلامية زاهية باهرة، ثم أخذت علوم الحياة تنسحب من المناهج والحِلَق الدراسية شيئاً فشيئاً، حتى جهلت الأمة أبجديات المعرفة في الطبيعة والكون والصناعة، ووصلت إلى الحضيض، واليوم ترتكب الأمة الخطأ نفسه على نحو معكوس، حيث تَرَاجع نصيب العلوم الشرعية في المناهج الدراسية في أكثر البلدان الإسلامية، كما تراجعت المفردات القيمية والأخلاقية في لغة التربية والإعلام، وكان حصاد ذلك: أعداداً كبيرة من البشر تحيط بالكثير من المعارف المختلفة، لكنها تجهل بدهيات وأساسيات في عباداتها

ومعاملاتها! وصار لدينا اليوم كمّ هائل من المفردات التي تحث على النشاط والفاعلية والنجاح والتنظيم وحيازة الثروة وتحقيق الذات.. على حين تنوسيت المفردات التي تغرس أخلاق الصلاح والاستقامة والبعد عن الحرام، والإقبال على الآخرة.. ولا بد أن الناس بدؤوا يشعرون بعواقب هذا الخلل من خلال انتشار اللصوصية ـ وهي أصناف وأشكال- والرشوة، والشره المادي، والأنانية، والانغماس في الشهوات، وقطع الأرحام، ونسيان الله والدار الآخرة.

٦- إذا كانت (الزوجية) تمثل قاعدة مهمة من قواعد خلق الوجود، فإن ذلك يعني أن ننسجم نحن مع تلك القاعدة، ونحاول أن نمتلك رؤية مركّبة للأشياء، ما دام ليس هناك شيء لا ينتمي إلى مركَّب ما على وجه من الوجوه، وامتلاك هذه الرؤية سيكون ضروريّاً للمحافظة على توازننا العقلي والنفسي، وضروريّاً لوضع الأمور في نصابها الصحيح، وعلى سبيل المثال: فإنه مهما بلغ صلاح الأفراد والجماعات، فلا ينبغي أن نفسِّر ما نراه من تصرفاتهم على أساس المبادئ وحدها، فهناك مبادئ، وهناك مصالح أيضاً، وليس في هذه الأرض من يستطيع غض الطرف عن مصالحه على نحو كامل، وفي مقابل هذا: فإن السواد الأعظم يحاولون تحقيق مصالحهم في إطار المبادئ التي يؤمنون بها، ما وجدوا أن ذلك ممكن، وبما أن المبادئ والمصالح طرفان في تركيب زوجي واحد، فإن احتمال جور الإنسان على أحدهما لحساب الآخر، يظل أمراً وارداً، بل يكون في كثير من الأحيان أمراً لا مفر منه، ولست أقصد من وراء هذا شيئاً سوى الاستبصار في فهم سلوك الناس، وفهم خلفياته، ومحاولة تفسيره على أنه يتم وفق موازنات، وفي سياق ضرورات وطموحات، وتحت ضغوط وأحياناً تهديدات، وهذا مهم في الاقتداء والإعذار وأمور أخرى..

الرؤية المركبة تجعلنا نبصر القصور الذاتي إلى جانب التآمر الخارجي، وإعطاء كلٍّ منهما وزنه وتأثيره الحقيقي، كما أنها تجعلنا نشعر بنعمة الرخاء وفيوض النعم إلى جانب الإحساس بالحساب والسؤال عنها يوم القيامة. بالرؤية المركبة ندرك الصبر وعواقبه، والظلم ومآلاته، وبذلك يتم لنا توسيع مجال الرؤية؛ لنقف على طرفي الموازنة وعنصري المزاوجة، وبذلك نجسِّر العلاقة بين الأطراف المتنافسة والمتحالفة، ونحاول أن نرى الأرضية المشتركة التي تجمع بينها.

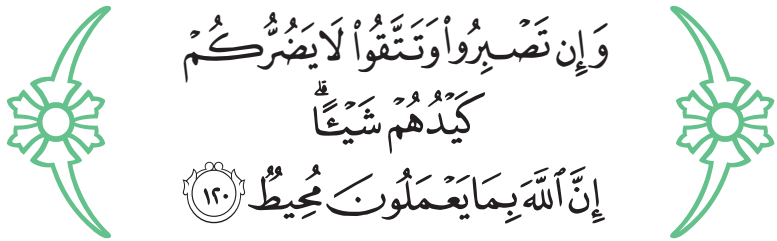

﴿وَإِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمۡ كَيۡدُهُمۡ شَيۡـًٔاۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطٞ ١٢٠﴾

تشعر أمة الإسلام اليوم بغربة حقيقية بين الأمم المعاصرة، وتجد نفسها فريدة ومتميزة على مستوى المبادئ والمفاهيم والأهداف؛ وهذا التميز والتأبي على السير في ركاب القوى العظمى جرَّ عليها ضغوطاً أدبية ومادية، هي أكبر بكثير مما نظن.

إن أدبياتنا تعلِّمنا أن الأسلوب الصحيح في مواجهة ضغوط الخارج، وتحدياته لايكمن في التشاغل بالرد عليها؛ مما قد يجرنا إلى معارك خاسرة، وإنما يتمثل في الانكفاء على الداخل بالإصلاح والتنقية والتدعيم... ولا ريب أن ذلك شاقٌ على النفس؛ لأن المرء آنذاك ينقد نفسه، ويجعل من ذاته الحجر والنحّات في آن واحد!

والآية الكريمة التي نحن بصددها مَعْلم بارز في التأصيل لهذا الانكفاء، ولعلنا نقتبس من الدوران في فلكها الأنوار التالية:

١- إن كثيراً من النصوص يوجِّهنا نحو الانكفاء على الداخل في مواجهة الخارج بالنقد والإصلاح والتقويم والتحسين، وإن المتتبع للمنهج القرآني في قَصِّه أحوال الأمم السابقة يجد أن ما ذكره القرآن الكريم من أسباب انقراضها واندثار حضاراتها لا يعود

أبداً إلى قصور عمراني، أو سوء في إدارة الموارد واستغلالها؛ وإنما يعود إلى قصور داخلي، يتمثل في الإعراض عن منهج الله ﷻ واستدبار رسالات الأنبياء (عليهم الصلاة والسلام)، وهذه الحقيقة بارزة في جميع أخبار الأمم السابقة؛ وذلك حتى يتأصل في حسِّ القارئ للكتاب العزيز إعطاء الأولوية لصواب المنهج قبل أي شيء آخر، وحين حلّت الهزيمة بالمسلمين في أحد، وقال بعض الصحابة (رضوان الله عليهم): كيف نُهزَم ونحن جند الله؟! جاء الجواب: ﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ﴾ آل عمران: ١٦٥ فالهزيمة وقعت بسبب خلل داخلي، وليس بسبب شراسة الأعداء، وكثرة عددهم وعتادهم؛ إذ لا ينبغي تضخيم العدو إلى الحد الذي يجعل تصور هزيمته شيئاً بعيداً؛ فالعدو بَشَر له أحاسيسه، وله موازناته ومشكلاته، وبالتالي إمكاناته أيضاً، وفي هذا يقول سبحانه: ﴿إِن تَكُونُوا۟ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ۖ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٠٤﴾﴾ النساء: ١٠٤.

٢- ترمي الآية الكريمة إلى تدعيم (الذاتي) في مقابل (الموضوعي)؛ إذ تعلِّم المسلم أنه إذا ساءت الظروف فإن عليه أن يُحسِّن من ذاته؛ لأن من المعروف أنه حين تسوء الظروف، فإن الغالب أن يسوء الإنسان نفسه، ولذلك فإنه يحدث في حالات الفقر الشديد نوع من التحلل الخلقي من نحو: السرقة والرشوة وسؤال الناس والذل والتحايل والغش والبخل وقطيعة الرحم... والمطلوب من المسلم آنذاك: أن يقف (وقفة رجل) فيضغط على نفسه، ويضبط سلوكه ويُلغي أويؤجل بعض رغائبه، ويقتصد في نفقاته، حتى تمر العاصفة، وينتهي الظرف الاستثنائي، ومن النصوص الواضحة في تدعيم الشخصية عند صعوبة الظروف قوله ﷺ: ((يا معشر الشباب: من استطاع منكم الباءة، فليتزوج؛ فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج، ومن

لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء))[1].

لم نكن على مدار التاريخ نمتلك الوعي الكافي بهذه الحقيقة، فبدل أن نلجأ إلى التربية والتوجيه والتعاضد والتراحم، واكتساب عادات جديدة، واقتلاع المشكلات من جذورها.. كنا نواجه التفسخ الاجتماعي والانحراف السلوكي بأمرين: القوة، ومزيد من القوانين، حيث كانا أقرب الأشياء إلينا تناولاً، وأقلها تكلفة حسب ما يبدو؛ وقد عبّر عمر بن عبد العزيز (رحمه الله) عن هذه الحقيقة حيث قال: (يحدث للناس من الأقضية على مقدار ما يُحدثون من الفجور)، ونحن نقول: إن شيئاً من التوسع في الأنظمة والتشريعات الرادعة يحدث عند جميع الأمم، حين يقع تهديد خطير لأمن الناس وحقوقهم، لكن الجزاءات والعقوبات هي أشبه شيء بالتداخل الجراحي في العلاج الطبي، فهو آخر الحلول، وعند اللجوء إليه ينبغي أن يتم في أضيق الحدود.

إن العقوبات الرادعة إنما وُجِدتْ لمن فاتتهم التنشئة الاجتماعية القويمة؛ والعقوبات لا تنشئ مجتمعاً لكنها تحميه. وهذه رؤية إسلامية جلية، فآيات الأحكام ـ والعقوبات جزء منها ـ لا تشكل أكثر من عُشْر آيات القرآن الكريم، أما الباقي فكان يستهدف البناء الإيجابي للإنسان من الداخل. إن التجربة علَّمتنا أن كثرة القوانين وتعقيدها تصب دائماً في مصلحة الأقوياء، وتزيد في قيود الضعفاء!، وإن البطش لا يحل المشكلات، لكن يؤجلها، فيكون حال المجتمع كمن يأكل عن طريق الدَّين، فهو ينتقل من سيِّئ إلى أسوأ!

إن الدولة الفاضلة هي التي تدير مجتمعها بأقل قدر ممكن من العنف واستخدام

١-أخرجه البخاري في كتاب النكاح.

القوة؛ لأنها ترتكِّز أساساً على استخدام الأساليب والأدوات السلمية في الضبط والإدارة. إن الآية الكريمة تعلِّمنا مرة أخرى: أن النصر الخاص يسبق النصر العام، وأن الأمة المنتصرة على أعدائها هي أمة حققت نصراً داخليّاً أولاً، وحقَّق كثير من أفرادها نصراً خاصّاً على صعيده الشخصي قبل كل ذلك.

٣- لا ينبغي لنا أن نفهم نصّاً من النصوص بمعزل عن المنظومة التي ينتمي إليها، ويعالج معها مشكلة واحدة؛ والنص الكريم هنا يوجهنا إلى أمرين: الصبر، والتقوى. ويعني الصبر: احتمال المشاق والديمومة في تأدية التكاليف الربانية، مهما كانت الظروف قاسية؛ لأن ذلك نصف النصر، إذ إن نصف الفوز يأتي من جهودنا، وقبله من توفيق الله (تعالى) لنا، والنصف الثاني يأتي من أخطاء أعدائنا. إن الصبر لا يعني الاستسلام للأحوال السيئة ـ كما هو مفهوم العوام ـ لكنه يعني عدم اللجوء إلى الحلول السريعة، وقد جرت العادة أن الناس حين يرون إنساناً متفوقاً يطلبون منه حلولاً سريعة لمشكلاتهم المتخمرة والمتأسنة؛ والحلول السريعة تفضي في كثير من الأحيان إلى اليأس والإحباط، أو إلى الاندفاع والتهور؛ مما يعقِّد المشكلة أكثر مما يحلها!، إن من المهم أن ندرك أن ثمة أوضاعاً كثيرة لا نستطيع أن نفعل حيالها الآن شيئاً، لكن إذا قلنا: ماذا نستطيع أن نفعل تجاهها خلال عشرين عاماً، فسوف نرى أننا نستطيع أن نفعل أشياء كثيرة جدّاً، فكأن الصبر استخدام للوقت في الخلاص من أوضاع لا نستطيع الآن أن ننجح في الخلاص منها.

حقيقةُ ضرورة اقتران الصبر بالعمل والحركة للخلاص من الأوضاع الصعبة حقيقة قرآنية لامعة، نطق بها الكثير من الآيات القرآنية، مثل قوله (سبحانه): ﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا فُتِنُواْ ثُمَّ جَٰهَدُواْ وَصَبَرُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ

مِنۢ بَعۡدِهَا لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿١١٠﴾ النحل: ١١٠، وقوله (سبحانه): ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٣﴾ البقرة: ١٥٣، وقوله تعالى: ﴿فَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعۡ مِنۡهُمۡ ءَاثِمًا أَوۡ كَفُورٗا ﴿٢٤﴾ الإنسان: ٢٤، إن احتمال المعاناة دون حركة للخلاص من مسبِّباتها قد يكون ضرباً من اليأس والاستسلام، وقد يكون ضرباً من العجز أو قِصَر النظر أو ضيق الأفق... وهذا ما لا يرضاه الله ﷻ لعباده المؤمنين.

أما التقوى فتعني هنا بصورة أساسية: نوعاً من الحصانة الداخلية من التأثر بالظروف السيئة المحيطة؛ إذ إن الهزائم العسكرية والظروف الاجتماعية والاقتصادية القاسية.. كل ذلك محدود الضرر ما لم يؤثر في المبادئ والأخلاق والنفوس والسلوك، بل إنها تصلِّب روح المقاومة، وتُكسب الخبرة، وتكشف عن الأجزاء الرخوة في البناء الداخلي، وتحطِّم هيبة العدو في النفوس، وقد مرّت أمم كثيرة بأقسى مما نمر به، لكنها استطاعت عن طريق الانتفاضة النفسية والشعورية، أن تتجاوز المحن، وتنبعث من جديد!.

٤- إن المفهوم الأساسي للصبر والتقوى هنا هو: تهذيب الذات وتحسينها وتدعيمها والرقي بها؛ وهذا التدعيم يأخذ أشكالاً كثيرة، منها: المزيد من الالتزام الصارم، ومقاومة الشهوات، والتعاون، والمفاتحة و المراجعة، والتضحية والمواساة بعضنا لعض، والحفاظ على رأس المال الوطني، والاقتصاد في الاستهلاك.. إنه يعني اكتساب عادات جديدة، من نحو تكثيف القراءة الجيدة، والنظر دائماً إلى المستقبل بعقل مفتوح، وتحسين العلاقات مع الآخرين، والإكثار من المعروف والنوافل، إلى جانب التخلص من أكبر قدر ممكن من العادات السيئة، مثل عدم الدقة وخلف الوعد وتأجيل أعمال اليوم إلى أوقات أخرى...

٥- يركِّز الخطاب الإسلامي بصورة عامة على تدعيم الذات في كل الأحوال،

وقلما يتطرق إلى علاج الظروف العامة التي يعيش فيها المسلم، ومن ثم: فإننا نجده يؤكِّد على الصلاح واستقامة السلوك والانتهاء عن المناهي...

أما تناول الشروط الموضوعية الضرورية لاستجابة المسلم للدعوة فإنه ضعيف، وعلى بعض الأصعدة معدوم، وهو على كل حال فقير، وتنقصه الخبرة الجيدة.

إن بين الإنسان والظروف والأوضاع الحياتية العامة التي يعيشها علاقة جدلية فهو يؤثر فيها، ويتأثر بها، ولا بد للدعاة من أن يدركوا أن الفرد المسلم لا يستطيع أن يبتعد مسافات كبيرة عن الوضعية العامة للمجتمع، وذلك التباعد مرهق ومكلف؛ فحين يكون كسب القوت الضروري لا يتأتى للسواد الأعظم من الناس إلا عن طرقٍ محرمة أو ملتوية مثلاً فإن الذين سوف يستجيبون لنداء (اللقمة الحلال) سيكونون قلة، وسوف تظل مبادئهم في حالة اختبار دائم، وربما أدخلهم ذلك في مشكلات مع أقرب الناس إليهم. ولهذا: فكما أن محاولات تحسين المستوى الشخصي للمسلم تظل ضروريَّة وحيويَّة، فإن تحسين المناخ العام ينبغي أن يظل موضع عناية واهتمام؛ إذ ليس المطلوب تحقيق شروط الدعوة الجيدة فحسب، وإنما تحقيق شروط الاستجابة الناجحة أيضاً.

ولله الأمر من قبل ومن بعد.

في
إشراقة آية

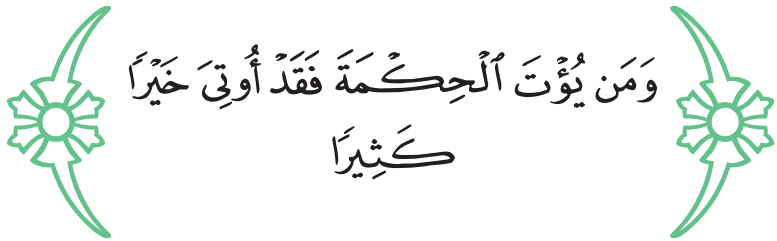

يقول الله (جلَّ وعلا): ﴿يُؤۡتِي ٱلۡحِكۡمَةَ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُؤۡتَ ٱلۡحِكۡمَةَ فَقَدۡ أُوتِيَ خَيۡرٗا كَثِيرٗاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٢٦٩﴾البقرة: ٢٦٩.

وردت كلمة (حكمة) في مواضع عديدة من الكتاب العزيز، وذهب المفسرون إلى تحديد معناها في كل موضع بحسب السياق الذي وردت فيه، فتارة تُفسَّر بالسُّنَّة، وتارة بالموعظة، وتارة بالقرآن...

أما في هذا الموضع الذي نحن بصدده، فإن للعلماء في تفسيرها أقوالاً كثيرة، منها: النبوة، والفقه في القرآن، والمعرفة بدين الله، والفقه فيه، والاتباع له، والخشية، والورع[1]...

وروى ابن وهب عن مالك أنه قال في (الحكمة): إنها المعرفة بالدين، والفقه في التأويل، والفهم الذي هو سجية، ونور من الله؛ تعالى[2].

١-الجامع لأحكام القرآن: ج٣، ص٣٣٠.
٢- السابق: ج٢، ص١٣١.

ولعل هذا القول هو أقرب الأقوال السابقة إلى الصواب. والذي يبدو لي: أن الحكمة تتجاوز المعلومات الجزئية إلى المفاهيم الكلية مع نوع من التطابق بين معارف الحكيم مواقفه العملية له؛ ومن ثم قيل: إن الحكمة تعني: وضع الشيء في موضعه؛ وإن كنا نرى أن ذلك أحد تجليات الحكمة، وليس جزءاً منها، لكنهم لمحوا أن المواقف الصحيحة الملائمة هي التي تكشف عن حكمة الحكماء، ولعلنا نحاول الحوم حول حمى الحكمة، وحول بعض تجلياتها وتجسيداتها في المفردات التالية:

١- إن تاريخ الإنسان هو مكافحة (العماء) والغموض في داخل نفسه وفي خارجها؛ فهو يحاول أبداً صياغة المفهومات والرؤى التي تمكّنه من فهم مركزه في هذا الكون، ومعرفة المحيط الذي يعيش فيه بغية فهم الموقف الصحيح والخطوة المناسبة. ومهما بذل الإنسان من جهود في سبيل الوصول إلى ذلك، فإن نجاحه يظل نسبيّاً، كما أن تقدير الناس لذلك النجاح سوف يظل متفاوتاً؛ حيث إن مبادئ الإنسان ومعارفه تتحكم دائماً في بلورة رؤيته للأشياء؛ ومن ثم فإن موقفاً ما قد يكون في نظر واحد منا حكيماً، على حين ينظر إليه آخرون على أنه طائش وخائب؛ إلا أن الأيام بما تجلِّيه من عواقب ونتائج، وبما تركمه من نماذج تساعدنا على نوع من توحيد الرؤية والفهم.

٢- إذا كنا نختلف حول تعريف الحكمة، فإنه سيظل بالإمكان تحليلها إلى العناصر المكوِّنة لها، وهي على ما يبدو لي ثلاثة: الذكاء، والمعرفة، والإرادة؛ فالذكاء اللمَّاح، والمعرفة الواسعة، والإرادة الصُلبة تكوّن معاً: (الحكمة)، وعلى مقدار كمال هذه العناصر يكون كمالها.

الذكاء بمفرده لا يجعل الإنسان حكيماً؛ إذ من الملموس أن الذكاء دون قاعدة جيدة من العلم والخبرة ينتج فروضاً ومعرفة (شكلية)، كما أن المعرفة دون ذكاء تجعل

استفادة صاحبها منها محدودة، وتجعل وظيفته مجرد الحفظ والنقل، دون التمكن من غربلة المعرفة أو الإضافة إليها. والأهم من هذا وذاك: أن المعرفة دون ذكاء تؤخر ولادة الموقف الحكيم، وتجعل الواحد منا يأتي بعد الحدث بسبب ضعف البداهة، ولا يكفي الذكاء اللمّاح، ولا الخبرة الواسعة في جعل الإنسان حكيماً ما لم يمتلك قوة الإرادة؛ لأن الإرادة القوية وحدها هي التي تجعلنا ننصاع لأمر الخبرة، وهي التي تُنتج سلوكاً يختفي فيه الفارق بين النظرية والتطبيق.

الذكاء موهبة من الله (تبارك وتعالى)، والمعرفة الواسعة كسب شخصي، والإرادة القوية هدية المجتمع الناجح لأبنائه البررة؛ فهو الذي يحدّد العتبة والسقف المطلوبين للعيش فيه بكرامة على مستوى الإرادة، وعلى مستوى القدرة، وهو لا يمنح القدرة، لكنه يمنح أفراده إرادة الفعل والكفِّ من خلال نماذجه الراقية، ومن خلال (المراتبية الاجتماعية)التي يصوغها تأسيساً على الاستجابة لأوامره.

٣- إن المعرفة مهما كانت واسعة لا تعدو أن تكون إحدى مكوِّنات (الحكمة)، ومن ثَمَّ فإن هناك فارقاً بين العالم والحكيم، فقد يكون المرء قمة في تخصص من التخصصات، لكنه لا يُعدّ حكيماً، كما أنَّ الحكيم قد لا يكون عالماً متبحراً في أي علم من العلوم.

العلم يفكك المعرفة من أجل استيعابها، فيقوم بتنظيمها وتوزيعها على مساقات كثيرة، أما الحكيم: فإنه يقوم بتركيب المعرفة النظرية مع الخبرة العملية من أجل بناء وتشكيل المفهومات العامة في سبيل الوصول إلى رؤية شاملة تندغم فيها معطيات الماضي والحاضر من أجل المستقبل.

العلم يمكِّننا من صنع الدواء، وصنع السلاح، لكنَّ الحكمة تجعلنا نعرف متى

نداوي، ومتى نحارب، العلماء كثر، والحكماء نادرون؛ لأن تحليل المعرفة أسهل من تركيبها، والعمل الدعوي اليوم ليس فقيراً في الاختصاصيين، لكنه محتاج حاجة ماسّة إلى الحكماء العظام الذين يمزجون بين العلوم والثقافات المختلفة، ويخلصون منها إلى محكَّات نهائية في الإصلاح والنهضة ومداواة العلل المستعصية...

إن الحكمة أُم الوسائل والأساليب، لكنها أكبر من أن تُحْصَر في أي منهج من المناهج، إنها معرفة تتأبى على التنظيم، فهي دائماً مرفرفة، على حين أن العلم معرفة منظَّمة، وكل العلوم يبدأ تفتحها على أنها حكمة، وتنتهي إلى أن تكون فنّاً، أي: إنها تفقد طاقتها على التجدد بعد أن يتم سجنها في قوالب جاهزة، وتصبح بحاجة ماسّة إلى أن ترفرف من جديد، وذلك من خلال تطعيمها بالحكمة، ومن ثم: فإن الحكمة تتأبى على الاستنفاد، ولذا: فإنها الخير الكثير الفياض المتجدد الذي يهيئه الله - تعالى- لمن شاء من عباده.

٤- جفل الوعي الإسلامي قديماً من (الفلسفة)؛ لأن أكثر فلاسفة المسلمين أخرجوا الفلسفة من إطار الوحي وإطار النصوص والمعطيات الشرعية العامة، فصارت المفاهيم الفلسفية غريبة عن البنية الثقافية الإسلامية، بل مصادِمة لها، وفي العصر الحديث: لم تنشأ لدينا مدارس فلسفية، وإنما أتباع لفلاسفة الغرب، ومروِّجون لفلسفة مادية أجنبية محورها الأساس: هدم عقيدة الألوهية وتدعيم الإلحاد... فاستمر الجفاء بين الاختصاصيين (العلماء) وبين ذوي النظر الكلي والرؤية العامة.

إن الناظر في الآيات الكريمة التي وردت فيها كلمة (الحكمة): يجد أنها ما اقترنت بذكر (الكتاب) إلا كانت تالية له، وكأن في ذلك إشارة إلى أن الحكمة بما هي مفاهيم ونظر كلي لا يصح أبداً أن تتشكل خارج مبادئ الكتاب ومعطياته الكبرى؛ إنه

القيّم والمهيمن عليها، وليس في ذلك حد من عطاء الحكمة وانطلاقها، ولكنه إمساك بها كي لا تفقد اتجاهها ومحورها؛ فالعقل البشري على سعة إمكاناته لا يستطيع أن يعمل بكفاءة إلا داخل إطار توجيهي يمنحه شيئاً من الثوابت وصلابة اليقين، وقد آن الأوان لتنشيط حركة علمية لا تغرق في التخصصات، لكنها تستفيد منها جميعاً في تنسيق الواقع في ضوء المثال، وفي إدراك العلاقات الخطية والجدلية التي تربط بين الأشياء، وفي معرفة سنن الله (تعالى) في الخلق...آن الأوان لترك التقدم العلمي لأهل التخصصات يغوصون على مفردات العلوم، ويُضيفون إلى فروع المعرفة كل يوم جديداً، والسعي إلى تكوين جيل جديد من الحكماء والمصلحين ذوي النظر الكلي والثقافة، الذين يستخدمون المعارف المختلفة في بناء النماذج الحضارية الخاصة والمشروعات النهضية الشاملة، وفي اعتقادي أن الحاجة إلى (الحكماء) سوف تزداد؛ إذ إن المعرفة البشرية على وشك إكمال دورتها، وعصر ثورة المعلومات الذي بزغ فجره سوف يكون أقصر العصور الحضارية، ثم يأتي زمان الأسئلة الكبرى: أسئلة الهُويَّة، وعلل الوجود، والمصير، وطبيعة الكينونة البشرية وحدودها، وحقوقها.. أي: إن الفلسفة قد تستعيد مجدها القديم، لكن ضمن معطيات ومساقات جديدة، وبلغة شديدة التعقيد، وعلينا منذ الآن أن نحضّر أولئك، الذين يستطيعون فهم أسئلة العصر القادم، ويُحسنون الجواب عليها.

٥- الإرادة الصُلبة مكوِّن أساس من مكونات (الحكمة) كما ذكرنا، وهي (الإكسير) الذي يحيل المعرفة النظرية إلى نماذج متحققة في الواقع المحسوس، إن الحكمة نور داخلي يشكل مفهومات كثيرة متباينة، ويدمجها في نظم أشمل، فتبدو منسجمة متناسقة، لكن الحكيم لا يبدو كذلك، فهو طراز فريد، ونموذج خاص،

يصعب تقنين عطاءاته وتوجهاته ومواقفه؛ لأن طبيعة الحكمة تتأبى على التحقق الكامل، ومن ثم: فإنها تلوح في بعض المواقف والسلوكات لتدل على فضل الله (تعالى) على أصحابها وتوفيقه لهم. وتلك المواقف تفوق الحصر والعد، لكن نذكر بعضها من أجل التقريب:

أ- الحكمة نموٌّ دائم، فالمزج الفاعل بين الذكاء والخبرة والإرادة يجعل مفهومات الحكيم في نوع من الحركة الدائبة؛ مفهوم يكبر، وآخر يضمر، ونقطة تزداد تفصيلاً، وأخرى تزداد تركيزاً، أفكار جديدة لديه تفقد بريقها بسرعة، وأفكار قديمة تنبعث حية لتخط خطّاً جديداً... هذه الوضعية تجعل الحكيم في حالة من التألق الدائم، وهذا التألق قد يفسَّر لدى الكثيرين على أنه تناقض واضطراب، على حين أنه نوع من الاستجابة الناجحة للمرونة الذهنية العالية، والروافد الثقافية الثريَّة، والإرادة الحرة الصُلبة، لكن كل ذلك يأخذ سمة التغيّر، لا التبدّل.

ب- إيثار الآجل على العاجل، والدائم على الآني، وما يمليه ذلك من مواقف والتزامات: أكبر سمة من سمات (الحكيم)، والشرائع السماوية كلها توجّه الناس نحو هذه الفضيلة، لكن إغراءات المنافع والملذات العاجلة صرفت جلّ الناس عن الاستجابة ﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ ﴿٢٠﴾ وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ ﴿٢١﴾﴾ القيامة: ٢٠، ٢١، وعدم تحقق هذه الفضيلة في حياة كثير من الناس، سببه ضعف في الخبرة، أو ضعف في الإرادة، أو فيهما معاً، والحكمة تجعل الحكيم في منأى عنهما، وموقف الحكيم هنا يثير لدى الناس الدهشة؛ حيث يجدونه زاهداً معْرِضاً عما يتقاتلون عليه، وربما اتهموه بالعجز أو الكسل أو القصور، وهو في الوقت نفسه يضحك في داخله من جهادهم في غير عدوّ ومحاولات قبضهم على السراب!

ج- داخل الحكيم ساحة مَوّارة بالحركة والنشاط، فهو لا يكفّ أبداً عن عمليات المقارنة، والموازنة، والتحليل، والتركيب، والاستنتاج، والتشذيب، والإضافة، إنها أمواج وتيارات في أعماق المحيط، أما السطح فإنه هادئ تعلوه السكينة والوقار.

إن من ملامح الأذكياء سرعة البديهة، وإطلاق الأحكام، وسرعة تشكيل المواقف، لكن الحكيم طراز آخر من الناس، فهو بطيء في تكوين معتقداته، وصياغة مقولاته؛ إذ إنه يملك قدرة خاصة على ضرب كل أشكال المعرفة والخبرة في بعضها بعضاً، ليخرج في النهاية بزبدة تتميز عنها جميعاً، لكنها منها جميعاً!، ويفسِّر بعض الناس ذلك بالعي والحَصَر، لكن الأيام تُثبِت أن مقولات الحكماء هي بنات عواصف فكرية وشعورية هائلة، لكنها غير منظورة!.

د - من أهم تجليات الحكمة: إدراك حجوم القضايا على وجهها الصحيح؛ فالحكيم يرى الأشياء الكبيرةَ كبيرةً، كما يرى القضايا الصغيرةَ صغيرةً كما هي، وتقدير القضايا بصورة صحيحة من أخطر المشكلات التي ظلَّت تواجه البشر على مدار التاريخ، وهل دُمّرت الحضارات إلا من وراء مشكلات وأخطاء ظنها الناس تافهة، فإذا هي عواصف هوجاء تدمِّر كل ما تأتي عليه!.

الحكيم: رجل يرى ما قبل اللحظة الراهنة، ويستشرف ما بعدها، وهو لا يرى نسقاً أو نظاماً من التداعيات الترابطية، لكنه يرى أنساقاً ونظماً تتوازى، وتتقاطع، وتتصادم، إنه يحسّ بالعاصفة قبل هبوبها، فيحذِّر قومه وينذرهم. كلنا نرى القضايا بحجمها الحقيقي، لكن بعد فوات الأوان!، وبعد أن نكتوي بنارها، وتفوتنا فرصها الذهبية، لكن الحكيم يأتي في الوقت المناسب، كما قال سفيان الثوري: «إذا أدبرت الفتنة عرفها كل الناس، وإذا أقبلت لم يعرفها إلا العالم»!.

العالم (الحكيم) هو من وصفناه، أما أهل الاختصاص، الذين أذهبوا العمر في تفتيق المعرفة حول شيء بالغ الصغر، أو حول (لا شيء): فهؤلاء جنود التقدم العلمي، لكن حظوظهم من إشراقات الحكماء محدودة للغاية!.

هـ ترتفع درجة المرارة في داخلنا على مقدار فقدنا للحكمة؛ والنزق والبَرَم الذي نُبديه حول كل ما لا يعجبنا، سببه جهلنا بالأسباب والجذور والسنن وطبائع الأشياء ومنطق سيرورتها. أما الحكيم: فإن مرارته لا تنبع من مفاجآت الأحداث وفواجعها، وإنما من غفلة الناس واستخفافهم بالمواعظ التي أُلقيتْ عليهم، ونبهتهم إلى النهايات المحتومة التي يندفعون إليها دون أي حساب، أو تقدير لفداحة الخطب الذي سيواجهونه. إن الآلام التي نشعر بها عند ظهور بعض النتائج تكون مكافئة في العادة للمسرات التي عشناها يوم كانت (عقولنا مستريحة) ومشاعرنا غارقة في عالم الملذات والأوهام!.

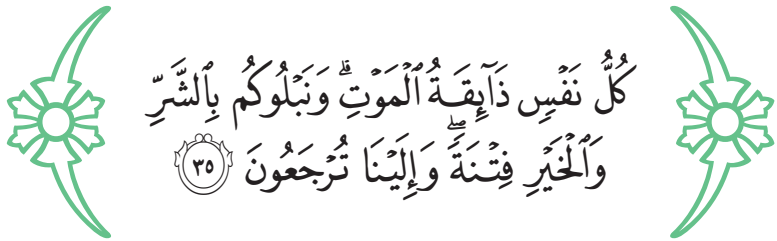

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ٣٥﴾

خلق الله عزّ وجلّ الدنيا لتكون داراً للابتلاء والاختبار، ومن ثَمَّ فإنه جعل الإنسان يتقلَّب فيها بين المنشط والمكره، والرخاء والشدة، والخير والشر؛ ليرى سبحانه كيف يصنع هؤلاء العباد، وكيف يطلبون مراضيَه في جميع الأحوال، ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ﴾ الأنبياء: الآية٣٥.

ولعلنا نقبس من نور هذه الآية المباركة عبر الوقفات التالية:

١- الناظر في النُظُم العامة التي تحكم مسيرة الحياة يجد أن جوهر (الابتلاء) يقوم على (التشتيت بين المتقابلات) حيث يؤدي عدم القيام بحق الحالة الراهنة أو ما سّماه القدماء بأدب الوقت إلى الإخفاق في الامتحان الذي يعني تحول الخير إلى شر أو ارتفاع وتيرة الشر والتدهور، ولعلنا نميط اللثام عن هذا المعنى من خلال نموذجين اثنين:

(أ) يسعى كل مجتمع إلى إيجاد أكبر قدر ممكن من التماثل بين أفراده بنيَّة المحافظة على قيمه وخصوصياته وزخمه الحركي، وهذا التماثل من الخير، ولا ريب

لأن البديل عنه هو الشقاق والاحتراب الداخلي لكن التجربة الاجتماعية أثبتت أن الحرص على التماثل التام بين أفراد المجتمع يؤدي إلى انقسامه على نفسه، حيث يتشوف أعضاؤه ـ ولاسيما الصفوة منهم ـ إلى النفاذ إلى واقع المجتمع على نحوٍ منفرد، ومنعهم من ذلك يؤدي إلى التوتر الاجتماعي، ويجعل (التماهي) الظاهر عبارة عن شكل فارغ من المضمون، فينتشر النفاق الاجتماعي والازدواجية في السلوك، ومن ثم فإن المطلوب هو قدر من التنوع الاجتماعي واحترام الخصوصيات في إطار النظم الكبرى للمجتمع وفي إطار أهدافه ومبادئه العامة.

(ب) حث الإسلام على صلة الرحم وأداء حقوق القرابة، ورتَّب في ذلك أحكاماً وآداباً عديدة، والالتزام بها ورعايتها من الخير العظيم، لكن ذلك لابد أن يتوقف عند حدود من أجل رعاية مسائل أخرى، لا تقل أهمية وحيوية من مثل احترام النظم التي تتولى توزيع وترتيب الحقوق والواجبات في المجتمع، حيث لا يصح لعامل القرابة أن يمسَّ العدالة الاجتماعية، أو يضغط عليها. الملحوظ أن ما يسمى بـ (سيادة القانون) لم تأخذ أبعادها بشكل جيد في العصور الحديثة إلا حيث اضمحلت العلاقات الأسرية والقرابية كما هو الشأن في المجتمعات الغربية، أما في المجتمعات الإسلامية حيث التواصل الأسري والعائلي أمتن وأفضل، فإن من الملحوظ أنه يتم الكثير من التجاوز والتفلت من النظم العامة في سبيل إعطاء الأقرباء ما ليس لهم من مكتسبات ظناً أن في ذلك صلة للرحم! لكن هذا يعني عدم النجاح في الابتلاء والتشتت بين المتقابلات، إن إكرام الأقرباء لا ينبغي أن يتم على حساب الآخرين ولا بخرق النظام العام، وإلا كان شراً وبلاءً، ولعلنا لا نبالغ إذا قلنا: إن من أشد ما عاناه التمدن الإسلامي في تاريخنا الطويل كان نقل العرب من مرحلة

(القبيلة) إلى مرحلة (الدولة) حيث يتم الفصل شبه الكامل بين العلاقات والحقوق الشخصية وغير الشخصية، ونجد إلى جانب هذا في سيرة النبي ﷺ وسلوك أصحابه الكرام موازنة دقيقة في هذا الشأن، فالنبي ﷺ هو الذي قال: ((يا فاطمة بنت محمد سليني من مالي ما شئت، فإني لا أغني عنك من الله شيئاً))[1] وهو الذي قال: ((.... لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعتُ يدها))[2].

٢- النجاح في الابتلاء يقتضي نوعاً من اليقظة لجميع قوانا العقلية والروحية، حتى لا نقع في أسر اللحظة الحاضرة ونستسلم لخيرها وشرها و رخائها وكربها، وهذا يعني نوعاً من الاستعلاء على الواقع، وعدم الركون إليه، والذوبان فيه، وذلك إنما يقع عند الغفلة عن (نواة) الابتلاء الكامنة فيه، على نحو ما حدث من غفلة الرماة يوم أحد عن نواة الابتلاء في أمر النبي ﷺ لهم بالبقاء في مواقعهم مهما كان اتجاه المعركة، فأدى ذلك إلى تحويل النصر الذي كان يلوح في مستهل المعركة إلى هزيمة! لكن النبي ﷺ لم يَدَعِ المسلمين يستسلمون لمرارة الهزيمة، ويغرقون في التلاوم والندم، وإنما اندفع بهم إلى ساحة ابتلاء جديد بأمره لهم بالتوجه إلى حمراء الأسد حيث تحولت مشاعر الفرّ والانكسار إلى مشاعر المبادأة والمطاردة للعدو![3].

ولعل مما يعصم من الغرق في الحالة الراهنة تعوُّد الاستبصار وتقليب النظر في الحالة الراهنة خيرها وشرِّها، ومحاولة فهم المنطقية والآلية التي أدت إلى ولادتها وتجسدها، وإذا ما تم ذلك أمكن أن نسيطر على تلك الحالة، وننصرف إلى اتجاهات

١-أخرجه البخاري.
٢-أخرجه البخاري.
٣-انظر الرحيق المختوم: ٣١٨.

سيرها وتطورها، فإذا كان الابتلاء عبارة عن خيرأصابه المؤمن ثمرةً لجهده وكفاحه وجب عليه أن يستمر في ذلك الجهد على نفس الوتيرة التي كان عليها، وإذا كان قد أصابه من غير تعب كمن ورث مالاً وفْراً وجب عليه أن يشكر الله على ذلك أولاً، وأن يقوم ثانياً ببحث الأسباب والعوامل التي تؤدي إلى المحافظة عليه، وتنميته وتزكيته، حتى لا يشعر يوماً ما أن النعمة التي هبطت عليه لم يكن يستحقها!.

وإذا كان ما أصاب المؤمن من شر ومحنة بسبب أخطائه وخطاياه، فإن النجاح في مواجهة ذلك الابتلاء لا يكون إلا بالخلاص مما اقترفت يداه، وبذلك يستحقُّ تغيير الله -تعالى- له كما قال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ الرعد: ١١، وإذا كان ما أصابه بسبب ما جناه غيره فإن عليه أن يصبر، ويحاول أن يتجاوز ما هو فيه من بلاء بتحوله من (صالح) إلى (مصلح) لأن البلاء حين يعمُّ بسبب انتشار الفساد لا يتأهل للنجاة منه إلا الذين يسعون إلى تحجيمه وتطهير المجتمع منه، كما قال سبحانه: ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾﴾ الأعراف: ١٦٥، ولابد للتوطئة لكل ذلك من سيادة روح المفاتحة والمكاشفة والنقد المنصف البنّاء حتى لا تندغم الذات في الموضوع، ونصبح كمن كان يدفع العجلة إلى أن أصبح يجري وراءها مستسلماً لقوة اندفاعها.

٣- إن مبدأ (الزوجية) ملحوظ في الكثير الكثير من المخلوقات والموجودات، وهذا المبدأ كما أنه سبب في تكاثر الكائن الحي ونمو النوع كذلك هو سبب في تحول حالات الرخاء والشدة، ففي رحم كلِّ رخاء (نواة) لمحنة، كما أن في أحشاء كل شدة نواة لرخاء ومنحة وهذا واضح في قوله ﷻ: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٥﴾ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ

يُسْرًا ﴿٦﴾ الشرح: ٥،٦. إن فهم هذه المسألة يقتضي منا أن نضع الحالة الراهنة التي نعيشها في السياق التاريخي والسببي، حتى يتبين لنا أنها ليست أكثر من حلقة في سلسلة غير متجانسة من النجود والوهاد والنجاحات والإخفاقات.

إن هذه الدنيا ليست هي الظرف المناسب لتموضع (الأحوال النهائية) في خير أو شر، وإنما هناك دائماً خلف الباب محنة تنتظر إذا ما نحن أسأنا التصرف بالإمكانات التي بين أيدينا، وفي المقابل فإن الشدائد والمحن تفجّر روح المقاومة والإصرار والعناد، تلك الروح التي كثيراً ما تظل هاجعة خامدة إلى أن تأتيها صدمة قوية توقظها من سباتها، وهكذا فالمطلوب دائماً أن نكون في الموقع الصحيح لمواجهة الابتلاء.

إن طبيعة الابتلاء تقوم على قاعدة من التوازنات العميقة والدقيقة، والإنسان المبتلى يشبه في كثير من الأحيان الذي يسير على حبل مشدود، فهو مطالب حتى لا يقع بأن يستخدم كل قواه العقلية والجسمية على نحو دقيق ومتوازن وإلا ...

٤- تمتلك أمة الإسلام بحمد الله عدداً من المنظومات المعيارية والرمزية التي تمكِّنها من اختراق الحالة التي تعايشها ومعرفة أوجه الابتلاء فيها، بل تمكِّن الصفوة الممتازة من أبنائها من معرفة نِسَب الخير والشر وحجم الإيجابيات والسلبيات في الواقع المعيش، وهذه المعرفة تنظم أيضاً ردود أفعالنا على الطوارئ والوافدات الجديدة رفضاً ومدافعة وتعديلاً وتهذيباً وقبولاً وترحيباً، وهذا يعني أن كل ابتلاء جديد لا يدخل في حياة الأمة (الحية) إلا بعد أن يمر بمصفاة قيمها ومبادئها و (عقيدتها الاجتماعية)[1] أيضاً، وكلما كان وقع الابتلاء الجديد حاداً ومكشوفاً

١- العقيدة الاجتماعية عبارة عن جماع المبادئ والمصالح ومركز التوازن بينهما.

استطاع أن يستفز ردود أفعال الأمة عليه بصورة قوية وسريعة، فظاهرة الردة الأولى كانت ابتلاء كبيراً جداً واجهته دولة الخلافة الوليدة في زمان أبي بكر رضي الله عنه بالقوة والسرعة المكافئة، لكن (الابتلاء المتدرج) الذي حصل بعد ذلك في صورة فِرَق وعقائد فاسدة وانحرافات سلوكية وفي صورة تجديد أطر الدولة وفق اتساع أمة الإسلام لم يستفز الطاقات الكامنة في الأمة، فلم تقم بواجبها تجاهه، ولعل هذا يدفعنا إلى القول: إن أخطر ما يغيِّب الإحساس بالابتلاء على مستوى الفرد والجماعة معاً ليس الكوارث الكبرى ولا الجوائح العظيمة وإنما (التغيرات البطيئة) التي تدخل من أضيق المسام، فتتكيف الأمة معها سلبياً على سبيل التدرج، وهذا ما حصل بالنسبة إلى أمة الإسلام وما حدث لدول عظمى في عصرنا الحديث، فقد بدأت بريطانيا العظمى تتراجع عن مركزها العالمي، وبدأت الشيخوخة تدب في أوصالها منذ أكثر من قرن، لكن ذلك لم يظهر إلا في الحرب العالمية الثانية، ومن الطريف أن بعض علماء (الأحياء) جاءوا بضفدع، ووضعوه في إناء وأوقدوا تحته ناراً هادئة، فصارت درجة حرارة الماء ترتفع بمنتهى البطء، وكان المأمول أن يقفز الضفدع عندما يحسّ بسخونة الماء لكن حدوث التسخين على نحو بطيء أدى إلى أن يتحول (المحرِّض) إلى (مخدِّر) وكانت النتيجة أن الضفدع انسلق دون أن يُبدي أية مقاومة! هنا تبرز مهمة العلماء الربانيين العظام والمفكرين المبدعين الذين يمتلكون حاسة (الاستشعار عن بعد) حيث يرون عواقب الأمور قبل فوات الأوان، ويقومون بما تستحقه من مواجهة وعمل، وحتى ننجح في مواجهة ابتلاء ات(التغيرات البطيئة) فإن علينا أن نقوم بأمرين:

أ- الانشداد إلى الأصول والثوابت في المنشط والمكره، والتأبي على انصهار

منهجيتنا وحاستنا النقدية في المعطيات الجديدة مع محاولة استيعاب تأثير المستجدات في تلك الأصول، ومحاولة إيجاد التكييفات والتوظيفات التي ترسِّخها، وتجعلها تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها.

ب- المتابعة الجادة والدقيقة لمجمل التغيرات التي تطرأ على حياتنا لا من خلال الحدس والتخمين والملاحظة العامة، وإنما من خلال (الرقم) والأساليب الكمية، حتى نتعرف بدقة على سيرورة أحوالنا المختلفة، والمآلات الصائرة إليها، وهذا لن يتم إلا من خلال إعادة تنظيم حياتنا ومؤسساتنا المختلفة على أسس جديدة بحيث تخصِّص كل جهة أو مؤسسة قسماً أو موظفاً يتولى جمع المعلومات الخاصة بها ونشرها حتى ينمو إحساس الناس ب (الكم) وطريقة قياسه، وليس من المستغرَب اليوم ذلك التلازم التام والمطلق بين درجة تحضر الدولة، ودرجة تقدم الإحصاء فيها.

إن على المسلم أن يظل يكافح ويجاهد في سبيل التعرف على مراضي الله ـ تعالى ـ في كل حالة من أحواله، ويستشرف بعد ذلك عاقبة المتقين.

في
إشراقة آية

وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا

الإنسان هذا المخلوق العجيب هو صنعة الله -تعالى- المحْكَمة الدقيقة، هذا الإنسان الذي يبدو للوهلة الأولى في منتهى البساطة، مشتمل على كل أشكال التعقيد، إنه يبدو قوياً مخيفاً مع أنه في حد ذاته ضعيف في كل جانب من جوانب شخصيته ضعفاً لا يوازيه شيء سوى ما يدعيه من القوة والعزة والسطوة!

إن هذه الكلمات القرآنية الثلاث لخّصت لنا جوهر الإنسان، لكن دون أن تضع لنا الإصبع على مفردات ذلك الضعف، ومظاهره، ليظل اكتشافها التدريجي عبارة عن دروس وعظات مستمرة تذكِّر الإنسان بحقيقته، وسوف ينفد العمر دون أن نحيط بحقيقة أنفسنا. ويمكن أن نسلط الضوء على بعض ما أدركناه من ضعفنا، وبعض ما يجب علينا تجاه ذلك في الكلمات التالية:

١- تَبصُّر بني الإنسان ـ على الرغم من التقدم المعرفي الكبير ـ بأجسامهم مازال محدوداً إلى يوم الناس هذا، فهناك أجزاء من أجسامنا مازالت مناطق محرَّمة، فعلم الدماغ مازال علم إصابات أكثر من أن يكون علم وظائف وتشريح، ومركّبات الأنسجة

والسوائل المختلفة في أجسامنا وتفاعلها مع بعضها مازال الكثير منها مجهولاً، فإذا ما دلفنا إلى مناطق المشاعر والإدراك وصلاتها وتفاعلاتها بالجوانب العضوية، وجدنا أن كثيراً مما لدينا ظنون وتخرصات أكثر من أن يكون حقائق، فإذا ما خطونا خطوة أخرى نحو العالم الوجداني والروحي وجدنا أنفسنا في متاهات وسراديب، حتى إن الفردية لتطبع كل ذرة من ذرات وجودنا المعنوي، مما يجعل إمكانات الفهم، ووضع النواميس والنظم العامة أموراً قليلة الفاعلية، محدودة النجاح.

إن الباحثين في مجالات علوم الإنسان يجدون الطرق متشعبة ملتوية كلما تقدموا نحو الأمام، على حين أن الباحثين في علوم الطبيعة يستفيدون من أنواع التقدم المعرفي الأفقي في إضاءة ما بقي مظلماً من مسائل الطبيعة والمادة. وتقدّس الله ـ تعالى ـ إذ يقول: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾ ﴾ الإسراء: ٨٥.

ويزداد ظهور ضعف الإنسان حين يدخل في صراع بين عقله ومشاعره حيث يجد نفسه عاجزاً عن دفع مشاعره والخلاص من وساوسه والتغلب على مخاوفه، أو معرفة مصدرها في بعض الأحيان، ليدرك المرة تلو المرة أنه مع طموحه إلى السيادة على الأرض وغزو الفضاء قاصر عن السيطرة على نفسه!

٢- هذا الإنسان الضعيف لا يستطيع أن يبصر الأمور إلا ضمن شروط ومعطيات زمانية ومكانية وثقافية خاصة ومحدَّدة، فهو لا يستطيع أن يتخلص من محدودية الرؤية وضرورة النظر من زاوية معينة، وهذا هو السرّ الأكبر في أننا لا نملك أن نتفق حول كثير من المسائل والقضايا المطروحة. إن خصوصية تكويننا وظروفنا ومشاعرنا تدفع مواقفنا وآراءنا إلى التفرد، ومن ثم فإننا نعجز عن توحيد الرؤية وبسط الرأي

الواحد في معظم شؤوننا.

٣- نحن عاجزون عن إدراك الأشكال النهائية لأكثر حقائق هذا الكون دفعة واحدة، فالحقائق لا تُسفِر لنا عن كل أبعادها وأطوارها إلا على سبيل التدرج، ومن ثَمَّ فإن الإنسان الضعيف يظل يكتشف عجزه باستمرار، وكأنَّ ما يُحرزه من التقدم اليوم ليس إلا عنواناً على ما كان يجهله بالأمس، وما سيصل إليه غداً ليس إلا رمزاً على ما يجهله اليوم، ومن ثم فإن التغيير والتطوير يظلان ملازمين لكل إنتاجاتنا وإبداعاتنا علي مقدار ما نحرزه من تقدم في العلم والفهم، وإن المقولة التي لا يفتأ هذا المخلوق الضعيف يرددها: لو استقبلت من أمري ما استدبرت لفعلت كذا، ولقلت كذا.. وانطلاقاً من هذا فإن من سمات النظريات العلمية الناجحة أن تكون منفتحة وذات قابلية جيدة للإضافات التي تأتي بها حركة كشف الحقائق وإدراك المجهولات.

٤- هذا الإنسان الضعيف لا يستطيع أن يجزم بشيء مقطوع من حوادث المستقبل، فمهما أدرك المرء الظروف والعوامل والمؤثرات التي تحيط به لم يستطع أن يعرف ماذا سيحدث له بعد شهر أو يوم أو ساعة، وأعظم أطباء الدنيا لا يستطيع ضمان استمرار حياته أو حياة غيره ساعةً من زمان، ومن ثمّ فإن القلق والخوف من المستقبل هما الهاجس الجاثم فوق صدر الإنسان الحديث الذي فقد الإيمان وفضيلة الدمج بين الحياة الدنيا والآخرة، وإن المتأمل في كثير من الأقوال والتصريحات والدراسات يجد أن خبراء الاستراتيجية هم أكثر الناس مجازفة، ولا سيما عندما يشرعون في سرد التفاصيل للأحداث المتوقعة، حيث تقصر طاقات البشر وإمكاناتهم عن التنبؤ بها[1].

١-اقرأ إن شئت ما كتبه (نيكسون) في كتابه (نصر بلا حرب) عن المستقبل الذي يتوقعه لروسيا ثم ما آلت إليه الأمور!.

٥- أكثر ما يُظَن فيه عجز الإنسان وضعفه، هو الإمكانات التي يمتلكها لفهم الواقع المعيش بكلياته وجزئياته ومشكلاته وخباياه، وقد كثرت في أيامنا هذه الدعوة إلى فهم الواقع وفقهه، وهي دعوة مهمة، لكنها تُخفي في طريقة طرحها نوعاً من التبسيط للمسألة، حيث إن فهم الواقع أو مقاربته مسألة من أعقد ما يواجهه العقل البشري، فالقيم التي نؤمن بها تتحكم إلى حد كبير في رؤيتنا لذلك الواقع، وكثيراً ما تشكِّل حائلاً بيننا وبين رؤية حقيقة ما يجري فيه. والعقل الإنساني حتى يلامس الواقع فإنه يفترض ثباته وجموده، على حين أن الواقع يظل محطَّة لتدفق التحولات المشعَّثة الكثيرة، والحادة أحياناً مما يجعل إدراكنا قاصراً عن ملاحقته، وبالتالي فإن أحكامنا تصدر على أشياء فائتة ومنتهية، ومن هنا فإنه لابد من بناء (إشكالية)، يتم من خلالها تقسيم الواقع إلى قضايا يمكن تحديدها وتقديم إجابات وحلول لها، والنمط الذي سنصوِّر الواقع من خلاله هو عبارة عن صورة عقلية مركَّبة تدخل فيها رؤانا العقدية إلى جانب العناصر المعرفية والقيم الاجتماعية التي ترشِّد حركة المجتمع، ومادام كل ذلك متفاوتاً عند الناس، فإن عجزنا عن لمِّ الخلاف سوف يظهر أكثر وأكثر عندما نحاول تقويم الواقع، وإصدار الأحكام عليه، وهذا ما سيؤدي بالتالي إلى اختلافات كثيرة في مناهج الإصلاح ومشروعات النهوض الحضاري، وهنا يظهر مرة أخرى مأزق وهن الإنسان حيث إن التقدم العلمي لا يتحقق دون الإغراق في التخصص، والتقدم يستمد مشروعيته وأهميته من كونه يقدِّم الأدوات التي تساعد على إصلاح شأن الإنسان وترشيد قراراته، لكن الإغراق في التخصص يحول دون فهم الواقع ودون فهم حاجات الإنسان المختلفة من منظور شامل، إذ إن مجال التخصصات هو الجزئيات، وفهم الواقع الإنساني يحتاج إلى رؤى ونظريات

كلية لا تتوفر عادة عند الاختصاصيين.. ومن هنا ندرك لماذا نرى تقدم المعرفة وتأخر الإنسان وانحداره شيئاً فشيئاً نحو البربرية! إننا عاجزون عن رعاية شؤوننا إذا ما ابتعدنا عن الانتفاع بالهداية الربانية.

الموقف الموضوعي مما سبق:

إذا كان الإنسان على ما ذكرنا من العجز والقصور، فإن عليه أن يطامن من نفسه، ويخضع لقيوم السموات والأرض خضوع العارف بضعته المدرك لعظمة خالقه متخذاً من ذلك باباً للأوبة والتوبة الدائمة، وعلى الإنسان مع ذلك أن يحترم عقله وقدراته فلا يزجّ به في مجاهيل وغيوب لا يملك أدنى مقدمات للبحث فيها، حتى لا يتناقض واقعه مع ذاته، وإن من المنهجية القويمة أن نعلِّم أنفسنا الصبر على الاستقراء والتأمل وعدم المسارعة إلي إطلاق الأحكام الكبيرة قبل التأكد من سلامة المقدمات التي تستند إليها، وحين نصل إلي حكم ظنِّي فإن علينا أن نصوغة بطريقة تُشعر المطلع عليه بذلك، فلا نسوق القطعيات مساق الظنيات، ولا الظنيات مساق القطعيات.

ومما يروى عن الإمام مالك ـ رحمه الله ـ أنه كان كثيراً ما يردِّد قوله تعالى: ﴿إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ﴿٣٢﴾﴾ الجاثية: ٣٢ وذلك عندما يُستفتى فيُفتي، وقد عتب الإمام الجويني على الماوردي أنه كان في كتابه (الأحكام السلطانية) يسوق المظنونات والقطعيات على منهاج واحد»[1]. مع أن النصوص في مجالات (السياسة الشرعية) قليلة، وأكثر المسائل فيها مبنية على الاجتهاد.

إن الوضعية التي وضع الله -تعالى- فيها الإنسان تحتِّم أن نظل في حالة من

١- انظر الغياثي: ١٤٢ تحقيق د. عبد العظيم الديب.

الاستعداد الدائم لقبول الحق أياً كان مصدره، والتراجع عن الخطأ وتعديل الرأي وامتلاك فضيلة المرونة الذهنية، وعلى الله قصد السبيل.

في
إشراقة آية

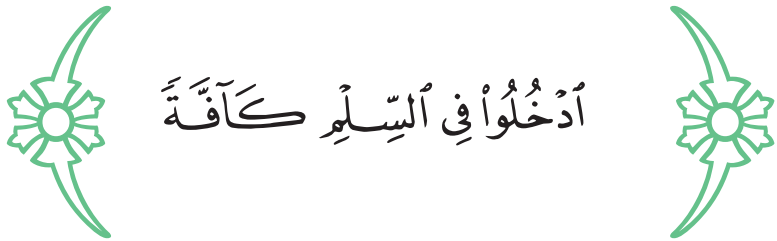

إن المراد بـ (السِّلم) هنا: (الإسلام) على ما رجّحَه عدد من المفسرين وإن (كافّة) حال من (السّلم) على ما نرجحه، ويكون المراد آنذاك: الأمر بالأخذ بتكاليف الإسلام جميعها: ما تميل إليه النفس منها، وما يخالف هواها، وتصرِّح الآية الكريمة بأن في عدم الأخذ بالإسلام كاملاً نوعاً من اتباع الشيطان، حيث إن المنهج الرباني يباين السبل الأخرى في فلسفتها العامة، وإن التفريط بشيء من ذلك المنهج سيكون فيه اتباع (آلي) لسبيل الشيطان حيث لا يوجد خيار ثالث.

ويمكن أن نستبصر في إشراقة هذه الآية المباركة المفردات التالية:

١- إن المنهج الرباني يتسم بسمتين أساسيتين هما: التكامل والتفرد، فهو نظراً لتكامله لا يفسح المجال لعناصر أخرى منافية لجوهره، وأما تفرده عن المناهج الأخرى فإنه يمنحه نوعاً من الحساسية الخاصة التي تجعل أي انحراف عنه، أو به عن مقاصده وغاياته بالغَ الضرر على أدائه وإصلاحه للشأن الإنساني كله، فالصفاء الكلي ليس مطلباً من مطالب الإيمان النظري، ولكنه مطلب من مطالب توظيف المنهج ورسم دوائر

حيويته وفاعليته، وذلك نظراً للعلاقة الجدلية بين النظرية والتطبيق، فسلامة الإيمان على مستوى الاعتقاد تتأثر إلى حد بعيد بالأخذ الجزئي للإسلام على مستوى التطبيق!.

وقد حذّر القرآن الكريم النبي ﷺ من مطاوعة المشركين في الإعراض عن بعض المنهج الرباني حين قال: ﴿وَأَنِ ٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡ وَٱحۡذَرۡهُمۡ أَن يَفۡتِنُوكَ عَنۢ بَعۡضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَ﴾ المائدة: ٤٩

٢- إن خصال الخير في هذا الدين كثيرة، وعلى مقدار ما يأخذ المسلم منها يكون كمال إيمانه وإسلامه، لكن بما أن العمر محدود والطاقات محدودة فإن على المسلم إذا أخذ بعُمُد الإسلام، واهتدى بهديه العام، وقبس من كمالاته، أن يبحث عن المجال الحيوي المناسب لاستعداداته وظروفه وطاقاته، كي يتخذ منه محراباً لتعبده وتقربه إلى الله -تعالى- حتى نحفظ للمجتمع الإسلامي توازنه ونسد ثغراته، ومن هنا فإن عبادة طالب العلم محاولة النبوغ، وإتقان التخصص حتى نحقق للأمة الاكتفاء الذاتي، ولو في حده الأدنى على الصعيد العلمي والفني، وعبادة علماء الشرع القيام بالتبليغ وإحياء السنن والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وتجديد وظائف التدين والتبصر في واقع الأمة، وإن عبادة الحكام إقامة العدل، ورعاية شؤون الأمة وحماية البيضة، والتعفف عن الأموال العامة ونشر الدعوة، وعبادة الجندي دوام التمرس بفنون القتال، واستيعاب الأسلحة الجديدة واستشراف الشهادة، والاستعداد الدائم للبذل والفداء، وإن عبادة الأغنياء وذوي الجاه سدُّ حاجة الفقراء ومساعدة الضعفاء على حل مشكلاتهم والوصول إلى حقوقهم، والبذل في تشييد المرافق العامة، وهكذا...

وإن خروج كل واحد من هؤلاء عن مجاله الحيوي سيحرمه، ويحرم الأمة من

خير عظيم، بل قد يؤدي إلى أضرار بالغة ووخيمة العواقب، فإذا صار همُّ العالم امتلاك المال بنية إعمار المساجد مثلاً تقلصت جهوده في ميدانه الحقيقي الذي ينبغي عليه المجاهدة فيه، وإذا انشغل الحاكم بأعمال خيرية أو أداء النوافل عن واجباته الأخرى، لم يكن ذلك موضع مدح ولا نفع ذي شأن للأمة المسلمة، وهكذا... وهذا كله يحتاج إلى نوع من البصيرة النافذة بغية وضع الأمور في نصابها.

٣- إن أنظمة الإسلام يكمِّل بعضها بعضاً، كما يفعّل بعضها بعضاً، ومن ثَمَّ فإن أي خلل أو ضعف في نظام من تلك النظم يؤثِّر بالسلب في أداء باقيها، وهذا يعود إلى ما ذكرناه آنفاً من ميزة (التكامل) التي يمتاز بها المنهج الرباني، ونظراً لأهمية هذه المسألة وضعف الإدراك لها سنفيض القول فيها عسى أن نشعر أننا نقف على أرض صلبة.

في البداية أقول: إن مبادئ الإسلام ومنظوماته المختلفة تنضوي تحت رؤية واحدة مما يجعل التخلي عن أي منها هدماً لجزء من الرؤية الكونية الإسلامية، ويستوي حينئذ على الصعيد العملي على الأقل الجهل بذلك الجزء مع تجاهله أو جحده، والنتيجة واحدة، وهي غبشٌ في الرؤية على المستوى النظري، واختلال في التوازنات العميقة على مستوى الشعور، واضطراب أنظمة الحياة الإسلامية على مستوى الفعل والواقع المعيش، وسنضرب العديد من الأمثلة لجلاء هذه الحقيقة:

أ- الزكاة جزء من النظام الاقتصادي الإسلامي، وعدم القيام بهذه الشعيرة يؤدي إلى ضعف كفاية ذلك النظام؛ كما يؤدي إلى إلحاق الضرر بالنظام الاجتماعي والأخلاقي أيضاً، فالمقدار المفروض من الزكاة في الأموال وعروض التجارة هو اثنان ونصف في المئة، وهذا القدر كاف لسد العديد من حاجات المجتمع الإسلامي على مقتضى الحكمة الإلهية البالغة، لكن ذلك سيكون في الأحوال العادية والطبيعية

وفي غير الأحوال الطارئة كما هو الشأن في حالات الزلازل والفيضانات، وذلك أيضاً فيما إذا التزم أغنياء المسلمين بإخراجها، وإذا استمر ذلك الالتزام حقبة مناسبة من الزمن، فلو قدرنا أن ٣٠٪ من الأغنياء أخرجوا الزكاة وأن التزامهم بأدائها في مجتمع ما لم يمض عليه سوى سنتين، فإن الزكاة آنذاك لا تقوم بمهامها على الوجه المطلوب، حيث إن الحالتين اللتين ذكرناهما تجعلان الفقر يتراكم، ويتفاقم إلى الحدِّ الذي لا تفي أموال الزكاة بالتخلص منه، ثم إن نظام الزكاة يؤدي مهامه في ظل فعالية الأنظمة الأخرى، فإذا كانت موارد القطر شحيحة جداً، أو كان النظام السياسي فيه مختلاً، وأدى ذلك إلى انتشار البطالة والعطالة عن العمل، فإن نظام الزكاة بالتالي لا يوصلنا إلى الأهداف المنشودة منه، وباعتبار الزكاة جزءاً من النظام الاقتصادي الإسلامي، فإنها أيضاً لا تؤدي وظائفها إلا بفاعلية النظام الذي تنتمي إليه، فمثلاً: (القرض الحسن) جزء من ذلك النظام، وإعراض الدولة أو الشعب عنه يؤدي إلى نوع من تعطيل حركة المال، وتداوله مما يفضي بالتالي إلى ضعف حركة التنمية والاستثمار، وقلة فرص العمل وكثرة الفقراء والمعوزين، ومرة أخرى فإن فاعلية نظام الزكاة ترتبط جزئياً بقيام الدولة بواجباتها من ضمان الحد الأدنى من المعيشة للفقير بالقدر الذي يحفظ كرامته، ويجعله في وضع منتج مثمر، فإذا عجزت الدولة عن ذلك أو قصَّرت فيه، فإن آلية (نظام السوق) ستوجِد شريحة واسعة من المحتاجين الذين لا يمكن أن تقوم بهم أموال الزكوات والنذور والكفارات... وينفعل كل ذلك، ويتأثر بقوة النظام القيمي وفاعليته، فإذا كان نَشِطاً اندفع الناس إلى التطوع بكثير من الأعمال الخدمية، واندفع كثير من الفقراء إلى العمل والحركة مع حسن التدبير والتعفف عن أموال الآخرين مما يخفف من غلواء الحاجة.

ب- الضبط الاجتماعي في الإسلام يقوم على ركنين أساسيين: الأسرة والمجتمع العام بما فيه من وسائل تثقيف وتعليم ورقابة... وإن الخلل في أيٍّ من هذين الركنين سيؤدي إلى شيوع الخلل في أداء الركن الآخر. وواضح أن مهمة الأسرة أن تصقل الفرد من داخله بما تغرسه من قيم وآداب وبما تخطُّه في ذهنيته ومشاعره من خطوط عميقة، كما أن مهمة المجتمع الأرحب القيام بالرقابة على تشجيع القيم الإيجابية، وحماية أفراده من السقوط فيما يعتبر أعمالاً مُشينة أو مُخِلَّة، والحالة النموذجية في هذا تتجلى في عموم الإيمان بالقيم والنظم، وتوحد التربية الفردية مع معايير الضبط الاجتماعي على مقتضى ذلك الإيمان، فإذا ما افترضنا وجود تباين بين القيم الأسرية والقيم التي يبثها الإعلام أو تلقنها المدرسة أو يُشيعها الشارع، فإن النتيجة هي تمزق شخصية الطفل بين مختلف هذه المؤثرات، وحينئذ فإن التربية الأسْرية تتعرض للخطر من قبل المجتمع الأوسع أو يأتيه الخطر مما تم التواضع عليه من قبلها، هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن الطفل يُخفي في البيت ما تلقفه من المدرسة أو الشارع، ويُخفي فيهما ما لُقِّنَهُ في البيت، والنتيجة هي الازدواجية والحيرة وانطفاء الفاعلية، أي إجهاض عمل الجهات التربوية المختلفة، وترك الناشئ لموجات الظروف.

ج- الحدود في الإسلام وسائل للردع، وهي بمثابة العمل الجراحي الذي يأتي ترتيبه في التطبب متأخراً، وتؤدي الحدود مهماتها في مجتمع يتمتع بالعيش في أوضاع مقبوله، حيث يتوفر فيه الحد الأدنى من الاستقرار والعدل وفرص العمل المناسبة وانعدام المغريات بالفاحشة وانسجام التربية البيتية مع معايير الضبط الاجتماعي وانتشار العلم... وإذا ما فرضنا وقوع خلل فيما سبق أو بعضه، فإن كفاءة الحدود في توفير الأمن للمجتمع سوف تتراجع على مقدار القصور الحاصل في الأنظمة

الأخرى، وهذا كله يجعل مسؤولية أمن المجتمع واستقراره مسؤولية عامة يتحملها كل فرد في المجتمع، كما تتحملها الدولة على مقدار المُكْنَة والتخصص.

٤- إذا كانت أنظمة الإسلام متفردة في رؤيتها الكونية وفي منطلقاتها وأهدافها، فإن مما يضر بتماسكها الداخلي إدخال العناصر البعيدة عن طبيعتها عليها، وهذا ما يمكن أن نسميه بـ (التلفيق)، وإن الثقافة الإسلامية تقبل من الجديد ما ينشِّط وظائفها، أو يوظِّف مبادئها، أو يملأ فراغات وهوامش أوجدتها خاصية المرونة فيها، فإذا تجاوز الأمر ذلك إلى الجوهر والأنظمة الأساسية، فإن النتيجة هي ضرب التوازنات العميقة لتلك الثقافة مما يجعلها تنكمش كما هو المألوف في شأن الكائن الحي حين يُهاجَم وتفرز نوعاً من العطالة الضرورية كيما تحافظ على وجودها وانسجامها، إن ثقافتنا الإسلامية تمر بمرحلة عصيبة لا سابق لها في تاريخها المديد حيث يمتلك زمامَ تثقيف الأمة أناس كثيرون يجهلون ثقافة الأمة، بل إنهم رضعوا لبان الثقافة المعادية، ولسنا هنا بصدد بيان ذلك ولا أسبابه، لكن ما نشاهده اليوم من عمليات التلفيق والتهجين الثقافي كان حصاد مراحل الركود الفكري والحضاري بصورة عامة، وإذا كان التجديد سنة من سنن الكائن الحي فإنه إذا لم يتوَل التجديد أهله تولاه غيرهم، فالإنسان بطبعه لا يصبر على طعام واحد، وهو يستهلك الشعارات والأفكار والنظم الصغرى، فإذا لم نقم بإثراء ثقافتنا بالدراسات والخبرات وتجديدها وتحريرها من عوادي الانحراف والجمود والتقليد فعل ذلك من لا يُحسنه، وصار الانسجام والتجديد عبارة عن سمات ظاهرة جوفاء، أما الجوهر فيشوبه التناقض والتآكل الداخلي.

ولله الأمر من قبل ومن بعد.

في
إشراقة آية

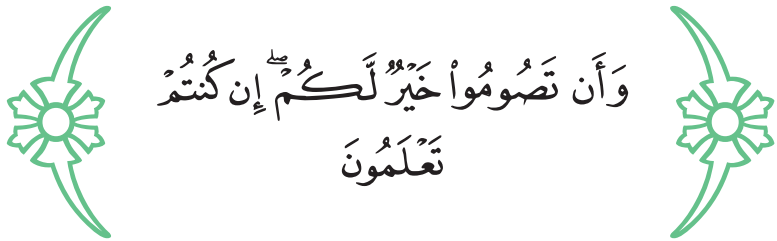

كان من منّة الله تعالى على هذه الأمة أن شرع لها من الدين ما يُصلح أمر دنياها وآخرتها، وكان من أهم ما شرعه صوم شهر رمضان المبارك. والعبادات في الإسلام تكاليف ابتلاء، ومقياس يكشف عن مدى تمكن الإيمان وأَلَقه في نفس المسلم، وهي في الوقت ذاته وسائل لتمكين ذلك الإيمان، إنها له بمثابة الماء للشجر والنبات. وآيات الصيام لم تعِّدد لنا أنواع الخيرات التي سنحصل عليها من وراء هذه العبادة؛ ليظل عطاء هذه العبادة مفتوحاً متنوعاً تظهره التجربة التاريخية الاجتماعية، والواقع المعيش، ونستطيع اليوم من خلالهما أن نتلمس وجوهاً من ذلك الخير في المفردات التالية:

١- إن الصيام وسيلة فعَّالة لتربية الإرادة الحرة:

من الواضح أنه لا توجد عبادة من العبادات تكفُّ المسلم عن شهواته وملذاته مدة متصلة من الزمان كهذه العبادة، فهي تدريب لإرادة المسلم على مقاومة الأهواء والملذات ومغريات الحياة. والمتأمل فيما يتفاوت فيه الناس في هذا الوجود يجد أن محور التفاوت هو الإرادة لا القدرة، فالقدرات الفطرية لدى الناس متقاربة،

و تفاوتهم الأساسي يكون في مدى صلابة الإرادة التي تُسخِّر القدرة وتوجِّهها والتي تعين على ضبط الوقت، وتكبح جماح الهوى، وتعصم من الركون إلى الدعة وسفاسف الأمور، ومن هنا فإن الصيام جاء لينمِّي تلك الإرادة وليُعَوِّدَها التوجه إلى الخير ومقاومة نزوات النفس؛ ولذا فإن تفريط المسلم في أداء هذه الشعيرة صار لدى العامة من المسلمين مؤشراً إلى نقصٍ في رجولته، وهذا هو تفسير أداء كثير من المسلمين للصيام مع تفريطهم في الصلاة، مع أن أهميتها في الإسلام أعظم! ويذكر لنا ابن الجوزي (ت ٥٩٧ هـ) أن فى زمانه صنفاً من الناس لو ضُرب بالسياط على أن يفطر رمضان ما أفطره، ولو ضرب على أن يصلي ما صلى! وما ذلك إلا لأن الناس عدُّوا الإفطار نقصاً في الرجولة، ولم يعدُّوا الصلاة كذلك، وفي قوله سبحانه: (وأن تصوموا خير لكم) في أعقاب ذكر الرخصة للمريض والمسافر بالفطر إيماءة للمسلم بأنه من الأفضل له أن يصوم مع المرض المحتَمل والسفر غير الشاق، ليكون في تحقيق إرادته نوع من المكابدة والمعاناة في سبيل الله ﷻ، وحتى لا يصير بعض الناس إلى البحث عن الرخص والتذرع بها للفرار من الواجبات.

٢-كيف كان الصيام عبادة سلبية؟.

إن الصيام هو امتناع عن أنواع المفطرات، ومن ثَمَّ فإنه بعيد عن الرياء، وخرق تلك العبادة أمر ميسور في السر لمن أراد ذلك، ومن هنا فإن صيام رمضان فرصة لتنمية الوازع الداخلي لدى المسلم، هذا الوازع الذي تُعد تنميته محور التربية الفردية الناجحة، و من الملموس أن تعاظم هذا الوازع لا يتم إلا من خلال الثقة به والاعتماد عليه في شؤون عديدة، فهو في ذلك أشبه شيء بعضلات الجسم في أن نموها في استخدامها وتحريكها والاعتماد عليها؛ ولذا فإننا نرى ضعف الوازع الداخلي

لدى أولئك الذين يمارسون الفضائل، ويقومون بالواجبات من خلال قسر الأبوين أو المجتمع، فهم يفعلون ما يفعلونه نتيجة ضغط خارجي، فإذا ما ضَعُفَ ذلك الضغط أو تلاشى أتوا من الرذائل والقبائح وأنواع التحلل ما يتناسب طرداً مع حجم الضغوط التي تعرضوا لها فيما مضى؛ وهذا يجعلنا نساوق بين الرقابة الاجتماعية وتنمية الوازع الداخلي من خلال التربية البيتية القويمة.

٣- في الصيام فوائد طبية واقتصادية واضحة:

و ذلك لأنه يخلِّص الجسم من بعض ما تراكم فيه من الدهون، ويريح المعدة من العمل الشاق الذي تقوم به على مدار السنة مع فوائد طبية أخرى معروفة.. وفي الصيام توفير إجباري لنحو ٤٠ ٪ من استهلاك الأطعمة والأشربة الذي تعوده الناس في أيام الفطر، وفي هذا نوع من التعظيم للمالية الإسلامية ونوع من المحافظة على الموارد الغذائية للأمة المسلمة.

٤- من خيرات رمضان أنه أضحى ظرفاً لأداء أنواع من القربات لله:

قد تجاوز صيام هذا الشهر مفهوم التلبس بعبادة من العبادات، ليصبح نوعاً من الامتثال لمفردات كثيرة في المنهج الرباني، ففيه قيام الليل والإكثار من قراءة القرآن والاعتكاف في المساجد، ولزوم الجماعات من قِبَل كثير من المسلمين، وإخراج صدقة الفطر، والاستبشار بعفو الله وكرمه بما تُظهِره الأمة من البهجة والسرور في يوم عيدها، فكأن شهر رمضان مناسبة لازدحام العبادات والقربات في حياة المسلم على نحو لا يتوافر في أي وقت آخر.

٥- يمثل الصيام نوعاً من الاتصال والتواصل الاجتماعي:

ترسم الظروف اليومية والمصالح والأوضاع الاجتماعية، والطموحات الخاصة

مجموعةً من الأطياف العازلة لكل إنسان عن غيره، مما يؤدي إلى فقد الاتصال أو ضعفه، وفقد الاتصال في مجتمع ما من أكبر المعوقات له عن النمو والتجانس والصمود في وجه الكوارث وألوان العدوان الخارجي، ومن ثَمَّ فإن امتناع أبناء المجتمع المسلم عن الطعام في وقت واحد مهما كانت أوضاعهم الاجتماعية وتناولهم له في وقت آخر محدَّد، إلى جانب الشعائر الجماعية الأخرى التي تعودها المسلمون في هذا الشهر المبارك ـ من أهم ما يمنح الشعور بالتجانس، ومن أهم ما يُزيل الحواجز التي تولِّدها الظروف المختلفة.

الصيام اليوم:

إن مهمة المبادئ العليا أن تكيَّف حياة الناس وتوجِّهها وفق مضامينها ومعطياتها، لكن تلك المباديء لا تعمل في فراغ، وإنما تشتبك مع أمور عديدة، من جملتها العادات الموروثة والظروف الضاغطة والأهواء والشهوات الجامحة والتأويلات والأفهام الخاطئة للمنهج والمباديء، وهذا كله ينتهي إلى شأن اجتماعي معيش يلخصه ميل الناس بصورة دائمة إلى جعل المنهج الرباني جزءاً من ثقافتهم، وقد يكون جزءاً صلباً، وقد يكون جزءاً رخواً على مقدار إقبال الناس على الإسلام مع أن المطلوب هو أن نجعل المنهج موجهاً للثقافة ومهيمناً عليها. ومن هنا فإن أخطر علل التدين هي تلك التي تصيب الأمة في مكانة منهجها ومبادئها من ثقافتها العامة، فتكف المبادئ عن توجيه الفعل، أو تنحرف عن غاياتها ومقاصدها، فلا تحقق الحِكَم المقصودة من تشريعها، ويكون الجهاد الدائم هو محاولة الإبقاء على المنهج الرباني ساطعاً متألقاً متميزاً عما تواطأ عليه الناس من عادات وتقاليد.

ومازال بحمد الله في مجتمعنا المسلم من يحرص على الصيام على الوجه الأكمل،

وهم في تزايد مستمر، لكنَّ الأكثرية الكاثرة من هذه الأمة انحرفت بالصيام عن مقاصده التي ذكرنا أهمها آنفاً، فعلى حين كان السلف يعدون رمضان فرصة سانحة يغتنمونها في صنوف الطاعات، نجد كثيراً من المسلمين يسهرون الليل في ضروب مختلفة من اللهو حتى إذا اقترب وقت السحر تناولوا ما لذَّ وطاب من الأطعمة، ثم ناموا قبل أداء صلاة الفجر، وإذا كان هذا النائم موظفاً فإن وقت بداية العمل في رمضان يكون متأخراً، فيقوم متثاقلاً إلى عمله ليكمل نومه هناك! وإن كان غير موظف فإن رمضان عنده هو شهر النوم، فيستغرق في نومه إلى ما قبل المغرب، فيفوِّت عليه أكثر من فريضة صلاة!! ومع هذا فإن الشعار المرفوع لدى كثير من الموظفين هو أن رمضان شهر عبادة، وليس شهر عمل (العبادة التي قدمنا صورة منها!).

أما تهذيب النفس من خلال الجوع فحدِّث عن هذا ولا حرج، حيث إن التجار يشرعون في الإعداد لمستلزمات رمضان قبل مجيئه بنحو شهرين، وتقدِّر بعض الجهات أن ما يستهلكه كثير من المسلمين في رمضان يصل إلى ثلاثة أمثال ما يستهلكونه في غير رمضان! وقد صار رمضان عبئاً ثقيلاً على الحكومات التي توفِّر السلع المدعومة لمواطنيها!

وقد كان السلف يدعون الله ـ تعالى ـ ستة أشهر أن يبلِّغهم رمضان، فإذا انصرم دعوا الله ستة أشهر أخرى أن يتقبل منهم أعمالهم فيه، أما اليوم فإن كل وسائل الإعلام في العالم الإسلامي تُشْعِر الناس بأن رمضان ضيف ثقيل، فكأنه شر لابد منه، ومن ثم فإن كثيراً من البرامج ينصرف إلى الترفيه عن الناس بما يجوز وبما لا يجوز، وانقلب الشهر المبارك بذلك إلى موسم للهو واللعب!

وما يحدث لكثير من المسلمين في هذا الشهر أمر مفهوم، حيث إن الأمة

حين تمر بحالة من الركود الحضاري تكفُّ مبادئها عن الفعل، وتسيطر عليها الشكليات والعادات، فجيوشها لا تقاتل، ومبدعوها لا يُعرَفون والفضائل فيها شعارات، والعبادات عادات.. وتستمر في ذلك حتى تندثر باعتبارها أمة متميزة أو يبعثها الله بعثاً جديداً، يحيي ما اندرس من سابق عهدها؛ وما ذلك على الله بعزيز.

في
إشراقة آية

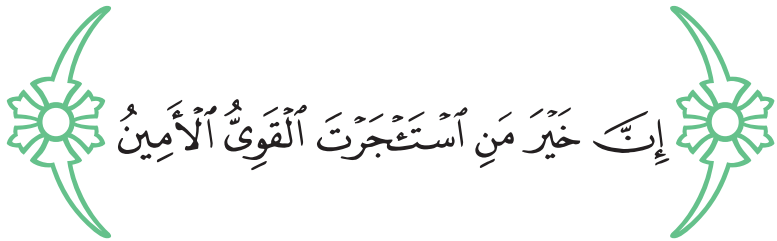

قصّ الله ﷻ علينا خبر موسى مع شعيب -عليهما السلام- حين جاء مدين، ووجد ابنتين لشعيب قد منعتا غنمهما من الورود بانتظار ذهاب الرعاء وفراغ المكان، وما حدث من تطوع موسى بالسقيا لهما، وما كان من أمر شعيب حين بلغه ما قام به موسى حيث أرسل له يطلبه؛ ليجزيه على ذلك، وذكر لنا القرآن الكريم كذلك نصيحة ابنة شعيب لأبيها باستئجاره، وعلَّلت ذلك بقوة موسى وأمانته، ويذكر المفسِّرون أن شعيباً -عليه السلام- أثارت حفيظته الغيرة من كلامها، فقال: وما علمك بقوته وأمانته ؟ فذكرت له أن موسى حمل حجراً من فوق فوهة البئر، لا يحمله في العادة إلا النفر من الناس، وتلك قوته، وأنه حين ذهبت تكلمه أطرق رأسه، ولم ينظر إليها، كما أنه أمر المرأة أن تمشي وراءه، حتى لا تصيبَ الريح ثيابهَا فتصفَ ما لا تحل له رؤيته، وتلك أمانته، وقد صدق حدسها فهي ما رأت إلا نبياً من أولي العزم المؤتمنين على الوحي، الأشداء الأقوياء! وقد قيل: إن أفرس الناس ثلاثة: بنت شعيب وصاحب يوسف حين قال ﴿عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ﴾ يوسف:٢١ وأبو بكر

حين اختار عمر لإمارة المؤمنين[1]، وقد جمعت ابنة شعيب في تعليلها المختصر ذاك بين أمرين عظيمين، ينضوي تحتهما معظم الكمالات الإنسانية، وهما الأمانة والقوة، وهذه وقفات سريعة معهما:

١- ليست الأمانة هنا إلا رمزاً لما يستلزمه الإيمان بالله ـ تعالى ـ من المحامد كالإخلاص والأمانة والصدق والصبر والمروءة، وأداء الفرائض والكفِّ عن المحرمات؛ وقد قال أكثر المفسرين في قوله سبحانه: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ﴾ الأحزاب:٧٢: إن المراد بها التكاليف الشرعية عامة[2]، وقد وصفت ابنة شعيب موسى بالأمانة لغضِّه طرْفَه، ومشيه أمامَها.

أما القوة فهي رمز لمجموع الإمكانات المادية والمعنوية التي يتمتع بها الإنسان.

٢- الأمانة والقوة ليستا شيئين متوازيين دائماً، فقد يتحدان، وقد يتقاطعان فالصبر جزء من الأمانة؛ لأنه قيمة من القيم، وهو في ذات الوقت قوة نفسية إرادية، وإذا كان العلم من جنس القوة، فإنه يولِّد نوعاً من الأمانة؛ إذ أهله أولى الناس بخشية الله، ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾﴾ سورة فاطر:٢٨ والإيمان أجلُّ القيم الإسلامية، فهو من جنس الأمانة، ومع ذلك فإنه يولِّد لدى الفرد طاقة روحية هائلة تجعله يصمد أمام الشدائد صمود الجبال، ومن ثم كانت الظاهرة الإسلامية العالمية؛ ظاهرة (المسلم لا ينتحر)!. إن هذا التلاقي بين الأمانة والقوة يمثِّل بعض الأرضية المشتركة لتلاقي أهل الأمانة وأهل القوة، كما يجعل التحقق من إحداهما المعْبَرَ للتحقق من الأخرى.

١-الكشاف ٣: ١٦٣.
٢- انظر البحر المحيط ٧: ٢٥٣.

٣- سوف يظل النمط الذي يجمع بين القوة والأمانة نادراً في بني الإنسان، وكلما اقتربا من الكمال في شخص صار وجوده أكثر ندرة، والقويُّ الذي لا يؤتمن، والموثوق العاجز هم أكثر الناس، والذين فيهم شيء من القوة وشيء من الأمانة كثيرون، وقد روي عن عمر- رضي الله عنه - أنه قال: أشكو إلى الله جَلَد الفاجر وعجز الثقة، فكلٌّ منهما لا يمثِّل المسلم المطلوب، ودخل عمر أيضاً على لفيف من الصحابة في مجلس لهم فوجدهم يتمنون ضروباً من الخير، فقال: أما أنا فأتمنى أن يكون لي ملء هذا البيت من أمثال سعيد بن عامر الجمحي، فأستعين بهم على أمور المسلمين!.

٤- العمل المقبول في المعايير الإسلامية هو ما توفر فيه الإخلاص والصواب، والإخلاص ضرب من الأمانة، والصواب - وهو هنا موافقة الشريعة - ضرب من القوة، هذا بصورة عامة، لكن في أحيان كثيرة يكون ما يُطْلب من أحدهما أكثر مما يطلب من الآخر؛ فالثواب يتعلق بالإخلاص أكثر من تعلقه بالصواب، فالمجتهد المؤهل ينال أجراً إذا استفرغ وسعه وإن كان اجتهاده خاطئاً، لكن لا ثواب ألبتة على عمل لا يراد به وجه الله - تعالى - أما النجاح والوصول إلى الأهداف المرسومة في الدنيا فإنه مرتبط بالصواب أكثر من ارتباطه بالإخلاص، فكم من مؤسسة يديرها أكفاء ليس عندهم شيء من الأمانة، ثم حققت أهدافها المادية كاملة وكم من مؤسسة أدارها أخيار غير مؤهلين، فأعلنت إفلاسها! وقد ذكر ابن خلدون أن للناس مذهبين في استخدام الأكفاء غير الثقات وتقديمهم على الثقات غير الأكفاء، واختار هو استخدام غير الثقات إذا كانوا مؤهَّلين؛ لأن في الإمكان وضع بعض التدابير التي

تحد من سرقاتهم، أما إذا كان المستخدَم لا يحسن شيئاً فماذا نعمل به[1] ؟.

وقد ولّى النبي ﷺ أهل الكفاية الحربية من أصحابه مع أن فيهم من هم أتقى منهم وأورع؛ لأن القوة (البسالة وحسن التخطيط) تُطلب في قيادة الجيش أكثر من الأمانة، مع أنهم كانوا بكل المقاييس من الأمناء الأخيار، وطلب بعض الصحابة ممن عُرفوا بالزهادة والورع الولايةَ على بعض أمور المسلمين، فحجبها عنهم لضعفهم.

٥- نحن في مراجعة أخطائنا نركّز على جانب الأمانة، ونهمل جانب القوة، فإذا ما أخفقنا في عملٍ ما قلنا: نحن بحاجة إلى تقوى وإخلاص، وإن اتباع الأهواء هو السبب في ذلك. ولا ريب أن الإخلاص مفتاح القبول والتوفيق، وأن التقوى مما يستنزل الفَرَج، لكن ما هي المعايير التي تمكننا من قياس درجة التقوى ومقدار الإخلاص الموجود إذا ما أردنا التحقق منه؟ وكيف نستطيع التفريق بين عمل دفع إليه الهوى وآخر دفع إليه الاجتهاد ؟ كل ذلك مما يستحيل قياسه، وبالتالي فإنه لا يمكن تحديده، وما لا يمكن تحديده، لا يصلح لأن يكون هدفاً.

إن في إمكان الناس أن يقولوا إلى ما شاء الله: نحن أتباع هوى دون أن تستطيع أن ترد على أحد منهم رداً شافياً قاطعاً، على حين أن قياس القوة ممكن، والخلل فيها يكون عادة ظاهراً يمكن وضع الإصبع عليه، فحين يأتي خطيب ليتولى إدارة جيش، أو التخطيط لمعركة، وحين يتولى رسم سياسات العمل رجلٌ لا يعرف الواقع، فلا يقرأ جريدة ولا يستمع إلى نشرة أخبار، ولا يُحسن قراءة أي شيء يحيط به، فإن الخلل لا يحتاج إذ ذاك إلى شرح حيث تتولى شرحَه النتائج!. وحين يتصدى للاجتهاد في أمور خطيرة أشخاص لا يملكون الحد الأدنى من المعلومات حولها، وتترتب على

١-انظر مقدمة ابن خلدون ٢: ٢٧٩.

اجتهاداتهم فواجع أكبر من أي جريمة ماذا تكون الحال ؟! قد آن الأوان لوضع الأمور في نصابها، بتأهيل الشخص قبل إيجاد العمل الذي سيعمل فيه، بدلاً من أن يتم إيجاد المنصب ثم يُبحث عمن يسد الفراغ ليس أكثر!

٦- عالمنا الإسلامي نموذج مثالي للقوى الكامنة، فكل ما عندنا (خام): الإنسان والطبيعة والموارد، ولعل لله في ذلك حكمة بالغة؛ إذ إن تشكيل الإنسان المسلم لو تم قبل بزوغ الصحوة المباركة لكان أكثر ضرراً من بقائه على حاله، هذه القوى الكامنة ستظل ثغرات في حياتنا ـ أياً كان موقعها ـ في ظل التكالب العالمي على الصعيد الثقافي والاقتصادي، وهذه القوى الكامنة تحتاج إلى تفجير وإلى إخراج في شكل جديد يمنحها وزنها الحقيقي، وإن إخراج القوة هو مهمة الدولة أولاً؛ فهي المسؤولة عن تفجير الطاقات كافة وتوجيهها، ومهمة صفوة الصفوة من صانعي المبادرات الخيّرة، الذين يمتد بصرهم دائماً إلى مستوى أعلى من المستوى الذي تعيش فيه أمتهم، فيوجِدون باستمرار الأفكار والأطر والأجواء والآليات التي تُفعِّل القوى الخامدة المجهولة للناس حتى حامليها، واليهود هم من أساتذة العالم في (إخراج القوة) وتوظيفها واستغلالها، وصحيح أن ديننا يحول بيننا وبين وسائل كثيرة استخدموها حتى وصلوا إلى ما وصلوا إليه، لكنني أعتقد أنه مازال في هذا العالم مكان فسيح للمسلم المبصر الأريب.. وقد بدأت الأمة في امتلاك القوة، وبدأ المارد الذي نام قروناً يصحو، وهو الآن يتفقد أعضاءه وحواسه، ويحاول أن يتعلم المشي في (حارة) الكرة الأرضية، لكن بعضاً منا بدؤوا يخبطون يمنة، ويسرة قبل أن يفتحوا عيونهم، وقبل أن يعقلوا الأجواء التي يصحون فيها؛ ليغروا العدو بتوجيه الرصاصة القاتلة قبل أن يقفوا على أقدامهم!.

إن فهم الحياة المعاصرة شرط أساسي يجب توفيره عند كل أولئك الذين يريدون توجيهها والتأثير فيها، ولن يكون ذلك ممكناً ما لم نكن نحن من المشاركين في صناعة قراراتها وخياراتها..

٧- الأمانة قيد على القوة، فهي التي تحدد مجالات استخدامها وكيفياته، والقوة الآن في يد الآخرين على ما نعرف، والقيود الأخلاقية عندهم آخذة في الضعف يوماً بعد يوم؛ لأنها لا تعتمد على إطار مرجعي أعلى يمنحها الثبات، ومن ثم فإن القوة ليست في طريقها إلى الانطلاق من أي ضابط أو رقيب، لكنها في طريقها إلى صنع قيودها بنفسها الصِناعةَ التي تمكِّنها من مزيد من الانطلاق، وهي بذلك تجعل الآخرين يتوهمون أنها قيود؛ حتى لا يشعر أحد أن هناك فراغاً أخلاقياً يجب ملؤه! وما النظام العالمي الجديد سوى الأحرف الأولى في أبجديات القيود الجديدة! وهذا يوجب علينا المزيد من التفكير والتأمل فيما يجب عمله، ونحن مع ضعفنا قادرون في هذا المضمار على عمل الكثير الكثير إذا فهمنا لغة العصر، وأحسنا إدارة الصراع؛ إننا نملك القيود (الأمانة)، وهم يملكون القوة، فهل نسعى إلى امتلاك القوة المقيَّدة حتى يصطلي العالم بالنار دون أن يحترق ؟؟

في
إشراقة آية

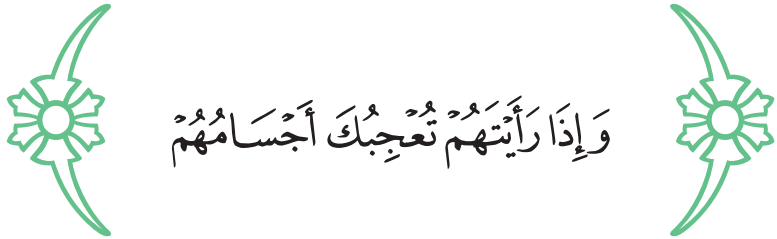

أنزل الله ﷻ في المنافقين سورة سُميت باسمهم، تفضح بعض مواقفهم، وتُخبر عن بعض صفاتهم، وكان من جملة ما نَعَتَهُمْ الله ـ تعالى ـ به قوله: ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ ۖ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ ۖ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ ۖ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ ۚ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ ۚ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ ۖ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٤﴾ ﴾ المنافقون: ٤.

فقد وصفهم الله –تعالى– بأن الناظر إليهم يُعجَب بجمال أجسامهم، ومن يسمعهم يُؤخذ بفصاحة ألسنتهم، لكنهم كالهياكل الفارغة، أشباح بلا أرواح، وأجسام بلا أحلام... وهذه الصفات تتناسب مع حالة النفاق، إذ إن ظاهر المنافق دائماً خير من باطنه، فظاهره الإيمان، وباطنه الكفر، وهو ذلق اللسان، لكنه يقول غير ما يعتقد؛ فهو كذاب، وهو جميل الصورة، لكنه عاطل من الصفات النبيلة كالإيمان والمروءة والرجولة، وكل ما يزِّين الباطن، وقد روي عن ابن عباس – رضي الله عنهما – أنه قال: «كان عبد الله ابن أُبيّ (رأسُ النفاق) وسيماً جسيما صحيحاً

صبيحاً ذلق اللسان، فإذا قال سمع النبي ﷺ مقالته»[1].

ولمّا كان للظاهر سلطانه القويُّ في التأثير، وانتزاع الإعجاب علَّم النبي ﷺ أصحابه ضرورة تجاوزه إلى المعاني الباطنة؛ لأنها هي الفيصل الحقيقي في تقييم الرجال؛ وقد ورد في الحديث الصحيح: أن رجلاً مرَّ على النبي ﷺ فقال: ما تقولون في هذا؟ قالوا: حريٌّ إن خطب أن يُنكح، وإن شفع يُشفعَّ، وإن قال أن يُستمع، فسكت رسول الله ﷺ فمر رجل من فقراء المسلمين، فقال: ما تقولون في هذا؟ قالوا: حريٌّ إن خطب ألا يُنكح، وإن شفع ألا يُشفَّع، وإن قال ألا يستمع، فقال رسول الله ﷺ: هذا خير من ملء الأرض مثلَ هذا[2] ففضَّل النبي ﷺ الفقير على الغني، وذلك لا يلزم منه تفضيل كل فقير على كل غني، إنما أراد أن يعلِّمهم أن التفاضل لا يقوم أبداً إلا على المعاني الباطنية، وما يتبعها من أعمال، وتطرح هذه الآية الكريمة مسألة خطيرة في حياة الإنسانية عامة وحياة المسلمين خاصة، هي قضية العلاقة بين الشكل والمضمون، أو الجوهر والمظهر[3].

ونعني بالجوهر ابتداءً: مجموع الخصائص الخُلُقِيَّة والنفسية والصور الذهنية، والخبرات والموازنات العميقة للفرد.

أما المظهر: فإنه مجموع ما يحمله الفرد من الصفات الجسمية، وما يمتلكه من الأشياء، وما يَشْغَله من وظائف، مما لا يُعَدُّ على صلة مباشرة بكينونته الذاتية.

في البداية ليس الجوهر والمظهر شيئين منفصلين انفصالاً تاماً، بل بينهما علاقة

١- تفسير القرطبي ١٨ / ١٢٤.
٢- أخرجه البخاري.
٣- ننصح بالرجوع إلى كتاب الإنسان بين الجوهر والمظهر الصادر ضمن سلسلة عالم المعرفة في الكويت وقد أفدت منه هنا في بعض ما كتبت.

تأثر وتأثير وأخذ وعطاء، وقد ورد ما يدل على هذا فقد كان النبي ﷺ يمسح مناكب أصحابه في الصلاة، ويقول: «استووا، ولا تختلفوا فتختلفَ قلوبكم»[1]. والمرء حين ينشرح صدره يظهر ذلك على مُحيّاه، ومن ثم قيل: «من كثرت صلاته بالليل ضاء وجهه في النهار»، وإذا كان بين الظاهر والباطن مثل هذا التجاذب والتلازم فإن من البدهي ألا يزهِّد الإسلام الناس في الشكل؛ فالصلاة موقف روحي بحت، ومع ذلك حرص النبي ﷺ على انتظام الصفوف فيها، والأمر قريب من ذلك في صفوف القتال، وحث الإسلام على النظافة، كما امتنَّ الله – تعالى – علينا بما نشعر به من التأنق عند غدوِّ الأنعام ورواحها، حيث قال سبحانه: ﴿ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿٦﴾ ﴾ النحل: ٦ [2]، وتلك مسألة شكلية. والأمثلة على هذا أكثر من أن تُحصى.

إذن ما هي المشكلة ؟

تكمن المشكلة في اختلال التوازن بين الجوهر والمظهر، أو بين المضمون والشكل؛ فالبشر متفقون على أن اللباب هو الأصل، وأنه ينبغي أن يُعطى من الاهتمام والعناية والبلورة القسطَ الأكبر لأن كل الإنجازات الحقيقية التي تتم على السطح نابعة أساساً من إنجازات تمت على مستوى الكينونة والجوهر، وهذا يتناسب مع حقيقة تسخير الكون الذي حبا الله – تعالى – به الإنسان؛ كيما يظل حراً طليقاً، يحكم ويأمر دون أن يُكَبَّل بشيء إلا شيئاً يصنعه بيديه!

وللمجتمع وما يقره من أعراف سلطانٌ كبير على الناس، ولما كان الحكم الاجتماعي

١-أخرجه مسلم وغيره.
٢- ومثل هذا قوله سبحانه: ﴿ وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨﴾ ﴾

منصباً على الشكل كان الانحدار نحو الاهتمام بالشكل هو الأمر الطبيعي المتبادَر إليه، أما العناية بالجوهر فيمكن أن تنمو عن طريق التربية الخاصة في الأسرة أو المدرسة، لكن ذلك سيظل ضعيف التأثير ما لم يكن المجتمع كله خاضعاً لمبادئ عليا خارجة عن إنتاجه، ولن يكون مصدر تلك المبادئ حينئذ الأرض، وإنما السماء! لكن حين يكون الدين عبارة عن بعض الرؤى الغيبية، أو الدغدغات العاطفية ـ كما هو الشأن عند بعض الملل ـ فإنه لا يصنع شيئاً في مواجهة التيارات الاجتماعية العاتية؛ لأنه لا يعدو آنذاك أن يكون عنصراً رخواً من عناصر الثقافة! وإن الدين الذي يوجِّه، ويقاوم هو الذي نُكرس حياتنا من أجله!

حين يضعف الوازع الديني لدى المسلم فإن الميزان يميل مباشرة لصالح المظهر. وبما أننا نعيش في عصر نتأثر فيه أكثر مما نؤثِّر فقد أضيف إلى ضعف الوازع الديني عند أكثر الناس الوقوع تحت تأثير الفلسفة الغربية في جوانب الحياة المختلفة، تلك الفلسفة التي شكَّلت من الإنتاج غير المحدود والحرية غير المحدودة والسعادة غير المتناهية ديناً جديداً اسمه التقدم! واقتضى ذلك توجهاً كلياً نحو الطبيعة لاستثمار كل شيء فيها! ثم استهلاكه بصورة جشعة لم يسبق لها مثيل ناسين أن موارد الطبيعة محدودة، وأن الطبيعة سوف ترد على ذلك، بل إنها بدأت بالرد فعلاً! وعلى صعيد الرمز فقد كان البطل المسيحي يستوحي شخصية الشهيد، وهو عيسى ـ عليه السلام ـ حيث وهب حياته من أجل غيره –حين صُلب– كما يزعمون ـ ثم انقلبت الأمور رأساً على عقب، حيث صار العالم الغربي يستوحي شخصية البطل الوثني، كما يتجسد في أبطال الإغريق والرومان، ذلك البطل الذي يغزو، وينتصر، ويدمر، ويسرق، وينهب... وشتان ما بين شخصية الشهيد الذي يهب

حياته من أجل غيره، وبين المقاتل الذي غايته السيطرة على الآخرين وتضخيم الحياة الشخصية!

وكانت النتيجة ولادة مجتمعات تعاني من الوحدة، والقلق، والاكتئاب، والنزوع التدميري، والخوف من المستقبل، والأنانية الشخصية، والتفكك الأسري...

تأثرنا – نحن المسلمين – بهذا كله من حيث ندري، ولا ندري، وتوجهت قوانا الفاعلة نحو الخارج، وأهملنا الجوهر، وكانت حالتنا في بعض النواحي أسوأ ممن تأثرنا بهم؛ لأن القوم صاروا إلى الشكل بعد أن حققوا ذواتهم بطريقة فعَّالة وإن كان انحراف الحضارة يحمل في النهاية بذرة موتها؛ أما نحن فقد غادرنا الجوهر لغمر أنفسنا بالشكليات! والناظر في سيرة النبي ﷺ والحياة العامة لصحابته – رضوان الله عليهم – يجد أن السيطرة كانت للكينونة الداخلية، وليس لما يمتلكه الناس من أشياء؛ لأن المحور الأساسي للحياة الاجتماعية كان الإنسان، وليس الأشياء؛ أما الآن فقد صارت (الملكية) هي المحور، ويتجلى ذلك واضحاً في أمور عديدة منها:

١ – تناقصت الألفاظ المستعملة في الدلالة على الجوهر، في حين زاد تداول الألفاظ الدالة على الأشياء، فحديث المجالس لم يعد يتمحور حول البطولات، والإنجازات، والمواقف الكريمة، والصفات الحميدة، وإنما حول العقارات، والسيارات، وأسعار السلع، وأثاث البيوت، والأرصدة المالية...

٢ – الرغبة في مزيد من الإنتاج لتحقيق مزيد من الاستهلاك جعلت اعتماد الناس على الآلة يتزايد يوماً بعد يوم، وصار الإنسان ترساً من تروسها، وصار دوره مكمِّلاً لدورها؛ ومن طبيعة هذا الشأن أن يزيد اهتمامنا بالمظاهر، ويشغلنا عن الحقائق.

٣ – كانت قيمة وجود الإنسان مستمدَّة مما يُحسن ويتقن، وصارت المعادلة

الجديدة: قيمة وجودي مستمدة من مقدار ما أملك، ومقدار ما أستهلكُ! وهذا ولَّد الخوف الدائم من ذهاب الملكية؛ لأن ذهابها ذهاب لمالكها؛ واقتضى ذلك مزيداً من الشحِّ والأَثَرَة والتقاطع...

٤ - علاقتنا بالمعرفة تبدلت؛ فقد كان حب العلم واكتساب المعرفة من أجل الفقه في الدين وتنمية الشخصية ومعرفة الحياة... وكانت العملية التعليمية عبارة عن اندماج بين العلم وطالبه، أما الآن فقد صارت علاقة طالب العلم بما يطلب علاقة تجارية بحتة، فهو يتعلم لينال الشهادة؛ وحفظه للمعلومات ظاهري ينتهي عند إفراغها على الورق في الامتحان!

٥ - السمات الأساسية للإنسان المهتم بالجوهر هي: الاستقلالية، والحرية، وحضور العقل النقدي، والاستخدام المثمر للطاقة الإنسانية، والنمو، والتدفق، لكن العلاقات الاجتماعية، والسياسية، والاقتصادية الجديدة جعلت أنشطة الإنسان عبارة عن انشغال دائم مفصول تماماً عن قواه الروحية، بل يقف ضدها، ويحدُّ من فاعليتها في كثير من الأحيان؛ مما أدى إلى الاتكالية والسأم والتذمر، وجعل الحياة تفقد طعمها الحقيقي بشكل عام!.

٦ - كان من عواقب الاتجاه إلى الشكل والتغافل عن المضمون كثرةُ اللذائذ وانعدام السعادة! واللذة إشباع الرغبة على نحو لا يتطلب نشاطاً، مثل لذة الحصول على مزيد من الربح، أو هي: تجربة لحظة من لحظات الذروة يعقبها في الغالب نوع من الكآبة، ولا سيما حين تكون غير مشروعة، حيث يبدأ التقريع الداخلي.

أما السعادة فهي: شعور مصاحب للنشاط الإنساني؛ وهي أقرب إلى أن تكون حالة من الوجود المتصل على ربوة رحبة؛ لأنها وهجٌ لكينونة الإنسان، ونشاطه

الداخلي، ويمكن القول: إن السعادة في مقياسنا الإسلامي تتعاظم كلما ردم المسلم من الفجوة القائمة بين معتقداته وسلوكياته، حيث يرضى المسلم عن أدائه، ويستشرف عاقبة المتقين.

كل هذه التحولات باتجاه الشكليات جعلت كثيراً من أمة الإسلام قوة عددية ليس غير؛ لأن الذي يفقد الصلة بمكوناته الأساسية لابد أن يصبح شكلياً. فهل تعيد الصحوة المباركة الأمر إلى نصابه بإعادة التوازن من جديد بين الشكل والمضمون، والجوهر والمظهر لنستأنف رسالتنا الحضارية ؟ هذا ما نرجوه؛ وعلى الله قصد السبيل.

في
إشراقة آية

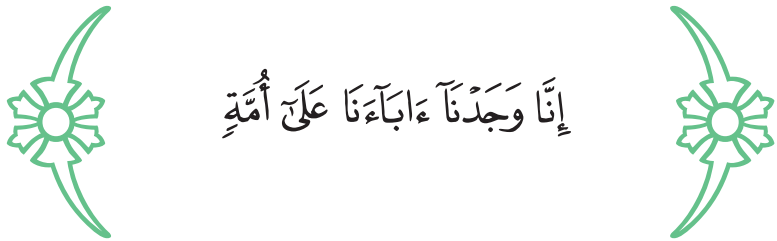

أكرم الله – سبحانه وتعالى – الخلق، فأرسل لهم الرسل تترى حتى تظل أعلام الهداية منشورة، وحتى لا يكون لأحد على الله حجة بعد إرسال الرسل. وينقسم الناس إزاء كل رسالة في العادة إلى فريقين فريق يُصدِّق، وفريق يكذِّب، وكانت حجة المكذبين الجاحدين ما حكى الله عنهم: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقۡتَدُونَ ٢٣ قَٰلَ أَوَلَوۡ جِئۡتُكُم بِأَهۡدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمۡ عَلَيۡهِ ءَابَآءَكُمۡۖ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ٢٤﴾ الزخرف:٢٣- ٢٤.

وظاهر هذه الآية أن الرؤساء والوجهاء والمترفين هم – في الغالب – الذين قاوموا دعوات الرسل؛ لأن أية رسالة ستحدث تغييراً في القيم السائدة والأحوال المعيشة، وهذا التغيير سيمسُّ مصالحهم ومكاسبهم، ومن ثَمَّ فإن موقفهم هو التأبي والمعاندة. وبما أن الحياة الجمعية لا يمكن أن تستقيم، وتنتظم من غير ضوابط عرفية تؤمِّن نوعاً من التعاون، وتَحُول دون بغي الخلطاء بعضهم على بعض كان الجواب دائماً: أن ما تقوم عليه حياتهم الاجتماعية هو ما وَرِثوه عن آبائهم وأجدادهم من الأعراف

والعادات والتقاليد، وما حياتهم إلا استمرار لحياة سلفهم الذين يفاخرون بهم، والخلف لا يكتفي عادة بالتلقي الأصمّ عن السلف، لكنه ينشئ من الفلسفات والمقولات والخرافات ما يمنح ما ورثه – من تقاليد – القداسةَ والاحترام مما يجعلها محوراً للمنظومات العقدية والفكرية والرمزية والتاريخية! وهذا كله طبيعي؛ لأنه في حالة اندراس معالم المنهج تصبح السوابق التاريخية هي المنهج، ومن ثم كان من مهمات المصلحين وضع السوابق التاريخية في إطارها الصحيح.

ماذا تعني الأَبائية ؟

ليس كل ما يرثه المرء عن آبائه وأجداده رديئاً – لأنه لا يوجد جيل مختص بالرذائل – لكن الرديء هو أن نفقد القدرة على الحكم على تلك الموروثات، ونُحلها في محلِّ القبول والاقتداء! وإذا تأملنا قضية التقاليد الموروثة وقبولها دون تبصُّر ولا تمييز وجدنا أنها تعني أموراً عديدة منها:

– إن الإنسان قادر على امتلاك منهج يُسَيِّر حياته من خلال خبرته التراثية دون مرشد خارج عن حدود ذاته، وهذا ما نجده واضحاً في جواب المتَرفين للرسل حين قالوا لهم: ﴿ أَوَلَوْ جِئْتُكُمْ بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ ﴾ الزخرف:٢٤، وكان الجواب: ﴿ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴾ الزخرف ٢٤. وفي هذا الجواب القاطع الخالي من أي تدليل أو برهان توصيف آخر للأَبائية، هو أن التقليد وإن بنى حوله بعض الفلسفات التسويغية إلا أنه يظل مع الدليل والبرهان على طرفي نقيض، فهو ظاهرة لا دليل لها سوى وجودها فحسب! ومما تعنيه الأَبائية أن البشر امتلكوا ناصية الحقيقة كاملة فيما يتعلق بشؤون حياتهم الاجتماعية؛ والشعور بامتلاك الحقيقة مع أنه غير صحيح إلا أنه يدفع إلى الجمود؛ لأن حركة الفكر والعلم لا تنشط

إلا عند الإحساس بأن هناك حقائق خافية أو مشكلات تحتاج إلى حلّ، ومن هنا كانت متابعة الآباء والأجداد من غير ميزان عبارة عن حركة إلى الوراء تصادم منطق التاريخ، وتجعل أصحابها متخلفين بكل ما تحمله هذه الكلمة من معنى! وإذا كان المنهج الحق يسعى إلى تجديد ذوات معتنقيه ونقدها واستيعاب العظات والعبر من حياة الأولين فإن الآبائية تعني تعطيل تراكم الخبرة البشرية وتقويمها؛ لأن ذلك يُخِلُّ بالمكانة التي أنزلوا آباءهم فيها!

وتعني الآبائية أيضاً إحالة العادات والأخلاق إلى إطار مرجعي لا منطقي ومتحجّر، يحكم الناس في حالات اجتماعهم، ويتيح لهم الانطلاق الحر في خلواتهم، أي: يؤسِّس الحياة على نوع من الازدواجية، على حين أن الدين يجعل الوازع الداخلي أساساً للانضباط الفردي والجماعي. إن التقليد المستمر في كل شؤون الحياة يجعل تقليد الآباء فارغاً من مضامينه في أحيان كثيرة، فإذا كان الآباء يتقلدون السيف – مثلاً – لمواجهة حيوان مفترس، فما معنى حمل الأبناء له وهم يركبون الطائرة ؟! وإن الآبائية بعد هذا أو ذاك توجِد نوعاً من الانحباس الاجتماعي المصادم لسنّة التغيير التي بثها الله – تعالى – في الكون، ومن ثَمَّ فإن الانغلاق على مواريث بالية لابد أن يعقبه انفلات غير متزن يطيح بصالح الموروثات وطالحها.

المصلحون والآبائية:

لا نبُعِد النجعة إذا قلنا: إن الآبائية هي أخطر مشكلة واجهت الأنبياء – عليهم الصلاة والسلام – وواجهت أتباعهم من المصلحين على مدار التاريخ حيث تمتلئ الساحات الاجتماعية بتركة الآباء ومخلَّفات الأجداد مما يجعلهم يحتاجون إلى تزييف الموروثات أولاً، ثم إحلال المنهج الرباني محلها. وإن حَمَلة الهدى الرباني يصطدمون

بالآبائيين صداماً مباشراً حيث يرون أن ما بأيديهم من الهدى يجعل التراث مملوكاً خاضعاً للمحاكمة على حين يرى الآبائيون أن التراث هو مالكهم والقاضي في حياتهم لا المتهم! لكن السؤال الذي يطرح نفسه هو هل بإمكان البشر الفرار من الارتهان للماضي بدون منهج منفصل عن خبرة الإنسان، أي: لا زماني؟ الواضح أن ذلك صعب؛ لأننا باعتبارٍ ما جزء من الماضي ومكوناتنا الثقافية أكثرها موروث، فنقده وتجاوزه بمبادئ وأدوات منه عسير جداً. ونحن حينئذ نشبه الجرَّاح الذي مهما كان ماهراً فإنه عاجز عن استئصال زائدته أو مرارته بنفسه! وعلى المهتمين بصلاح الأمة الغيورين على مستقبلها أن يخوضوا معركتين في آن واحد: معركة الحياة العامة وتنقيتها من الرواسب والشوائب التي تولِّدها حركة الأيام، ومعركة داخلية في مجال الحياة الفكرية، وما فيها من مشكلات التجديد والتقليد والاجتهاد وغموض حدود سلطان العقل والنقل الخ..

إن معالم المعركة الأولى تتمحور حول (مفاصل) التقاليد والسنن والتوزيع الصحيح للاهتمام بمفرادت التكاليف الشرعية، وما يتصل بها مما يحفظ كيان الأمة. وعلى هذا الصعيد نلاحظ أن المسلمين منتشرون في بقاع الأرض؛ ولذا فإنهم يعيشون في ظروف شديدة الاختلاف تؤدي إلى تفاوت عظيم في معرفتهم بالدين، كما أن الثقافات الأجنبية التي تأثروا بها مختلفة أيضاً، والمؤثرات المدرسية والمناهجية التي تعرضوا لها متفاوتة، وهذا كله يجعل إمكانات إقامة التوازن بين متطلبات الدين ومتطلبات الدنيا مختلفة، كما يجعل تحرير الخلاف وترجيح الصواب مختلفاً أيضاً! ولا ننسى في هذا السياق الآثار الكثيرة التي تتركها توجهات الحكومات المختلفة في إبراز أجزاء من الدين وضمور أجزاء أخرى بحسب المصلحة! ونستطيع القول:

إنه كلما خمدت حركة الفقه في دين الله، زحفت العادات والتقاليد، والبدع لتحل مكانه في حياة الناس، ذلك لأن من شأن البشر أن يجعلوا الدين - الذي هو منهج رباني مطلق فوق الزمان والمكان - واحداً من عناصر ثقافتهم بدل أن يكون الموجِّه لتلك الثقافة والحاكم عليها، وذلك ميسور عليهم، ولا سيما حين تكون هناك بعض الملابسات بين العادات وحقائق الدين في الكُنْهِ أو المظهر، وفي زماننا صار إنكار الناس لتعدد الزوجات في كثير من بلاد المسلمين أعظم من إنكارهم للزنا! كما أن في زماننا من يستغرب من إقبال الشباب على المساجد، لأن المساجد خُلقت لمن أكل الدهر عليهم وشرب، على ما تعودوه في عقود مضت. وفي زماننا تُسْتَنْكَرُ الفاحشة من البنات ويغضُّ الناس الطرف عنها إذا وقعت من الرجال، ولا سيما الشباب!

ويزداد الطين بلَّة حين يُسهم في هذا الخلل أشخاص تثق بهم العامة لما عندهم من العلم والتقوى، والعامة لا تقوى على مناقشة الأفكار، ولا التمييز بين الأدلة؛ مما يجعلهم تبعاً للأعلى صوتاً والأكثر تابعاً. وهذا كله يجعل مسألة تحجيم الآبائية أكثر صعوبة وتكلفة، لكن لا خيار: فإما المنهج وإما المنهج، وإلا فكيف يكون خلود الرسالة، وكيف تستمر أنوار النبوة في العالمين ؟

المعركة الثانية لا تبتعد في منطلقاتها وعقابيلها عن المعركة الأولى؛ إذ إنّ تقديس القديم لمجرد أنه قديم هو الطاقة المحركة لأبطالهما، لكن الخصوم يختلفون، فإذا كان الخصوم في معركة الحياة الاجتماعية من العامة والدهماء وأنصاف المتنورين، فهم في الثانية ممن يحمل العلم، ويحسب نفسه من المصلحين - وقد يكون كذلك - لكن بُنَى ثقافتهِ العميقة لا تختلف كثيراً عما لدى العامة!

هذه المعركة هي معركة الاجتهاد والتقليد؛ والاجتهاد هو بذل الجهد لمد سلطان

النصوص إلى كلِّ الحوادث والحالات المستجدَّة المشابهة في علة الحكم لحالات ورود النص وتطبيقاته لدى السلف، على حين أن التقليد يحجِّم من فاعلية النصوص، ويجعل مجالات الاهتداء بها تتضاءل يوماً بعد يوم، ذلك لأن أية مرحلة سابقة لا تَتَّسِع في تنظيماتها وآلياتها ومعطياتها الجزئية لمرحلة لاحقة، وهذا ما دعا الصحابة والتابعين من بعدهم إلى الاجتهاد، وهو ما يدعونا أيضاً إليه، لعل نقطة الخلاف الأساسية ليست في تجويز الاجتهاد والتقليد لشرائح محددة من الأمة، وإنما تكمُنُ في نزع (صفة دوام الصواب) عن المجتهد، ومع أن الجميع يُصَرِّحون بأن المجتهد يُخطئ، ويُصيب، إلا أننا نجد في الممارسة العملية مواقف لا تحصى لا تدلّ إلا على اعتقاد أصحابها العصمة في بعض الأئمة والمجتهدين، وذلك لاعتقادهم أن إحاطة أولئك الأئمة بالأدلة وَحِدَّة ذكائهم وفهمهم مع ما أكرمهم الله به من التوفيق، يجعل وقوع الخطأ منهم نادراً أو معدوماً! وقد رأينا كثيراً من طلاب العلم يلتزم الواحد منهم مذهباً واحداً في كل دقائقه، ويحاول الدفاع عن ذلك بكل ما أوتي من قوة، وهو يوالي ويُعادي في ذلك، ويخسر إخوة في الله، وهو يظنّ أنه يخوض معركةً لِنُصرة دين الله! وهذا يدل على جهلٍ فاضح في العملية الاجتهادية المعقَّدة، والتي تلتحم فيها عناصر أربعة، هي مجال رحب، للاختلاف بين المجتهدين، هذه العناصر هي:

الإمكانات الذهنية التي أكرمنا الله بها والنصوص والأدلة المتعلقة بالقضية موضع الاجتهاد والخلفية الثقافية للمجتهد (وهي ما كان يُسْمّى بالأهلية) بالإضافة إلى الواقعة نفسها والظروف والخلفيات المحيطة بها. وتَمَكُّنُ المجتهدين من كل ذلك متفاوت إلى حدٍّ بعيد، وهذا كله ينفي عن المجتهد دوام الصواب في كلّ ما ينظر فيه. وإن من المفيد أن ننظر إلى المجتهد بعيون أبناء زمانه حيث إنهم في الغالب يكونون

قد تخلصوا من وَهْمِ التقديس بسبب المعاصرة والمعاشرة ومعرفة الخفايا والإمكانات لبعضهم بعضاً.

إننا إذا لم نتمكن من التجديد الذاتي فسنعرِّض أنفسنا إلى غزو من الخارج، أو انحباسٍ داخلي يعقبه انفجار لا ينفع معه الترقيع! وإنّ تجاوزَنا لمعطيات مراحل عديدة في حياة المتقدمين، لنلتصق بالأدلة في إطارٍ من مقاصد الشريعة العامة أمر حيوي للغاية؛ حتى لا نقعَ ضحيةً للغرق في مراحل الانحطاط والتدهور التي مرت بها هذه الأمة في قرونها المتأخرة؛ وعلى الله قصد السبيل.

في
إشراقة آية

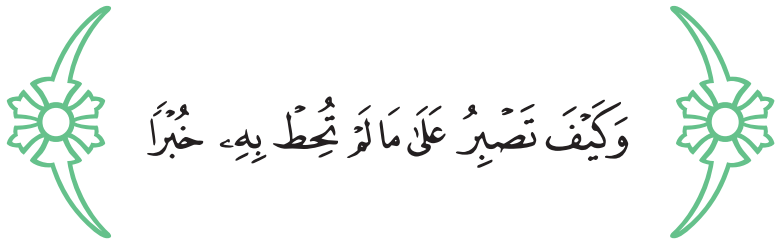

قصّ الله – تعالى– علينا في كتابه العزيز نبأ لقاء موسى بالعبد الصالح الخضر عليهما السلام، وما جرى بينهما من إخبار الخضر لموسى بعدم صبره على ما سيراه من أعماله، وتعهُّد موسى بالسمع والطاعة وعدم العجلة حتى يكون الخضر هو الذي يخبره بكنه ما يراه وعواقبه، كما تضمنت القصة عدم تمكن موسى –عليه السلام– من الصبر الذي التزم بمكابدته، وفي ثنايا هذه الواقعة عِبَرٌ ودروس عديدة نجلوها في النقاط التالية:

١– أراد الله –تعالى– أن يُعلِّم موسى وجوب تفويض ما لا يعلمه إليه؛ فقد ورد في الصحيح أن رجلاً سأل موسى على ملأٍ من بني إسرائيل: هل تعلم أحداً أعلم منك؟ قال: لا. فأوحى الله إليه: بل عبدنا خضر أعلم منك[1]. وفي هذا إرشاد لأولي النهي أن يقفوا الموقف المنهجي مما لا يعرفونه؛ فنبيُّ الله موسى كان رسولاً من أولي العزم، وهو كليم الله ومبلِّغ رسالته، ومع هذا بيَّن الله له وجوب تفويض ما لا يعلمه

١– أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء.

إليه؛ فهو لم يجتمع بكل البشر، ولم يعرف مقادير ما خصَّ الله به من شاء من عباده، وفي هذا الزمان تشعبت العلوم، وتفرعت حتى صار من العسير على الواحد منا أن يحيط بفرع من فروع المعرفة فضلاً أن يحيط بها جميعاً. وأمانة العلم تقتضي التريث بالفتوى والتحرز من التطاول على ما لا نُحسِن حتى، لا تجتاحنا الفوضى العلمية..

٢- في هذه الرحلة المباركة وقف موسى موقف المتعلم، ووقف الخضر في موقف الأستاذ، مع أنه لا خلاف في أن موسى أفضل من الخضر، وهذا يدل على أن الأفضلية العامة لا تقتضي التفوق في العلم، وهذا يحثنا على أن نرجع إلي أهل الاختصاص في اختصاصاتهم، وألا نرهق أهل الفضل بالسؤال عما لا يعرفونه، ولا يحسنونه فيسقطون من أعيننا لعدم معرفتهم، أو يسقطون ويُسقطوننا معهم إذا ما هم قالوا بغير علم! ورحم الله الإمام مالكاً حين كان يقول: (إن من شيوخي من أطلب منه الدعاء، ولا أقبل روايته).

٣- التزم موسى - عليه السلام - في البداية بالصبر على ما يراه وعدم العصيان حين قال: ﴿ قَالَ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعۡصِي لَكَ أَمۡرٗا ﴿٦٩﴾ ﴾ الكهف ٦٩. وهذا الالتزام كان بناء على ما يعرفه من نفسه من الحرص على طلب العلم، ومعرفة الخير، وكان تأكيد الخضر له أنه لن يصبر معه على ما يراه لما يعرف عنه من الحرص والالتزام بما شرع الله من حرمة الأنفس والأموال، وكانت النتيجة إنكار موسى على الخضر، كما توقع الخضر. وموقف موسى كان على النهج العام الذي ينبغي على المسلم اتباعه، وهو إنكار ما خالف الشرع، وعدم السكوت عليه ما دام ذلك ممكناً،

ولا يعكر صفو هذا خصوصية الموقف والحادثة[1].

وقد أنكر موسى على الخضر مع علمه بقدره وعلمه، لأن المنهج فوق الأشخاص أياً كانوا. وقد ابتليت هذه الأمة في تاريخها المديد بأقوام أصيبوا بداء تقديس الأشخاص وإقامة البراهين على خيرية ما يفعلونه وتسويغ ما يرتكبونه من مناكر ومخالفات قطعية التحريم لما يعتقدونه فيهم من الصلاح!. وأدى ذلك إلى غبش عظيم في الرؤية، وقد حطُّوا من قدر المنهج المعصوم على قدر ما رفعوا من شأن من يعظِّمون! وما زال ذلك مستمراً إلى يوم الناس هذا؛ والله المستعان.

٤- كان الخضر موقناً بعدم صبر موسى على ما يراه منه، وعلَّل لذلك بقوله: ﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾﴾ الكهف ٦٨. وهذا يشير إلى ظاهرة ثابتة في حياة البشر، هي عدم الصبر على رؤية أحداث وأعمال تخالف ما استقر عندهم من أعراف ومعايير، أو على بذل جهود لا يرون لها نتائج تنسجم معها، وقد وقف الصحابة - رضوان الله عليهم - موقفاً مشهوراً من شروط صلح الحديبية التي كانت في ظاهرها مخالفة لمصالح المسلمين، ولولا أن الذي ارتضى تلك الشروط هوالنبي ﷺ المؤيَّد بالوحي لكان لهم شأن آخر. لكن الله - تعالى - جعل فيها من الخير والبركة ما حمل أكثر المفسرين على القول: إن المراد بالفتح في قوله - سبحانه -: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴿١﴾﴾ الفتح :١ هو صلح الحديبية[2]. وسبب ذلك الموقف أن الصحابة ما كانوا قادرين على إبصار مآلات تلك المعاهدة ونهاياتها، واليوم نجد رغبة جامحة لدى كثير من الدعاة والعاملين في حرق

١- ورد في البخاري أن النبي - ﷺ - قال: يرحم الله موسى لو كان صبر لقصّ الله علينا من أمرهما.
٢- انظر فتح القدير.

المراحل والقفز فوق الحواجز بدافع من الصدق والإخلاص، والسبب في ذلك أنهم ما أحاطوا خُبْراً بجوانب العملية التغييرية الكبرى التي يتصدون للقيام بها، ونجد ذلك بشكل واضح لدى الشباب الذين يغلي في دمائهم حب هذا الدين والغيرة على هذه الأمة، وسبب الاستعجال عند الشباب يعود – في أكثر الأمر – إلى أن كثيراً من قادة الدعوات يوهمون الشباب بأن التمكين في الأرض وبسط سلطان الدين هو قاب قوسين أو أدنى، وذلك رغبة في كسبهم وإغرائهم بالعمل الدعوي، حتى إذا مرت السنين تلو السنين أدرك أولئك الشباب أن الطريق أطول بكثير مما قيل لهم، فيؤدي ذلك – عند أية هزة – إلى الإحباط والانزواء والسلبية أو إلى تسفيه القيادات واتهامها بالقصور وتجاوز المرحلة لها، ثم الاندفاع خلف قيادات شابة تفتقر في أكثر الأوقات إلى الحكمة والخبرة والعلم، والنتيجة في هذه الحالة معروفة! وسبب ذلك أن الشيوخ ما بصَّروا الشباب بطبيعة طريق الدعوة وتكاليفه ومشاقِّه، مع أن النصوص، الواردة في ذلك كثيرة جداً.

أما الجوانب التي لم نحط بها خُبْراً فهي عديدة، نذكر منها ما يلي:

أ- المنهج الرباني الذي نحمله، منهج مشتمل على أجزاء صلبة راسخة لا يجوز أن تتطور أو يُغضَّ الطرف عن شيء منها، وذلك كي تؤدي وظائفها في الهداية والإصلاح، وفيه أجزاء مرنة تقبل شيئاً من الموازنة لتحقيق خير الخيرين ودفع شر الشرين؛ وكل أجزاء المنهج خير، ومطلوب التحقق بها؛ لكن الظرف هو الذي يعطي الأولوية لبعضها على بعض؛ فأعمال الخير كثيرة جداً لكن الحال المعيشة ترجِّح شيئاً على شيء، فإذا كانت في المسلمين مجاعة كان مجال إطعام الطعام أولى بالبذل من مجال التنفل بالحج والعمرة، وإذا اجتاح العدوُّ بلادَ المسلمين كان تجهيز المقاتلين

أولى من بناء مسجد أو تأثيث مكتبة عامة وهكذا.. وإذا كان المريض الذي نعالجه يشكو من أمراض عديدة وجب أن نبدأ بالأخطر منها، كالنزيف مثلاً.

ب – ومما لم نحط به خُبْراً على الوجه المطلوب الواقع الذي نتحرك فيه، وهو واقع مفعَم بالمؤثرات المختلفة حيث صار من غير الممكن معالجة أية قضية من قضايانا الكبرى على أنها شأن محلي خاص، فوسائل الاتصال العجيبة المتاحة، وتشابك المصالح وتداخلها، ونفوذ الثقافة العالمية، كل أولئك يجعل ما نظنه داخلياً خاضعاً لاعتبارات دولية وإقليمية إلى جانب الاعتبارات المحلية. وفهم تلك الاعتبارات ما عاد ممكناً عن طريق التأمل والحَدْس، وإنما عن طريق الدراسات المتقَنة والصلات والعلاقات والمعايشات الداخلية.. وفهم طريقة التفكير لصانعي الخيارات والقرارات.

ج – مما لم نحط به خُبْراً الإنسان موضع الدعوة، وهذا الإنسان صار يخضع لمزيج كبير من المؤثرات الثقافية المتضادة – في كثير من الأحيان – مما يجعل تفكيره مختلفاً عن تفكيره في القرن الماضي، ومفاتيح اهتمامه أيضاً تبدلت، والطريق إلى حفز مشاعره صارت أكثر التواء، ولم يصاحب ذلك التعقيد ما يحتاجه من الفهم العميق القائم على معرفة النفس البشرية والسنن الإلهية التي تحكمها. وآية ذلك جمود خطاب كثيرين منا دون أدنى تحسين أو تحوير.

د– مما لم نحط به خُبْراً سنن الله – تعالى – في تغير المجتمعات، ذلك التغير الذي لا يتوقف أبداً، لكنه لا يخرج عن الأحكام والأنظمة الإلهية التي تسيره، وهو تغير أساسه الحركة البطيئة التي إن تسارعت لم تصل أبداً إلى حد الطفرة المناقِضة للفطرة. وبما أن عمر الإنسان قصير فهو متشوق أبداً إلى معرفة نتائج أعماله ومجهوداته قبل أن يرحل عن هذه الدنيا، لكن سنن الله – تعالى – لا تخضع للرغبات والأهواء،

ومن ثم فإن الله – تعالى – قال لنبيه: ﴿وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ ﴿٤٦﴾﴾الرعد ٤٦، وإذا كان الوقوف على مفاتيح شخصية الفرد صار معقداً، فإن الوقوف على مفاتيح شخصية المجتمع أكثر تعقيداً؛ لأن أبناءه ينتمون إلى شرائح متعددة، وكل شريحة منها تخضع لمؤثرات مغايرة، وهذا يجعل التعامل معه غاية في التعقيد!

إن الحل الوحيد لحالات الاستعجال على قطف الثمار قبل نضجها هو الإحاطة المبصرة بكل جوانب التغيير المنشود وآلياته، وإلا فإن كثيراً من الجهود سيكون جهاداً في غير عدو، بل سيكون أخطر على الدعوة من أعدائها!

إن فقه التحرك بالمنهج أشق من فقه المنهج نفسه؛ لأنه يقوم على ركائز عائمة، وتراكم الخبرة فيه ضعيف لتنوع أحواله وكثرة خصوصياته.

في
إشراقة آية

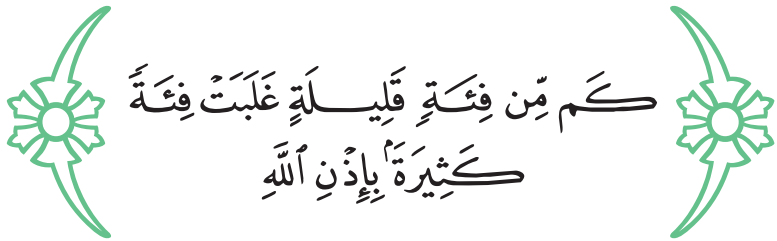

يقول الله -سبحانه وتعالى-: ﴿فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ قَالُوا۟ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٢٤٩﴾﴾ البقرة ٢٤٩، تُسلِّط الآية الكريمة الضوء على قضية مهمة في حياتنا، هي قضية (الكم والكيف)، وعلى العلاقة الجدلية بينهما؛ فحين خرج طالوت لحرب جالوت خرجت معه الألوف المؤلفة من الجند (كم) فأراد أن يعرف نوعية الرجال الذين سيقاتل بهم فابتلاهم بالشرب من النهر، فشرب منه السواد الأعظم منهم، ولم ينجح في ذلك الامتحان سوى ما يزيد قليلاً على ثلاثمائة رجل - كعدة أصحاب بدر - وكان موقف هذه القلة القليلة من جيش جالوت الموقف الذي يتناسب مع كيفهم، فقالوا: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ هذه الفئة القليلة هي الغالبة لما نالت من تأييد الله ونصره؛ بسبب استحواذها على شروط النصر.

وفي ختم الآية: ﴿وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٢٤٩﴾﴾ إشارة إلى أن هذه الفئة كانت

تتحلى- في جملة ما تتحلى به - بالصبر الضروري لمجالدة العدو، إن للكيف شأناً وأي شأن في أوقات الأزمات عامة ومصارعة الأعداء خاصة؛ حتى إن الرجل ليغالب العشرة من الرجال ﴿إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَـٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِاْئَتَيْنِ﴾ الأنفال ٦٥. وهذه الدنيا دار ابتلاء، ومن ثم فإن بني البشر محاطون بكل ما من شأنه أن يكون ابتلاءً لهم: الزمان والمكان والأشياء والأفكار والأعراض؛ و إن كل شي نتركه غفلاً على حالته الفطرية هو (كمٌّ) يتحدى، ويضايق، وقد يشوه، ويقتل!! ومن ثم فإننا نمتلك من القدرة والحرية على مقدار ما نكيِّفه من تلك الفطريات، ونحن بني البشر محدودو الطاقات والإمكانات والأعمار...، ومن ثم فإن توسعنا في الكمِّ لا بد أن يكون على حساب الكيف، كما أن التوسع في الكيف لا بد أن يكون على حساب التوسع في الكم، وهذا يوجب علينا أن نتعلم كيف نركز على الكم، وكيف نركِّز على الكيف، ومتى يكون هذا، ومتى يكون ذاك ؟ وإلا فربما ذهب كثير من جهدنا هباءً! وعلى سبيل المثال فإن الظواهر الاجتماعية تتكون على سبيل التدرج، وإذا ما استقرت، وصارت عرفاً ضغطت على الناس ضغطاً شديداً، وهي لا تعتمد في سيرورتها على الكيف، لكن على الكم، ومن ثم فإن القول السائر في صددها يكون باستمرار: الناس يعيبون هذا، والناس يحبون هذا، بقطع النظر عن نوعية القائلين، ومن هنا جاء الحديث الشريف: (من كثَّر سواد قوم فهو منهم)[1] حيث إن تكثير السواد في بعض المواقف، كالمؤتمرات والتظاهرات - مثلاً - يكون هو الهدف مهما كان القصد! وهذا يعني أن جهداً كبيراً ينبغي أن يُبذل في اتجاه جعل الدين ثقافة عامة للناس يؤصلون أعرافهم عليها؛ فلا يصبح المعروف منكراً ولا المنكر معروفاً.. وعلى صعيد الكيف

١- من حديث لابن مسعود يرفعه انظر فتح الباري ١٣/ ٣٧.

فإن باحثاً واحداً يعد مرجعاً في فرع من فروع المعرفة أجدى على التقدم العلمي من ألوف الملقنين المدرسيين. ونحوٌ من هذا الوظائفُ الإدارية والقيادية العليا، فإن موهوباً واحداً مؤهَّلاً أنفع من مئات الأشخاص (الخام) الذين يحتاجون إلى من يصرِّف أمورهم.. وفي قضايا الفكر والرأي والالتزام قد ننظر للكم تارة، وقد ننظر للكيف تارة أخرى؛ فإذا كان الحق الذي نتبعه قطعياً – أي ليس مناطاً للاجتهاد – فإن الكم مهدور حينئذ، وهذا معنى قول ابن مسعود ـ رضي الله عنه–: الجماعة أن تكون على الحق، ولو كنت وحدك. وحين يكون الحق اجتهادياً فإن الكم حينئذ معتبر، ومن هنا نشأت أهمية كلمة (جمهور) عند الفقهاء وغيرهم.

إن أمتنا اليوم لا تعاني من نقص في (الكم) على أي صعيد من الصعد، لكنها تعاني من نقص شديد في (الكيف)؛ فنحن اليوم أكثر من خمس العالم، وأراضينا واسعة شاسعة وخيراتنا كثيرة وفيرة، لكننا إلى جانب هذا في حالة معيشية مأساوية على أكثر الأصعدة، فأكثر بلدان العالم الإسلامي مصنَّفة مع البلدان الفقيرة، وكثير من شعوبنا يعيش تحت مستوى الفقر! وأعلى نسبة للأمية موجودة عندنا! أما الوزن الدولي فنحن جميعاً على الهامش موزعون ما بين شرق أوسط وأقصى وأدنى، أي أننا نُصنَّف باستمرار تبعاً لموقعنا من المركز! ومع أن الوحدة ظلت المحور الذي يجذب مشاعرنا وأدبياتنا، إلا أن حالتنا الراهنة تتجه باستمرار إلى مزيد من التمزق والتفكك، هذا مع أن العالم من حولنا يسير إلى التوحد والاندماج! أما حقوقنا وكرامتنا وأراضينا، فوضعنا ووضع العالم منها يلخِّصه المثل العربي القديم: (أوسعتهم سباً وأودوا بالإبل)!، ولا أريد أن أتمادى في (النبش) وتتبع المواجع حتى لا نقع فريسة اليأس القاتل لكن ما أريد أن أقوله هو أن وضعنا الحالي قد جاءت به

النذارة في نصوص كثيرة منها: حديث [1] القصعة المعروف، والذي وصف حالة الأمة بالغثائية، والتضاؤل على المستوى الظاهري: (غثاء كغثاء السيل)، وعلى مستوى المضمون (الوهن): (حب الدنيا وكراهية الموت)، وللغثاء سمتان أساسيتان: خفة الوزن وعدم الترابط، ويترتب عليهما نتيجةٌ مخيفة، هي فقد الاتجاه الحر، فالغثاء يساق دائماً إلى حيث يريد، وإلى حيث لا يريد؛ وفي موازين عديدة يُعَدُّ فقد الاتجاه فقداً للوجود ذاته! وهذا كله يعني أن أحوالنا الثقافية والسلوكية والاقتصادية إذا ظلَّت على ما هي عليه فلن تفرز إلا التبعية للآخرين، والتي ستفرز من جهتها باستمرار صراعات في بُنانا العميقة تؤكد الغثائية وتؤصِّلها!

كيف نحوِّل الكم إلى كيف ؟

نحن في حركتنا اليومية نقوم باستمرار بتحويل (الكم) إلى (كيف) فلا مشكلة في الممارسة العملية، لكن الإشكال يكمن في فقد التوازن بين الكم والكيف، أو بعبارة أخرى في الكم الهائل الذي لم نستطع تكييفه؛ مما يحوِّله إلى عبء ثقيل وعقبة كأداء في طريق نجاحنا؛ فالأمي والجائع والمريض والمنحرف والفوضوي والكسول، كل أولئك يشدُّون الأمة بعنف نحو الوراء، ويقفون في وجهها، وهي تخطو نحو الخلاص من الغثائية، وليس هذا فحسب بل إن هذه الهلاميات تستطيع أن تتأبى على أي قالب تشكيل تصادفه، مما يجعلها دائماً نقاط ضعف في جسم الأمة ونقاط ارتكاز ورؤوس جسور للمتربصين بها الدوائر! ويكون السؤال حينئذ: كيف نحد من نسبة هؤلاء لتكون قريبة من الطبيعية ؟ إن هناك كلاماً كثيراً يمكن أن نقوله في هذا الشأن، لكنني أود أن أشير إشارة عابرة إلى محاور أربعة، أحسبها

١-أخرجه أحمد وأبو داود.

منطلقات مهمة في هذه السبيل:

١- أن نشيع في الأمة روح التوحد على الأصول والحق القطعي، وذلك يستلزم جهوداً دائمة في بلورة ذلك؛ وأن نشيع إلى جانب ذلك روح التعاذر في الفروع والحق الاجتهادي، ونضرب للناس الأمثلة العملية التي تنير لهم السبيل، وأن نُبقي في الحالتين هامشاً للتواصل والتبشير والإنذار.

٢- أن نوسِّع في تربيتنا وحياتنا اليومية من مفاهيم العبادة لتشمل مجالات النفع العام، كالأخذ بيد أولئك الذين قعدت بهم ظروفهم وإمكاناتهم عن أن يعيشوا حياة كريمة طبيعية، (الساعي على الأرملة والمسكين كالمجاهد في سبيل الله أو القائم الليل الصائم النهار)[1] وذلك بغية التخفيف من المعاناة التي يكابدها كثيرون من أفراد الأمة.

٣- رعاية النابهين وإعطاؤهم ما يستحقونه من الاهتمام والمتابعة والبذل، والنابهون هم أولئك الذين آتاهم الله - سبحانه - من المكنة ما جعلهم محاور يدور في فلكهم الآخرون، والنابه قد يكون طالباً عبقرياً، وقد يكون وجيهاً يأتمر بأمره كثيرون، وقد يكون واحداً من ذوي رؤوس الأموال الطائلة، وقد يكون ويكون...، وهذا من باب إنزال الناس منازلهم.

٤- إقامة المؤسسات الكبرى على مختلف الصعد، وتلك المؤسسات تؤصل فينا روح الفريق، كما توفر الأطر الإدارية والفنية والعملية لأولئك الذين يملكون روح الإخلاص والعطاء. إن المؤسسات تمثل مهمة المحرك للسفينة تارة ومهمة المراسي تارة أخرى، أي: تؤمِّن حركة راشدة متزنة.

١-أخرجه الشيخان وغيرهما.

وإذا ما فعلنا ذلك أو بعضه نكون قد ساعدنا الأمة في الخروج من نفق (الغثائية الكمية) المظلم، ودفعناها نحو تبوء المكانة التي تليق بها؛ وعلى الله قصد السبيل.

في
إشراقة آية

إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا

في هذه الآية خير عظيم، إذ فيها البشارة لأهل الإيمان بأن للكرب نهاية مهما طال أمده، وأن الظلمة تحمل في أحشائها الفجر المنتظَر. وتلك الحالة من التعاقب بين الأطوار والأوضاع المختلفة تنسجم مع الأحوال النفسية والمادية لبني البشر، والتي تتأرجح بين النجاح والانكسار والإقبال والإدبار، كما تنسجم مع صنوف الابتلاء الذي هو شرعة الحياة وميسمها العام. وقد بثت هذه الآية الأمل في نفوس الصحابة- رضوان الله عليهم- حيث رأوا في تكرارها توكيداً لوعود الله - عز وجل - بتحسن الأحوال، فقال ابن مسعود: لو كان العسر في جُحْر لطلبه اليسر حتى يدخل عليه. وذكر بعض أهل اللغة أن (العسر) معرَّف بأل، و (يسراً) منكَّر، وأن العرب إذا أعادت ذكر المعرفة كانت عين الأولى، وإذا أعادت النكرة كانت الثانية غير الأولى [1]. وخرَّجوا على هذا قول ابن عباس: لن يغلب عسر يسرين[2].

١- انظر البحر المحيط ٨/٤٨٨.
٢- السابق ، وبعض المحدثين يرفعه إلى النبي؛ ﷺ.

وفي الآية إشارة بديعة إلى اجتنان الفرج في الشدة والكربة، مع أن الظاهر أن الرخاء لا يزامن الشدة، وإنما يعقبها، وذلك لتطمين ذوي العسرو البلاء وتبشيرهم بقرب انجلاء الكرب، ونحن اليوم أحوج ما نكون إلى الاستبشار بهذه الآية حيث يرى المسلمون الكثير من صنوف الإحباطات والهزائم وألوان القهر والنكد؛ مما أدى إلى سيادة روح التشاؤم واليأس، وصار الكثيرون يشعرون بانقطاع الحيلة والاستسلام للظروف والمتغيرات، وأفرز هذا الوضع مقولات يمكن أن نسميها بـ (أدبيات الطريق المسدود)! هذه الأدبيات تتمثل بالشكوى الدائبة من كل شيء: من خذلان الأصدقاء، ومن تآمر الأعداء، و من تركة الآباء والأجداد، و تصرفات الأبناء والأحفاد! وهؤلاء المأزومون يسلِّطون أشعة النقد دائماً نحو الخارج؛ فهم في ذات أنفسهم على مايرام، وغيرهم هو الذي يفعل كل ما يحدث لهم! وإذا رأوا من يتجه إلى الصيغ العملية بعيداً عن الرسم في الفراغ أطفؤوا حماسته بالقول: لن يدعوك تعمل، ولن يدعوك تربي، ولن يدعوك تمسي عملاقاً، ولن يدعوك... وكل ذلك يفضي إلى متحارجة تنطق بالصيرورة إلى العطالة والبطالة، إلى أن يأتي المهدي، فيكونوا من أنصاره أو يحدث الله – تعالى – لهم من أمرهم فَرَجاً ومخرجاً!

ولعلنا نلخص الأسباب الدافعة إلى تلك الحالة البائسة فيما يلي:

١- التربية الخاصة الأولى التي يخضع لها الفرد:

قد تقوم التربية ببث روح التشاؤم واليأس في نفس الفرد من صلاح الزمان وأهله، كما تقوم ببث نوع من العداء بينه وبين البيئة التي ينتمي إليها، فإذا ما قطع أسبابه بها وانعزل شعورياً بحث عن نوع من الانتماء الخاص إلى أسرة أو بلدة أو جماعة حتى ينفي عنه الشعور بالاغتراب. لكن يكتشف أن ما كان يعتقد فيه

المثالية، ويتشوق إلى تحقيق أماله من خلاله لا يختلف عن غيره كثيراً، مما يورثه الإحباط واليأس حيث يفقد الثقة بكل ما حوله، وتكون النتيجة البرم والتأفف من كل شيء وردود الأفعال السلبية تجاه التحديات المختلفة.

٢- التعامل مع الواقع على أنه كتلة صلدة:

يميل أكثر الناس إلى النظرة التبسيطية التي لا ترى لكل ظاهرة إلا سبباً واحداً، ولا ترى في تركيبها إلا عنصراً واحداً، وهذه النظرة الخاطئة تفضي إلى معضلة منهجية كبرى، هي عدم القدرة على تقسيم المشكلة موضع المعاناة إلى أجزاء رئيسة وأخرى ثانوية، كما تؤدي إلى عدم القدرة على إدراك علاقات السيطرة في الظاهرة الواحدة، وعدم القدرة بالتالي على تغييرها أو تبديل مواقعها، والنتيجة النهائية هي الوقوف مشدوهين أمام مشكلة متكلسة مستبهمة لا نرى لها بداية ولا نهاية، وعاقبة ذلك هي الاستسلام للضغوط وانتظار المفاجآت، مع أننا لو باشرنا العمل بالممكن اليوم لصار ما هو مستحيل اليوم ممكناً غداً.

٣- عدم الانتباه للعوامل الداخلية للمشكلة:

يندر أن نرى ظاهرة كبرى لا تخضع في وجودها واشتدادها واتجاهها لعدد من العوامل الداخلية والخارجية، ويظل العامل الخارجي محدود التأثير ما لم يستطع إزاحة أحد العوامل الداخلية والحلول محله، ونستطيع أن نطبق ذلك على أية مشكلة كبرى نواجهها اليوم، وقد أشار القرآن الكريم إلى هذه الحقيقة الباهرة حين قال: ﴿وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا﴾ آل عمران ١٢٠.

والذي يحدث أننا كثيراً ما نبصر المؤثرات الخارجية - وهي مؤثرات قوية حقاً - ونغض الطرف عن العوامل الداخلية؛ فنحن مثلاً لا نملك إقناع الأعداء بأن يخفِّفوا

من غلوائهم في عدائنا، كما لا يملك بنو البشر جميعاً أن يمنعوا الثلوج من التساقط؛ لكن الذي نستطيعه هو تقوية أنفسنا حتى لا نكون لقمة سائغة، كما يفعل الناس في مواجهة ظروف المناخ، لكن المشكلة أن أصعب أنواع المواجهات هو مواجهة الذات، كما أن أرقى أنواع الاكتشاف هو اكتشاف الذات!

٤- عدم إدراك حركة الجدل بين الأحوال:

تتعاقب الأحوال كما يتعاقب الليل والنهار، وما بعد رأس القمة إلا السفح، وما بعد السفح إلا القاع. وإن دفع أية قضية إلى حدودها القصوى سيؤدي في النهاية إلى كسر ثورتها أو إنهائها بصورة تامة. وحين تصل تجربة أو نظرية أو منهج إلى طريق مسدود فإن الناس لن يتلبثوا إلا قليلاً حتى يجدوا المخرج الذي قد يكون مناسباً، وقد لا يكون،

وهنا يأتي دور الثلاثي النّكِد من الأذكياء والعملاء والبلهاء الذين يحاولون - على اختلاف القصود - عدم وصول أي مشكلة إلى مرحلة الانفجار حتى تظل مستمرة إلى ما لا نهاية! والمشكلات في عالمنا الإسلامي لم تدم تلك القرون المتطاولة إلا نتيجة الهندسة الإخراجية لذلك الثلاثي! وهنا يأتي أيضاً دور المفكرين الذين يمتلكون رؤية نقدية شاملة ينقلون من خلالها مشكلات مجتمعاتهم إلى حسِّ الناس وأعصابهم حتى لا يتكيف الناس معها سلبياً، وحتى يتاح بالتالي تجاوزها.

﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٦﴾ وإن النصر مع الصبر وإن الفَرَج مع الكرب، وإن في رحم كل ضائقة أجنَّة انفراجها ومفتاح حلها، وإن لجميع ما نعانيه من أزمات حلولاً مناسبة إذا ما توفر لها عقل المهندس ومبضع الجراح وحرقة الوالدة.. وعلى الله قصد السبيل.

في
إشراقة آية

وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحۡوِيلًا

كان من جملة تسخير الله – تعالى – الكونَ لهذا الإنسان أن بثّ فيه سنناً تتسم بالاطراد والثبات والشمول. وهذه السنن مبثوثة في الأشياء والأنفس والمجتمعات.

وإن وجود السنن رحمة من الله – تعالى – بنا؛ إذ إننا نتمكن بسببها من اختصار كثير من الجهود التي كان علينا أن نبذلها لفهم ما حولنا والتعامل معه. ولنتصور أن قانون إحراق النار، أو قانون الجاذبية، أو قانون تغير الأوضاع إلى الأحسن أو الأسوأ تبعاً لجهد الإنسان وسلوكه لم يكن ثابتاً ولا مطَّرداً، فكيف ستكون الحال إذن ؟!

وثمة مظهر آخر للرحمة في اطراد السنن هو أن التحول في أكثر الظواهر الاجتماعية يتم ببطء؛ وعمر الإنسان قصير إذا ما قيس بعمر الحضارات؛ مما يجعله يُبصر مقدمات الحدث دون نتائجه، ونتائجه دون مقدماته وأسبابه، وحينئذ فإن من السهولة بمكان أن يصاب المرء بغبش الرؤية وضلال الأحكام، والسنة بتجسيرها للعلاقة بين الماضي والحاضر والمستقبل جعلت في إمكان المسلم أن يعرف النتائج من خلال الوقوف على الأسباب، و يعرف المقدمات من خلال رؤية نتائجها، أي جعلت

الأزمنة كتلة واحدة، وهي بهذا الاعتبار تكون قد أمَّنت للمسلم نوعاً من التواصل عبر حقب الزمان المختلفة، فالماضي لم يغادرنا حتى ترك في حاضرنا ثقافة عصرنا وصفات وراثية محددة وظروفاً تؤطر مساحات حركتنا اليوم. إن الماضي سيظل يظهر في الحاضر بصورةٍ ما، وإن الحاضر سيظل يظهر في القابل بصورةٍ ما، وإن فيزياء التقدم عبارة عن حديث الحاضر مع الماضي عن المستقبل.

السُنَّة: إلتحام بكل الأبعاد..

إذا كانت السُّنة هي الناموس العام الذي يؤمِّن الاستقرار والانسجام بين جزئيات الظاهرة الواحدة إذا ما توفرت بعض الشروط الموضوعية، فإن هذا يعني أن المسلم مأمور بعبور الماضي ليفهم حاضره، ومأمور بتجاوز الحاضر ليمد النظر نحو المستقبل؛ كيما يفقه الخطوة المناسبة. ونجد نصوصاً كثيرة في هذا الأمر، كقوله سبحانه: ﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾ ﴾ آل عمران: ١٣٧. وقوله سبحانه: ﴿ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْءَاخِرَةَ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾ ﴾ العنكبوت: ٢٠. إنها دعوة للسير في الأرض والخروج من سجن المكان المألوف لرؤية خلق الله وإبصار سننه فيه. وبما أن المكان يرث دائماً الزمان، فإننا سوف نبصر من خلال السير في الأمكنة الكثير من الأزمنة الماضية، وما خلَّفته لنا من آثار خلق الله؛ تعالى، وقد كانت هذه الأمة تحتل في يوم من الأيام مكان الصدارة بين الأمم؛ فإذا بها تبحث عن مكان في الذيل، فلا تجد! والخطوة الأولى نحو استعادة بعض ما فات تتمحور حول بحث الأسباب التاريخية التي أدت بنا إلى هذه الحالة المنكورة، وهذا يعني أن علينا أن نثابر في قراءة التاريخ المرة تلو المرة حتى نقف على جذور الواقع الذي نعيشه إذا ما كنا جادين في تغييره نحو الأحسن.

إن ظواهر كثيرة في حياتنا ستظل غير مفهومة ما لم نعد إلى جذورها العميقة الضاربة في القِدَم؛ فإذا ما نظرنا – مثلاً – في ظاهرة «ذل المسلم وخضوعه» لم نستطع أن نفهمها ما لم نعد إلى الماضي، فإذا عدنا رأينا ما يسوِّغ ذلك، فقد صُبَّ عليه من صنوف التعذيب النفسي والجسدي، ومن صنوف الإذلال والإهانة وسياسة «اسحق الذبابة بالمطرقة» ما لا يفرز إلا مسلم اليوم!

وقد كان ذلك باستمرار باسم المصلحة العامة وأمن الأمة والاستقرار العام!! لكن لا بد من القول إن انفتاح العالم بعضه على بعض حتى تحول إلى «قرية إعلامية» – كما يقولون – قد جعل فهم الواقع اليوم أكثر تعقيداً، والسبب أن جزءاً من هذا الواقع هو الذي يمكن مسُّه، أما الباقي فجذوره وخيوطه ربما كانت خارج أراضي المسلمين كلها!

لكن مهما يكن من أمر فإن السُّنة ترسم لنا المسار العام إن لم تُتْحفنا بالتفاصيل.

السنة وعلوم المستقبل:

في الغرب اليوم حركة محمومة لدراسة المستقبل، حتى صار لديهم علم اسمه «علم المستقبليات». وهم يصنفون المستقبل إلى مباشر، وهو يغطي مساحة زمنية قدرها عام، ومستقبل أقرب وهو يغطي مساحة قدرها خمسة أعوام، ومستقبل قريب يغطي مساحة قدرها عشرون عاماً، ومستقبل بعيد يمتد إلى نحو خمسين عاماً، ومستقبل أبعد يتجاوز الخمسين. وهم لخبرتهم الحسنة بالواقع يستطيعون مد البصر نحو المستقبل في المجالات التقنية والتنموية المادية بصورة خاصة. لكن لاعتقادهم أن العلم هو الذي يكيِّف سلوك البشر، وليس الدين، فإن كثيراً من توقعاتهم سوف يكون مخيِّباً للآمال.

وتاريخ البشرية هو تاريخ الرسالات والشرائع وما تحدثه من دوائر الاستجابة وردود الفعل؛ وسيظل مستغلق الفهم على من نظر إليه انطلاقاً من غير ذلك، وإذا كانت وظيفة الإنسان في الحياة هي الالتزام بشرع الله والقيام بإعمار الأرض، فإن القرآن الكريم يحدثنا أن هلاك الأمم الماضية لم يكن في أي عصر بسبب القصور العمراني، وإنما بسبب التقصير في جانب العبودية لله -تعالى- والانحراف عن منهجه. وهذا ما لا يستطيع الغربيون اليوم فهمه؛ ومن ثم فإن كثيراً من دراسات المستقبل لديهم سيظل جهاداً في غير عدو! ونستطيع القول: إن الإسلام يربي المسلم على النظر دائماً نحو الأمام؛ فهو منذ البلوغ إلى أن يلقى الله - تعالى - يرنو نحو مستقبله الأخروي - بل يجعله حَكَماً في حاضره بكل حركاته وسكناته. وهناك نصوص كثيرة تتحدث عن المستقبل، وهذه النصوص منها ما يُقدِّم الإطار العام كقوله - سبحانه -: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ الرعد: ١١. وكقوله - سبحانه -: ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ﴿١٢﴾﴾ نوح: ١٠-١٢.

ومنها ما يقدم بعض التفصيلات كإخباره ﷺ عن أن الفتنة ستأتي من قبل المشرق، وإخباره عن فشو الأمراض الغريبة في الذين تفشو فيهم الفاحشة [1] إلخ.. وقد أوجدت معرفة السنن عند السلف حسّاً خاصاً بالتعامل مع الواقع من خلال إفرازاته المستقبلية؛ فهذا أبو بكر - رضي الله عنه - يقول:

«لا تغبطوا الأحياء إلا على ما تغبطون عليه الأموات» وهذا تعبير مركَّز ينمُّ عن رؤية الأشياء ونهاياتها في لحظة واحدة! وهذا عمر - رضي الله عنه - يأتيه خبر فتح

١-انظر هذه الأخبار وكثيراً نحوها في كتاب الفتن من صحيح البخاري .

خراسان، فيقول للناس في المدينة: «لا تبدلوا، ولا تغيروا، فيستبدل الله بكم غيركم، فإني لا أخاف على هذه الأمة إلا أن تؤتى من قبلكم»[1]. وهذا هو يؤتى إليه بغنائم «جلولاء»، فيرى ياقوته وجوهره، فيبكي، فيقول له عبد الرحمن بن عوف – رضي الله عنه –: ما يُبكيك يا أمير المؤمنين وهذا موطن شكر ؟! فيقول عمر: «والله ما ذاك يُبكيني، وتالله ما أعطى الله هذا أقواماً إلا تحاسدوا وتباغضوا، ولا تحاسدوا إلا ألقى الله بأسهم بينهم»[2]! وقد كان ما خافه رحمه الله!

لماذا التعرف على السنن؟

السنن ماضية قاهرة، ونحن لا نتعلمها من أجل تغييرها أو تحييدها، وإنما من أجل الانسجام معها والعمل بمقتضاها، وتلافي الاصطدام بها. والسنن مع جبريتها لا تمنعنا من الحركة؛ إذ إن بين جبرية السنن ووسع المسلم وطوقه مساحات واسعة تصلح للتحرك والعمل ؛ فالقوانين الفيزيائية والكيميائية ثابتة، لكننا من خلال فهمها استطعنا إيجاد مئات الألوف من الصناعات الكيميائية والفيزيائية مستغلين ما بينها من خلاف وتنوع.

ومشكلتنا في هذه القضية ذات رؤوس متعددة: فهناك من هو غارق في الماضي غريب عن الحاضر، فهو يرى مقدمات الأحداث وجذورها، دون أن يرى النتائج، فهو مغترب أبداً.

ومنّا من غرق في الحاضر دون أن يعرف عن بدايات الخلق لأزماته ومشكلاته شيئاً؛ فهو يدور في حلقة مفرَغة لا يرى مخرجاً، ولا يهتدي سبيلاً، ومنّا من شهد

١- الطبري ٤/١٧٣ .
٢- السابق ٤/٣٠ .

جبرية السنن، ولم يشهد مساحات التكليف وإمكانات الحركة، فوقف عاطلاً عن العمل هاجعاً في إجازة مفتوحة، لكنه أثرى أدب الشكوى من الزمان والظروف وتواطؤ الأعداء بما لا مزيد عليه! ومنَّا من غرق في الأحلام الوردية؛ فهو لا يرى ما هو كائن لينطلق به إلى ما ينبغي أن يكون؛ فهذا شاق، ويقتضي عملاً، فوجد أن التعامل مع ما حوله على ما ينبغي أن يكون أسهل وأجمل فصار إليه! ومنا من لم يسمع بالسنن فتفكيره إلى الخرافة أقرب، وعلمه بالإرادة الكونية والإرادة الشرعية هباء، والحياة أمامه بُعْدٌ واحد، ينتهي بطريق مسدود!

واجبنا اليوم:

١ – التركيز في معارفنا العامة على الدراسات التاريخية والنفسية والتربوية والاجتماعية؛ لنتمكن من استجلاء أكبر عدد ممكن من سنن الله –تعالى– في الأنفس والمجتمعات[١].

٢– بلورة مناهج للعمل الدعوي تتناسب مع تلك السنن في أساليبها وأدواتها.

٣– تربية أبنائنا وطلابنا على التفكير السنني؛ ليحل محل الأوهام والخرافات التي عششت في أذهان كثير منهم.

٤ – محاولة القيام بتقويم سنني للأحداث الكبرى في تاريخنا والمعالم البارزة في واقعنا المعيش.

٥– القيام بدراسات علمية مستقبلية تعتمد على ما فقهناه من سنن الله –تعالى– في حركة الفرد والمجتمع.

١– للمؤلف محاولة متواضعة في هذا حيث صدر له كتاب بعنوان: هي هكذا "كيف نفهم الأشياء من حولنا".

وإذا ما فعلنا ذلك فسوف نجد الخلاص من كثير من مشكلاتنا، كما سنجد ساحات ودروباً للحركة والعطاء.

وعلى الله قصد السبيل.

في
إشراقة آية

وَقُلِ ٱعۡمَلُواْ

خلق الله تعالى الجنة داراً لتكريم أوليائه، فوفَّر فيها كل شروط التكريم، وخلق النار داراً لإهانة أعدائه، فوفَّر فيها كل شروط الإهانة، وخلق الدنيا داراً لابتلاء الفريقين، فوفَّر فيها كل شروط الابتلاء، إن هذا الدين يعلِّمنا أن كل ما يحيط بنا في دائرتي الزمان والمكان يمثل بالنسبة إلينا ضرورة تتحدانا، وعلينا أن نعيه، ونتصرف معه التصرف اللائق بالإنسان المكرَّم المبتلى.

إن كل لحظة تمر على الإنسان في هذه الحياة هي لحظة اختبار، وهي في الوقت ذاته ضرورة تتحدى، وهي (كم) يتطلب منا تكييفاً مناسباً، فإذا لم نستطع تكييف تلك اللحظة مضت تاركة وراءها قيداً على حرياتنا ووجودنا! وإن التكييف في موازين هذا الدين السمح قد يأخذ في بعض الأحيان صورة اعتبارية محضة، كما هو الشأن مع الذي يبادر إلى فراشه كيما يتمكن من حضور صلاة الفجر مع الجماعة؛ فإنه قد كيَّف كل لحظه نوم بما انطوت عليه سريرته من قصد، وعلى هذا فإن البطالة والنوم – غير المكيف – ضربان من ضروب العبودية المكبَّلة بالأغلال!

إن كل ما حولنا من فكر ومادة وضرورات هي الأخرى تنادي الإنسان المبتلى كي يتحرر من قيودها بتكييفها. إن الفكرة الصحيحة تتحدانا كي نعممها، وإن الفكرة الخاطئة تتحدانا كي نفندها ونحجمها، وإن الفكرة الغامضة تتحدانا؛ لننفذ إلى جوهرها، كما أن الفكرة القاصرة تتحدانا لنطورها، إن الأرض تتحدانا لنزرعها، فإذا قبضنا على منتوجها تحدانا هو الآخر كي نصنِّعه على الوجه الأمثل. إن نديف القطن يتحدى النساجين، فإذا ما صار قماشاً دخل في طور من التحدي جديد، فلئن كان النساجون قد تحرروا من قيود النديف فقد وقع الخياطون في ضرورة النسيج إلى أن يحيلوه ثوباً جميلاً. فإذا ما عجزت أمة عن أن تخيط نسيجها بيديها، أو تزرع أرضاً خصبة تملكها تحوَّل ذاك وهذا إلى قيود على حريتها ووجودها، وإن من القيود ما يقتل، ومنها ما يشل، ومنها ما يشوِّه... وليس انتقال الإنسان من ضرورة إلى أخرى انتكاساً أو زجاً له في دائرة مغلقة – كما قد يتوهم – فنحن إذ نتردد بين مشكلاتنا وحلولها إنما نمضي في حركة لولبية صاعدة تمنحنا المزيد من الحرية والقدرة والتأنق. إن كل سلعة مصنَّعة نستوردها هي عبارة عن ضرورة نطوق بها أعناقنا، وإن أشد المستوردات خطراً على حريتنا تلك التي تكون أكثر إلغاء للعمل عند مستوردها؛ لأن العمل هو الحرية، والذي يلغيه يلغي الحرية؛ ذلك لأن السلعة المصنَّعة كانت من قبلُ مادة غفلاً وكان في إمكاننا أن نمارس حريتنا في تصنيعها وتحويلها، وقد صودرت هذه الحرية حين قام بتشكيلها غيرنا، وقد أدركت الأمم المتقدمة هذه الحقيقة فتسابقت إلى استيراد المواد الخام، ووضعت القيود على استيراد السلع المصنعة؛ فهي لا تبادل الدول الأخرى منها إلا قدْراً بقْدر حتى تمارس حريتها كاملة؛ وترى ثمار ما عملته أيديها..

إن حرية الفرد في المجتمع على قدر عمله، فإذا ما أخذ من الآخرين أكثر مما يعطيهم فَقَد من حريته على مقدار ما يزيد لهم عنده. وإن أقسى ما يواجهه الحر الكريم أن يرى نفسه غارقاً في عطاء الآخرين دون أن يكون لديه ما يعطيهم؛ لشعوره بأن ذلك على حساب حريته، أي: على حساب وجوده! إن العمل هو طريق الخلاص، وهو طريق تحقيق الذات؛ ولكن هل كل حركة بركة، وهل كل عمل هو كسر للقيود وإعتاق للرقاب ؟

لاريب أن الأمر ليس كذلك، فالسكون في أيام الفتن – مثلاً – خير من الحركة، ورب حركة متعجِّلة قُصِد منها كسب الحرية أدت إلى الرسف في أغلال العبودية سنين طويلة، ذلك لأن العمل عبارة عن غزو الصورة للمادة، وإذا ما شُكِّلت مادةٌ ما على صورة خاطئة فإن هذا قد يعني الحرمان منها باعتبارها كماً، وباعتبارها كيفاً؛ لأن أشياء كثيرة قد لا تقبل أن تتشكل إلا مرة واحدة! إنه لا بد من توفر شرطين أساسيين في العمل الكريم، هما الصواب والإخلاص، أي القوة والأمانة، أو القدرة والإرادة، وإن كان بعض الأعمال يعتمد على أحدهما أكثر من اعتماده على الآخر؛ فأعمال الآخرة تعتمد على الإخلاص أكثر من اعتمادها على الصواب، وإن يكن الصواب أساسياً. وأعمال الدنيا تعتمد على الصواب أكثر من اعتمادها على الإخلاص، فكلما كان الإخلاص أعظم كانت المثوبة أكبر، وكلما كان الصواب أكبر كان النجاح أكبر، تلك هي سنة الله، وتقاس حيوية المجتمع بقدر ما يمور به من حركة الفكر واليد؛ وعلى هذا الصعيد فقد فجَّر الإسلام طاقات المسلم على مستوى القيم، وعلى مستوى الأداء بصورة قلَّ نظيرها في التاريخ، فشيد المسلمون في قرن من الزمان حضارة زاهرة ظلت تعطي وتقاوم عوامل الفناء نحواً من عشرة

قرون، ثم صارت المجتمعات الإسلامية، من أقل مجتمعات الأرض حراكاً وعطاء، فماالسبب الذي أفضى إلى هذه الحالة المنكورة ؟

في مقاربة أولية للوقوف على جواب هذا التساؤل الكبير، يمكن أن نقول أولاً: إن ظاهرةً كبرى كظاهرة الركود الحضاري أكبر من أن تُفسَّر بعامل واحد؛ ولكن بإمكاننا أن نسلط الضوء على عامل نحسب أنه كان على جانب كبير من التأثير في هذه الظاهرة، هذا العامل هو انخفاض مستوى الإيمان بالله – تعالى – أو انخفاض جوهر ذلك الإيمان، أعني (الصلة بالله تعالى). حقاً لقد ظلت قيمة الإيمان في أعلى السُّلم القيمي للمسلمين، ولكن ذلك وحده غير كافٍ لإطلاق الطاقات وتوجيهها نحو بؤرة محددة ما لم تتوفر شروط موضوعية في الإيمان نفسه، وفي البيئة التي يعمل فيها.

وإنما كان ذلك هو السبب في تصورنا، لأن العلاقات تتمحور داخل بنية الثقافة الإسلامية حول ثلاثة أقطاب هي: الله – سبحانه –، الإنسان، الطبيعة، وإذا أردنا تكثيف هذه العلاقات حول قطبين اثنين لكانا: (الله / الإنسان).

وأما الطبيعة فإنها هامشية نسبياً حيث إن وظيفتها تتركز في كونها إحدى الدلائل على وجود الله، وكونها مجالاً للابتلاء؛ فالمسلم يكتشفها ويعمرها امتثالاً لأمر الله ـ تعالى ـ وهذا على خلاف ما هو مستقر في العقل اليوناني الأوربي الذي تتمحور العلاقات فيه على (الإنسان والطبيعة). أما فكرة (الإله) فيه فهي عون على كشف الطبيعة، أي إنها تقوم بالوظيفة نفسها التي تقوم بها الطبيعة في الثقافة الإسلامية، ومن هنا فإن تعامل المسلم مع الطبيعة ليس مباشراً، ونظرته إليها معيارية قيمية؛ فعلى مقدار ما يتوهج الإيمان في صدره يكون تفاعله مع الطبيعة، ويكون عطاؤه الحضاري، فإذا ما خبا الإيمان في صدره – لسبب من الأسباب – انحبس جهده في

البناء الحضاري، أو فتر، وليس كذلك الشأن عند أهل الحضارة المادية. ولا يكفي أن يتوهج الإيمان في صدور أفراد قليلين في المجتمع الإسلامي لاستئناف مسيرة الحضارة الإسلامية؛ لأن الحضارة ظاهرة اجتماعيه، لا ظاهرة فردية، ونلمح هذا المعنى شائعاً في الخطاب القرآني كله؛ فكثيراً ما تفتتح آيات الأوامر والنواهي بـ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ وكثيراً ما تُختَتَم بـ ﴿إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴾ ﴿لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ﴾؛ تذكيراً بأن الايمان المتألق هو الذي يُطلق طاقات المسلم، ويفعِّل القيم لديه، ولم تشذ الآية الكريمة التي نحن بصددها عن هذا النسق حيث يقول سبحانه: ﴿ وَقُلِ ٱعۡمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمۡ وَرَسُولُهُۥ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴾ فقد ربطت العمل برؤية الله ـ تعالى ـ لهذا العمل ومجازاته عليه في الآخرة.

وقد أدى الضعف في فاعلية المسلم وحركته اليومية إلى وجود خلل كبير في حياة المسلمين، فصارت بلادهم أفقر بلاد الله، كما أن نظامهم الرمزي الذي كان في يوم من الأيام أغنى نظم العالم بالأبطال العظام صار اليوم مجدباً على مستوى الكم والكيف! ولم يقتصر الأمر على هذا، بل إن الأزمة على صعيد الفعل أدت إلى وجود أزمة خطيرة على صعيد (الفكر)؛ ذلك لأن العقل عقلان على حد تعبير (لالاند) عقل فاعل وعقل سائد. أما العقل الفاعل فهو النشاط الذهني الذي يقوم به الفكر حين البحث والدراسة، وهو الذي يصوغ المفاهيم ويقرر المبادئ. وأما العقل السائد فهو مجموع القواعد والمبادئ التي نستخدمها في استدلالاتنا؛ فليس العقل السائد شيئاً غير الثقافة. والعقل الفاعل أشبه شيء بالرحى، والعقل السائد أشبه شيء بالقمح يُلقى فيها؛ وماذا تصنع رحى لا قمح فيها ؟! ومن أين ستأتي الثقافة لأمة لا تحرك يداً ؟ ولا تبني نموذجاً إلا في نطاق الضرورات ؟ إن كل انحباس

في حركة اليد سيؤدي الى انحباس في حركة الفكر، وكل انخفاض في وتيرة الإيمان سيؤدي – لدى المسلم – إلى انخفاض في تردد اليد. فهل كتبنا الحرف الأول في أبجدية البداية؟

في
إشراقة آية

فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ

طالما وقفت خاشعاً في محراب هذه الآية، وطالما غمرني ضياؤها بأشعته الهادية حيث أودع الرحمن ﷻ في كلمات قليلة من المعاني الكريمة الفياضة ما يمدنا بالمفاهيم النيرة كلما اتسعت مساحات الوعي لدينا، وكلما تعاظم رصيدنا من التجارب.

وسأقف مع القارئ الكريم وقفات عدة في إشراقة هذه الآية لنغرف من معينها النمير:

الوقفة الأولى:

تمثل هذه الآية مظهراً من مظاهر رحمة الله ـ تعالى ـ بعباده حين رضي منهم أن يطيعوه على قدر طوقهم وقدرتهم؛ وهذا الأمر أحد أهم الأسس التي يقوم عليها التشريع الإسلامي، وهو في الوقت ذاته أحد دعائم خلود الشريعة الغراء؛ إذ إن تعاقب الأيام والليالي يأتي بما لا يُحصى من الظروف والأحوال، وحينئذ فإن قدرات الناس على القيام بأمر الله تتفاوت تفاوتاً كبيراً، خاصة تلك الأحداث التي لا يجد المفتي

حكماً تفصيلياً يغطيها، وتأتي هذه الآية لتمثل المنطلق الرحب والناموس الأعلى الذي يحكم فقه الضرورات، وفقه ارتكاب أخف الضررين ودفع شر الشَّرين، وتُشعر هذه الآية الكريمة المسلمَ الذي وقع في ظروف حرجة ضاغطة بالطمأنينة من الوقوع في الإثم ما دام قد اتقى الله ما استطاع، كما أنها تستنهضه لمقاومة الظرف الطارئ، وبذل الوسع في الاقتراب من المركز أكثر فأكثر،وهو إذ يفعل كل ذلك يشعر برقيب ذاتي، منبعُهُ خشية الله؛ سبحانه وتعالى.

الوقفة الثانية:

إن دوائر الاستطاعة تتسع على صعيدي القيم والعمل كلما استطاعت الأمة أن ترقى صُعُداً في سلم الحضارة. أما على صعيد القيم فإن التقدم المادي والتقني يهيئ الظروف المناسبة لنشر القيم وحملها، وإذا أخذنا قيمة (الحرية) باعتبارها واحدة من أخطر القيم المتفق عليها بشكل عام لوجدنا أن هذه القيمة ليست حالة يتصف بها الفرد، أو دعوى يطلقها، وإنما هي عمليةُ مواكَبة للإمكانات التي يحصل عليها؛ فإذا ما امتلك الواحد منا ثروة كبيرة من المفردات اللغوية وجد نفسه حراً في اختيار الألفاظ والأساليب المتعددة التي تمكِّنه من نقل المعلومة التي يريد إيصالها لمخاطبيه مهما تفاوتت مستوياتهم الثقافية. ومن توفرت في بلاده فرص كبير للعمل بشروط ميسَّرة وجد نفسه قادراً على رفض ما يمكن أن يتعرض له من ظلم أو حيف من أرباب العمل، وعلى رفض ما يعدُّه مهنة شاقة أو غير مناسبة، وهو بذلك يجد أمامه مجالات واسعة للحركة وقدراً أكبر من الخيارات المريحة، وقد عبَّر العرب قديماً عن هذه الحالة بمثل شائع حين قالوا: (من أخفض تخيّر).

في المقابل كيف يمكن لمن بحث عن فرصة للعمل سنوات عدة حتى عثر عليها أن يتصرف كما تصرف الأول، وأن يشعر بأنه قادر على أن يكون حراً يأبى الظلم ويعيش بعيداً عن القسر والقهر ؟

وأما على الصعيد العملي فإن كثيراً من المخترعات أعطت جوارح الإنسان نوعاً من الامتداد في سلطانها وقدراتها؛ فالآلة مدت في سلطان اليد والطائرة في سلطان الرجل والهاتف في سلطان السمع و(الرائي) في سلطان العين والأذن وهكذا..

ويترتب على اتساع دوائر الاستطاعة تعاظم المسؤولية ووجود إمكانات جديدة للمزيد من التقوى، وبهذا الاعتبار فإن العمل لتحسين المناخ العام الذي يعيش فيه المسلم عبادة لله ـ تعالى ـ يهيِّئ الناس لمزيد من الطاعات والعبادات، وإذا ما حدث خلل في الارتباط بين الاستطاعة والتقوى، فإن ذلك يعني نوعاً من البغي الممقوت الذي يخل بالتوازنات العميقة للفرد، كما يستنزل له المحن والعقوبات.

وقد أشار النبي ﷺ إلى عقوبة شيء من ذلك الخلل حين ذكر الملك الكذاب في جملة من لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكيهم، ولا ينظر إليهم: إذ إن السلطان ذو قدرات كبيرة فإذا لم يواكبها الصدق أحدث من الضرر ما لا تنفع معه رقابة الرقباء، ولذلك استحق العقوبة التي تتناسب مع فعله.

الوقفة الثالثة:

لكلٍ منا طاقات محدودة، ولكلٍ منا طموحاته وأهدافه التي يرمي إلى تحقيقها في هذه الحياة قبل أن يرحل، وتنتهي الإمكانات والطموحات؛ ومهما كانت قدرات الإنسان كبيرة فهي محدودة، ونشاهد في كثير من الأحيان أن طموحاتنا أكبر من

طاقاتنا، وكثير منّا يصابون حينذاك بالعجز والإحباط، ويؤدي بهم هذا إلى البقاء في إجازة مفتوحة! وهذا مع علمنا أن التكليف على قدر الوسع، ولو أننا باشرنا ما هو ممكن اليوم لصار ما هو مستحيل اليوم ممكناً غداً، ولنوضح هذا بمثال صغير، فلو أننا عمدنا إلى طفل في الخامسة من عمره لم يدخل المدرسة، وطلبنا منه كتابة اسمه لوجد أن ذلك بالنسبة إليه مستحيل، فإذا علَّمناه كتابة حروف اسمه حرفاً حرفاً، ثم علَّمناه الوصل بينها لوجد أن ما كان مستحيلاً قبل ساعة صار الآن ممكناً وهكذا... ونحن في كثير من الأحيان نطوف في المجلس الواحد في أنحاء العالم الإسلامي متألمين لما يحدث للمسلمين، وشاكين من التآمر عليهم، ثم ينفضّ المجلس عن نحو ما انعقد عليه دون أن يستفيد مسلم من شيء مما قلناه، وذلك لأننا لم نباشر الممكن، وإنما أذهبنا أوقاتنا في الحديث عن أمور لا حول لنا، ولا طول في التأثير فيها، ولو أننا تحدثنا بما يُصلِح أمراً من أمور الحي أو في كيفية جعل فلان من الناس يرتاد المسجد لكان ذلك أنفع للمسلمين، وأبرأ للذمة من شيء مشغولة به.

الوقفة الرابعة:

إن النبي ﷺ تركنا على المحجة البيضاء، ووقع التكليف من الله -تعالى- باتباع ذلك المنهج والتزامه على قدر الوسع والطاقة، وهذا التكليف سنة الله -تعالى- في الأنبياء -عليهم السلام- وسنة أممهم؛ فقد مكث نوح -عليه السلام- يدعو قومه ألف سنة إلا خمسين، وكانت حصيلته في ذلك ما ذكره الله ـ تعالى ـ بقوله ﴿وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ هود:٤٠ نعم إنهم قليل حملتهم سفينة واحدة، ومع ذلك فإن نوحاً ظل رسولاً من أولي العزم الأبرار، ذلك لأن المنزلة على مقدار الجهد الموافق للمنهج

المنزَّل، وليس على مقدار ما يتحقق من نجاح وفلاح، ولكن الذي يحدث في بعض الأحيان أننا نضع أهدافاً معيَّنة نريد الوصول إليها عاجلاً، ولو كانت هذه الأهداف تستدعي الضغط على المنهج أو القفز عليه أو الانحراف عنه، وحين يحدث ذلك تفقد الدعوة انسجامها الذاتي كما تهتز الفلسفة النظرية التي تستند إليها؛ وربما أدى ذلك إلى استعمال وسائل غير مشروعة، ولا يعني هذا أن نعفي أنفسنا من عمليات المراجعة، بل يعني أن المراجعة المطلوبة هي التأكد من موافقة أساليبنا ووسائلنا للمنهج الرباني الذي تعبَّدنا الله تعالى باتباعه والحركة على هديه بالإضافة إلى مراجهة الفاعلية التي صاحبت استخدام تلك الأساليب والوسائل.

في
إشراقة آية

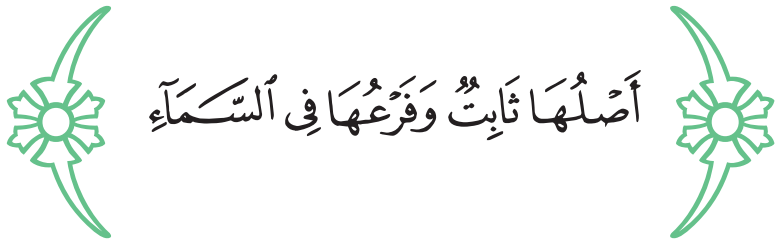

سيظل للكلمة أثرها الفعال في تغيير أفكار الناس وأمزجتهم ومشاعرهم وواقعهم، وذلك إذا استوفت شروطاً معينة. وليس أدل على رفعة مكانة الكلمة في حياة البشر من أن الأنبياء- عليهم الصلاة والسلام -كانوا يجيدون استخدامها في التعبير عن الحقائق الراسخة، والربط بينها وبين واقع البشر ورصيد الفطرة المتبقي لديهم، فهذا نوح -عليه السلام - يجادل قومه باستفاضة، حتى ضجَّ قومه من ذلك حين قالوا: ﴿ قَالُواْ يَٰنُوحُ قَدۡ جَٰدَلۡتَنَا فَأَكۡثَرۡتَ جِدَالَنَا ﴾ هود:٣٢، وهذا إبراهيم - عليه السلام- يُكرِّمه الله ـ تعالى ـ فيهبه من قوة الحجة ما يفحم به قومه: ﴿ وَتِلۡكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيۡنَٰهَآ إِبۡرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦۚ نَرۡفَعُ دَرَجَٰتٖ مَّن نَّشَآءُۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٞ ﴾ الأنعام: ٨٣. وهذا موسى -عليه السلام- يقول: ﴿ وَٱحۡلُلۡ عُقۡدَةٗ مِّن لِّسَانِي ٢٧ يَفۡقَهُواْ قَوۡلِي ٢٨ ﴾ طه: ٢٧، ٢٨، ثم يطلب من الله ـ تعالى ـ أن يتفضل عليه بإشراك هارون معه في التبليغ لفصاحة لسانه حين يقول: ﴿ وَأَخِي هَٰرُونُ هُوَ أَفۡصَحُ مِنِّي لِسَانٗا فَأَرۡسِلۡهُ مَعِيَ رِدۡءٗا يُصَدِّقُنِيٓۖ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ٣٤ ﴾ القصص: ٣٤. والله ـ تعالى- يقول لخاتم

أنبيائه: ﴿وَقُل لَّهُمۡ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ قَوۡلَۢا بَلِيغٗا ٦٣﴾ النساء:٦٣. وكل هذا قبس مما نسبه الباري -جلَّ وعلا- لنفسه حين قال: ﴿قُلۡ فَلِلَّهِ ٱلۡحُجَّةُ ٱلۡبَٰلِغَةُۖ فَلَوۡ شَآءَ لَهَدَىٰكُمۡ أَجۡمَعِينَ ١٤٩﴾ الأنعام:١٤٩ وحجج النبيين ومضامين خطابهم للخلق-في الأصول - واحدة أو تكاد، مما يجعل جذور الكلمة الطيبة ضاربة في أعماق الزمن من لدن نوح -عليه السلام- إلى خاتمهم محمد ﷺ، وهذا يجعل حركة التاريخ كلها في سياقٍ عامٍ واحدٍ، هو: التأكيد على أهمية الكلمة الطيبة في إنقاذ البشرية من الضلالة.

نحن في كثير من الأحيان نستخفُّ بقيمة الكلمة، ومع أهمية العمل إلا أن لكلٍ منهما مجاله الذي لا يصلح فيه غيره، وفى تاريخنا الإسلامي أمثلة كثيرة جداً غيَّرت فيها الكلمة مسار شخص أو مدينة، بل قارَّة، ومما يذكرونه في هذا الصدد أن وفداً من بعض بلاد أفريقية قدم إلى الحجاز حاجّاً، فالتقى بالإمام مالك ابن أنس صاحب المذهب؛ فأثنى مالك على والي ذلك البلد خيراً، وتمنى لو رُزِقت المدينة مثله في عدله وصلاحه، فبلغ ثناؤه والي ذلك البلد الإفريقي، فأمر بتدريس كتب مالك في بلده، وأدى ذلك إلى انتشار المذهب المالكي في أرجاء أفريقية!. وما أظن أن ما حدث كان يخطر للإمام على بال! وقد تُغني الكلمة الواحدة غناء جيش أو جيوش، كما حدث في غزوة الأحزاب حين أسلم نعيم بن مسعود، واستخدم عدم علم المشركين بذلك في تبديد الثقة بين قريش واليهود على ما هو مشهور. وقد أدركت الشركات والمؤسسات التجارية قيمة الكلمة في التأثير على المشتري ودفعه إلى شراء ما لا يحتاج له، حتى قال أحدهم: لو كان لى عشرة دولارات لتاجرت بواحدٍ وأنفقت التسعة الباقية في الدعاية لما أتَّجر به.

وإذا أردت أن تشلَّ فاعلية شخصٍ ما، فيكفى أن تقنعه: أن عمله غير ذي فائدة.

والآية التي نحن بصددها زاخرة بالمعاني والصور التي تجعل الكلمة في أرقى حال جمالاً وكمالاً ونفعاً. ولنقرأ الآية وما تلاها لنقتبس شيئاً من نورها، قال الله ﷻ: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾ إبراهيم: ٢٤-٢٥، لقد شبَّه الباري -عز اسمه - الكلمة الطيبة بشجرة طيبة، وهذه الشجرة الطيبة تتصف بثلاث صفات أساسية: ثبات أصلها وعمق جذورها، ثم ذهاب فروعها وأفنانها في السماء، ثم نفعها الدائم للخلق باستمرار أكلها وثمارها. وهذا تفصيل للقول في تنزيل هذه الصفات على الكلمة الطيبة:

١ - ثبات الأصول:

حين نعرف أن أصول دعوات الأنبياء -عليهم السلام- واحدة، تركزت في الدعوة إلى التوحيد الخالص وعبادة الله تعالى وإقامة الحق والعدل في الأرض وإعمارها بما يسمح بإقامة مجتمع التوحيد؛ ندرك أي جذور ضاربة تمتلكها الكلمة الطيبة على اتساع أمداء الزمان والمكان، وندرك أي رصيد من المنطق العام الذي بناه الأنبياء تستند إليه، وأي رصيد ضخم من الفطرة يؤازرها في عملية البلاغ المبين، وقد أخرج البخاري عن أبي هريرة - رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: ((أنا أولى الناس بعيسى ابن مريم في الدنيا والآخرة، والأنبياء إخوة لعلّات، أمهاتهم شتى ودينهم واحد)). قال ابن حجر: ومعنى الحديث أن أصل

دينهم واحد، وهو التوحيد وإن اختلفت فروع الشرائع[1]، فالكلمة الطيبة إرث موروث متصل بالأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- ولكن المشكلة أن التفريق بين الأصول والفروع قد لا يتهيأ لكل الناس مما يجعل الخلط بينهما وارداً، وحينئذ فقد يجمد ما ينبغي أن يتطور، وقد يتطور ما ينبغي أن يثبت، واليوم نتيجة لعلميات الضغط الفكري التي تمارسها التيارات المادية، نجد أن كثيراً من الكتَّاب والمفكرين الذين لهم صبغة إسلامية بدؤوا يتزحزحون عن كثير من مواقعهم، مصطحبين معهم أفكاراً أو أحكاماً، عليها الإجماع، أو السواد الأعظم من علماء المسلمين، بل بعض الأصول التي ليست موضع نزاع، ويحضرني هنا ما كتبه أحد الذين لهم نَفَس إسلامي عن لقائه مع بعض القُسُس الذين يعيشون في أحد بلدان العالم الإسلامي، حيث أثنوا على كتاباته، وسألوه عن الوضع الذي ينبغي أن يكونوا عليه وهم يعيشون بين المسلمين ؟ وقد أجابهم بقوله: أول ما نطلبه من النصراني الذي يعيش بيننا أن يتمسك بنصرانيته...! وهذا المطلب عجيب غريب، وهو غني عن كل تعليق. فهل يصح لهذا و أضرابه أن يدعي أنه يكمل مهمة نبيه ﷺ في تبليغ الرسالة وهداية الخلق ؟!.

وقريب من هذا الفتاوى التي صفّق لها كثيراً الذين في قلوبهم مرض، من أمثال: إباحة الربا الذي تتعامل به البنوك اليوم، ومن مثل: القول بعدم وجود حد للردة في الشريعة.... الخ. وإذا استمر هذا النهج على ما هو عليه اليوم فسنجد أنفسنا أمام دين يقبل كل إضافة، كما يقبل أي حذف، ويصبح قابلاً للتشكيل على ما يشتهي أهل الأهواء والشهوات، لأنه صار شيئاً ليس بذي طعم

١- فتح الباري ٦/٤٨٩

ولا لون ولا رائحة... ولكن ذلك لن يكون -بإذن الله- مادام هناك من ينشط في توضيحه والذود عن حياضه.

٢ - مرونة الأساليب وتنوعها:

على مقدار ما تكون جذور الكلمة الطيبة وأصولها راسخة ثابتة تكون أساليبها مرنة نامية منوَّعة، وهذا في حد ذاته أحد مقتضيات ثبات الأصول؛ فأحوال البشر وأفهامهم مختلفة، ولذلك تعدد الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- وتنوعت شرائعهم، وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡ﴾ إبراهيم: ١٤، فالرسول يُكلِّم الناس بلغتهم التي يتكلمون بها على أوسع ما تحمله هذه الكلمة من دلالات، والهدف هو: أن يبين لهم ما يدعو إليه، وقد أخذ الأسلوب القرآني من العرب كل مأخذٍ، وتحداهم، وطاولهم في التحدي، وأقام عليهم الحجج الدامغة التي تناسب أوضاعهم الفكرية آنذاك. اللغة في أبسط تعريفاتها هي: مجموعة الإمكانات التعبيرية السائدة في بيئة من البيئات، وهذه الإمكانات التعبيرية تتسع باتساع حضارة اللاغين بها، واتساع غنى الخلفيات الثقافية لديهم، وهذه الإمكانات دائمة التغير والتشكل، وتمر بعين الأطوار التي يمر بها الكائن الحي من الولادة إلى الموت وما بينهما من مراحل، ولغتنا الفصحى تنمو ضمن أطر صارمة، فالفاعل لن يتطور ليصبح مجروراً، والمضاف إليه لن يتطور ليكون مرفوعاً، ولكن بين تلك الأطر مساحات واسعة شاسعة تتحرك فيها اللغة على مستوى التراكيب والدلالات والأصوات، وتلك الحركة تساير وتناغم شلالات ثقافة الأمة في تنوعها ودرجة عنفها.

لغة العصر:

من سمات حركة التاريخ أن دور العبادة تظل كهوفاً لنوعٍ أو لأنواع من العلم مهما ساءت أحوال الأمة الثقافية، وعلى امتداد تاريخنا الإسلامي كان علماء الشرع يشكّلون السواد الأعظم من الكتّاب والباحثين والمفكرين، مما جعل اللغة التي يتكلم بها الصفوة من الناس هي عين اللغة التي يتحدث بها الدعاة، لأنهم هم الذين شكّلوها، وعلى ألسنتهم تطورت ونمت... ولكن الزمان قد اختلف، حيث إن اللغة التي تتكلم بها النخبة اليوم تكونت من جهد ثقافي متنوع فأجهزة الإعلام والجرائد والمجلات والقصص والروايات والكتب التي صنفها باحثون تنوعت ثقافاتهم على مستوى المضامين والأساليب أسهمت في تلك اللغة، وبفعل وسائل الاتصالات الحديثة صار العالم بمثابة قرية صغيرة تكثفت فيها الآراء والاتجاهات والثقافات...

وقد أصبح في هذا تحدٍ عظيم لكل من يريد مخاطبة الناس والتأثير فيهم، إذ إنَّ الخلفية الثقافية للمخاطبين صارت أكثر تعقيداً بسبب ثراء الساحة الثقافية وتنوعها، مما أسفر عن وجود حواجز كثيرة، على الكلمة أن تتجاوزها قبل الاستقرار في الذهن أو العاطفة، كما صار التزام الدقة في أداء الكلمة شرطاً أساسياً للحيلولة دون وقوع الإساءة في فهمها،كما صار اختيار العبارات المناسبة للحقيقة التي يُراد إيصالها للمخاطب أمراً ضرورياً جداً، فإذا كانت الحقيقة التي نريد توصيلها أدبية أو حضارية، فإن العبارة القادرة على اختراق الحجب هي التي تحمل في تركيبها قابلية تعدد المعاني عند مختلف الدارسين، بحيث يكون لكل منهم فيها حظه من التفسير و التأويل، بشرط أن يكون ذلك ضمن طاقة التركيب اللغوي الذي بين يديه. أما الحقيقة العلمية و الكونية والعقدية و الفقهية، فينبغي أن تصاغ بعبارة غاية في الدقة

لا تدع مجالاً إلا لمعنى واحد، كما أن ذلك المعنى لا يجد دقة صياغته إلا في تلك العبارة، فإذا لم يراع المتحدث أو الكاتب هذا أحدثت عباراته للناس فتناً، وأوقعته في الريبة مع سلامة قصده، وفتحت عليه من نوافذ النقد ما لا قِبل له به.

من خصائص لغة العصر:

يتمخض عن تلاطم الأفكار والثقافات المختلفة قناعات ومفاهيم في أذهان السواد الأعظم من الناس، وهذه المفاهيم قد تكون صحيحة، وقد لا تكون، لأنها لا ترتكز في أكثر الأمر على حقائق موضوعية بقدر ما تنبع من قوة الفعَّاليات على الساحات الثقافية والفكرية، وهذه القناعات تشكل مفردات التركيب الذهني لدى الناس، مما يجعل امتصاصهم للمعلومات التي يطلعون عليها ذا سمات خاصة تنسجم مع ذلك التركيب، وحينئذ فإن الداعية مطالب بمعرفة تلك القناعات والمفاهيم، كما أنه مطالب بتحسس التركيب الذهني السائد في عصره حتى يخاطب الناس بلسانهم، ومن تلك السمات:

أ- اعتماد الإحصاء عوضاً عن الفلسفة:

كانت الفلسفة تسمى ملكة العلوم، وذلك بسبب تأثير منهج أرسطو في منحنيات الفكر البشري ومساراته، وقد كان الناس إلى عهد قريب يسمون من أوتي فيهم مقدرة خاصة على التعبير بـ (الفيلسوف)، بل إن بلداً مثل بريطانيا مازال يستخدم كلمة (فلسفة) في شهادات التخصصات العليا لديه. وقد تأثر الفكر الإسلامي قديماً بالمنطق الأرسطاليسي، وتسربت مقولاته وأقيسته إلى كثير من كتب الأصول والفقه والعربية، بل العقيدة، ذلك الفكر الذي لا يقيم للتجربة أدنى وزن، ومن الطرائف المتناقلة في هذا أن أرسطو كان يزعم أن أسنان الرجل أكثر من أسنان المرأة! ولو أن

زوجته فتحت فمها وعدَّ أسنانها لعرف أن زعمه حديث خرافة.. وقد أدركت أوربة في أوائل عصر نهضتها أن لا نهضة ولا تقدم قبل نبذ الفكر الأرسطي القياسي، ثم الاتجاه إلى التجريب لتتويجه ملكاً على العلوم المادية، ومن ذلك اليوم بدأت قناعات الناس تنحو منحى لغة الرقم لاستفتائها والبناء عليها، وهذه نقطة إيجابية إذا أحسنّا التعامل معها، ولكن كثيرين منَّا مازالوا غير واعين بهذه الحقيقة، مما يجعلهم يستمرون في سوق الحجج العقلية مع توفر أرقام واقعية تدعم قولهم، وتؤيده، وعلى سبيل المثال فإن تقديم نماذج واقعية ذات أرقام محدَّدة على ما يمكن أن ينتج من الأمن والرخاء نتيجة تطبيق الحدود والنظام الاقتصادي الإسلامي أجدى وأنجع بكثير من سرد مجلدات من العلل والحجج العقلية التي تشرح فوائد الالتزام بالإسلام، أو تلك التي توضِّح سلبيات الربا وتطبيق القوانين الوضعية.

ومن المفيد هنا أن نقول: إن أرسطو أنشأ فن الجدل ليسد الثغرات التي يتركها الاستقراء الناقص للأحداث والأفكار؛ كما أُنشئتْ فلسفةُ التاريخ فيما بعد لتسد النقص في التفاصيل التاريخية، أما اليوم فقد أضحى الإحصاء أحد أهم السمات البارزة لعصرنا، مما يسهِّل استخدامه حتى نخفف من الجدل والمماحكات اللفظية العقيمة.

ب- رفض التعميم:

قد تعقدت الحياة، وكثرت التفاصيل فيها إلى درجة جعلت تعميم الأحكام في أكثر الأحيان أمراً بعيداً عن الحقيقة؛ وصار التعميم في لغتنا أحد أهم الثغرات التي ينفذ منها الخصم لهدم ما نقوله، وتمييع القضايا التي نعرِضها. على أن التعميم مرفوض في المنهج الإسلامي بصورة عامة، ومن ثم كثرت الآيات الكريمةالتي ترد فيها

كلمة (أكثر)، وكلمة (كثير) بمعنى أكثر، كما أن في السنة ما ينسجم مع هذا من مثل قوله ﷺ: (إن أعظم الناس فرية لرجلٌ هاجى رجلاً فهجا القبيلة بأسرها)[1].

والمحدِّثون الذين يتسم عملهم بالدقة والإتقان كانت لهم تفريقات رائعة في أبواب نقد الرجال والحكم على الأحاديث من مثل قول مالك – رحمه الله –:(إن من شيوخي من أتبرك بدعائه، ولكن لا أقبل روايته)، ومن مثل قولهم: فلان صدوق إلا أنه غير ضابط..

فالتعبير بـ (الاتجاه العام، أو الانطباع العام، أو الأقرب أو الأكثر) هو الأدنى من الحق والأكثر انسجاماً مع لغة العصر.

ج – النفور من الوعظ المباشر:

عكَّر النسيج الثقافي القائم اليوم الرؤيةَ عند كثير من الناس، كما أفسد الكثير من الفطر السليمة، كما أدى نمو الخصائص الفردية في صورة مرَضية في بعض الأحيان، إلى تضخيم الخصوصيات لتنسحب على كثير من شؤون الحياة العامة التي هي أقرب إلى العموميات، وقد أدى ذلك كله إلى تكوين مزاج لا يرتاح للوعظ المباشر، وصار يُنظر إليه في بعض الأحيان على أنه خروج عن اللباقة والآداب الاجتماعية المرعية، أضف إلى هذا أن انخفاض نوعية بعض الدعاة – كما هو شأن أكثر الأمة– في جانب الالتزام يجعل قبول الناس للموعظة أمراً غير سهل، ومن ثم فلابد من الاعتماد على الإيحاء والتلميح وضرب الأمثال وغيرها أسلوباً للخطاب وإنَّ زكانة الداعية تفتح له في كل يوم آفاقاً جديدة في هذا.

١ أخرجه ابن ماجه والبيهقي قال الهيثمي: رجاله ثقات وإسناده صحيح .

د – الاختصار:

الناس اليوم في عجلة من أمرهم؛ حيث إن المستوى المادي الذي يطمحون إليه جعل الوقت يضيق عن الشروح الطويلة وتكرار البدهيات واستخدام المترادفات، مما يقتضي الإيجاز – غير المخل – في إيصال الأفكار والمعلومات إليهم، وصار الإطناب من فضول القول.

هـ – الضيق بالمبالغات:

مرت على أمتنا بعض الفترات التاريخية التي سادت فيها المحسِّنات البديعية، وصار إطلاق الألقاب الفخمة يجري دون أي اعتبار أو تحاكم إلى الواقع، ويقف المرء على هذا في مقدمات بعض الكتب، وما يُطرَّز به أسماء مؤلفيها من الصفات التي تبتعد عن الحقيقة قليلاً أو كثيراً؛ لأنها لا تستند إلى قاعدة من المعلومات الصحيحة كما في قولهم: البحر العَلَم المجدِّد جمال الدين، فريد عصره، ووحيد دهره الذي لم تقع العين على مثله... وتطلق هذه الأوصاف على عشرات من العلماء الذين يعيشون في عصر واحد، أو في بلد واحد في بعض الأحيان. وكانت هذه الإطلاقات مجافية لما عرف عن سلف هذه الأمة، بل لما عرف عن منهجه ﷺ حيث أثنى على كثير من أصحابه، ووصفهم بصفات محددة، فواحد أعلمهم بالقراءة، وآخر بالقضاء، وثالث بالحلال والحرام، وهكذا.. ولم تقتصر المبالغة على إطلاق الألقاب، بل تجاوزت ذلك إلى أن أصبحت جزءاً من الاعتبارات الذهنية والعلمية عند كثير من الناس، وقد عاد الأمر إلى نصابه في لغة العصر، وصارت المبالغة مملولة ممجوجة.

و – التجديد:

كان من خُلق بني إسرائيل أنهم لا يصبرون على طعام واحد، وقد انسحب هذا

الخُلق اليوم على كثير من جوانب الحياة في المسكن وترتيب أثاثه، والملابس وأشكال تفصيلها، والمراكب وأنواعها، وشأن الناس في القضايا المعنوية نحوٌ من هذا، فهم تواقون إلى الجديد من المعاني والأفكار والأساليب، ولديهم شعور بجمود وقصور من لا يواكبهم في ذلك... وليس في التجديد ما يُذَمُّ إذا تمَّ مع المحافظة على الأصول والثوابت، بل قد لا تتم المحافظة على الأصول إلا من خلال التجديد في الوسائل والأساليب، حيث تُعرض بأشكال تنسجم مع روح العصر.

ز- المعالجة العملية:

تقدُّم العلوم على الصعد العملية شكَّل حسَّ الناس ومنطقهم العام في الميل إلى الواقعية والارتياح إلى الصيغ العملية، ونظام الخطوات المتتابعة، التي تسلم كل واحدة منها إلى الأخرى في طريق الوصول إلى هدف أو حل مشكلة، وصارت الحاجة ملحَّة إلى (كيف)، ولم يعد طرح المبادئ كافياً وحده، حيث لم يعد مجدياً الترديد لنحو: لابد من رفع المستوى الخلقي لدى الفرد، أو لابد من نشر الدعوة بين الناس، بل أنت مطالب بأكثر من هذا، مطالب ببيان الإمكانات المتاحة، ثم بيان المنهج والخطط والأدوات التي يمكن استخدامها في الاستفادة من تلك الإمكانات؛ وذلك لأن تعقد الأشياء وتشابكها يحتاج إلى نوع مكافئ من تعقد الفاعلية على مستوى الخطط والأساليب والأدوات.

ح -عدم قبول تفسير الظواهر الإنسانية بعامل واحد:

الإنسان ذو أبعاد فسيحة وأغوار عميقة، وكل الظواهر التي تتصل به على درجة عالية من التعقيد على مستوى الأفكار والمبادئ والمواقف والعادات، في الاجتماع والاقتصاد... كل أولئك يتشكل ويتبلور نتيجة نسيج معقد من العوامل، وإذا كان

هذا هو الواقع فإن تفسير أية ظاهرة إنسانية وتعليلها بعلة مفردة غير صحيح ولا دقيق؟ فلا يصُّح أن يقال مثلاً: إن الشعب الأفغاني صمد في وجه المحتلين بسبب إيمانه أو بسبب صعوبة تضاريس أرضه من جبال وكهوف، أو بسبب رصيد الفطرة لديه، أو بسبب العون الخارجي.. إنه لم ينفرد سبب واحد من هذه الأسباب بولادة ظاهرة الصمود، بل إنها جميعاً مع أسباب أخرى أسهمت في إيجاد وضع متميز يستمد تميزه من خصوصية شروطه وأسبابه، وهكذا...

كيف نمتلك لغة العصر ؟

في العالم اليوم ما يسمى بثورة المعلومات، مما يفرض على المثقف المسلم أن يرسم لنفسه خطة تثقيفية خاصة تناسب رغباته واختصاصه العلمي، والمهمة التي ندب نفسه إليها. والمشكلة الكبرى تكمن في عزوف كثير من الناس عن القراءة فأمة (اقرأ) لم تعد تقرأ، مما أوجد نوعاً من الخلخلة الثقافية في ساحتنا الفكرية، وجعل كثيراً من أهل الخير عاجزين عن فهم لغة العصر، وإذا عزم المرء على القراءة فلابد له من القراءة الواسعة في شتى أنواع العلوم، وعليه أن يقرأ لكل المدارس حتى لا يقع فريسة للانغلاق الفكري أو ضحية للأفكار الفقيرة التي تظهر في أساليب شتى، ولابد لمن يريد أن يسير في طريق الانفتاح الثقافي من ثقافة شرعية أساسية يتمكن بها من تحديد الثوابت، والتي من أكبر فضائلها دوامُها واستقرارها- حتى لا ينجرف مع نتاج المدارس والتيارات التي يقرأ لها، كما لابد له من محاولة امتلاك منهج في التفكير يستند إلى وعي صحيح بأحداث الماضي، ووعي جيد بظروف الحاضر، حتى يتمكن من امتلاك رؤية واضحة لكيفية عمل سنن الله في الأنفس والآفاق. إن الذي يملك شذرات من المعلومات كمن يملك قِطعاً من الذهب، أما الذي يملك منهجاً

ذا نماذج خاصة، فإنه يمتلك مفتاح منجم من الذهب، فإذا حصل على هذا وذاك فإن الانفتاح في الاطلاع يكون خيراً كله، وحينئذ يتجاوز الداعية مرحلة السيطرة على اللغة ليصبح من مطوريها، لكن لابد قبل الانهماك في القراءة من اختيار ما نقرأ، فلنقرأ للعباقرة، ولأولئك الذين يقدِّرون مسؤولية الكلمة، والذين لا يدفعون بكتابهم إلى المطبعة إلا بعد الاعتقاد بأنه يشكل إضافة جديدة للفكر الإنساني.

٣ – دوام نفعها:

إن الشجرة الطيبة التي ضربها الله ـ تعالى ـ مثلاً للكلمة الطيبة دائمة الثمار، وديمومة عطائها نابعة من تناسق الصفتين السابقتين: ثبات الجذور، وبسوق فروعها في جو السماء، والكلمة التي لا جذور لها لا تستطيع أن تصنع شيئاً، والأفكار التي تبثها تكون قصيرة العمر كزهور الربيع؛ والكلمة التي لا تنسجم مع لغة العصر لا تستطيع ملامسة أعماق الإنسان الذي تقرع سمعه، والذي وصفناه بأنه بالغ التعقيد. وقد ملَّكتنا هذه الآيات الكريمة المقياسَ الذي نتعرف به على الكلمة الطيبة، وهذا المقياس هو: ﴿تُؤْتِيَ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾، فنحن إذا أردنا من هذا المنظور أن نقيس أداء خطب الجمعة في عالمنا الإسلامي وآثارها في ترقية فهم الناس للإسلام والتزامهم به وجدنا أن أطناناً من الورق تكتب أسبوعياً دون أن تؤتي الثمار التي تتناسب مع حجم ذلك الجهد المبذول، وذلك بسبب القصور في الأسلوب.

إن من مهمات المثقَّف المسلم أن يعيش عصره، ويكون مؤثراً لا متأثراً، وأن يكون له دور في صياغة لغة العصر.

في
إشراقة آية

فَٱعۡتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ

هذه آية جليلة الشأن في الكتاب العزيز سرت مسرى المثل، وذاعت على الألسنة والأقلام؛ لأنها تعني وجوب الاستفادة من تراكم الخبرات البشرية، وأخذ العظة والعبرة من أحوال الأمم السابقة، والمعاصرة توفيراً للجهد، واختصاراً للطريق، وفراراً من عذاب الله؛ تعالى... وقد قصَّ الله ـ تعالى ـ علينا في سورة الحشر قصة جلاء بني النضير من المدينة إلى خيبر والشام مبيناً وقوع ما ليس في الحسبان، فقال تباركت أسماؤه: ﴿ٱلَّذِيٓ أَخۡرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمۡ لِأَوَّلِ ٱلۡحَشۡرِۚ مَا ظَنَنتُمۡ أَن يَخۡرُجُواْۖ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمۡ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنۡ حَيۡثُ لَمۡ يَحۡتَسِبُواْۖ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعۡبَ يُخۡرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيۡدِيهِمۡ وَأَيۡدِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ فَٱعۡتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ ٢﴾ الحشر: ٢.

قد كان خروج بني النضير في تلك الصورة المهينة الذليلة حدثاً بعيداً عن أذهانهم وأذهان المسلمين لأن الأسباب المادية التي أخذ بها القوم كانت على درجة من الإتقان والإحكام تحول دون تصور ما وقع..

ولكن العزيز الجبار الذي لا رادَّ لأمره، ولا معقِّب لحكمه أتاهم من حيث لم

يحتسبوا: أتاهم من الداخل، فألقى في قلوبهم الرعب، فخارت عزائمهم، وأدركوا أنَّ قوَّتهم ما عادت تغني عنهم شيئاً، وما أشبه الليلة بالبارحة!فهذه هي النظرية الشيوعية تنهار اليوم في أسرع مما كان يدور في خلد البشر، وهذه هي مئات الألوف من الكتب والمجلدات التي سُطِّرت في فلسفة النظرية وترويجها وتكييف البشر معها تغدو رماداً تسفوه رياح التغيير العاتية في وجوه السدنة والكهنة.. قد كان سقوط النظرية الشيوعية أمراً لا مفر منه، ولكن المذهل هو انهيار البناء الذي أنفق فيه ثلاثة أرباع القرن من الزمن مع إزهاق ملايين الأنفس، وما لا يحصى من الآلام والعذابات وصنوف المعاناة الإنسانية في أسرع من لمح البصر!

قد كانت أفكار (كارل ماركس) رد فعل لحرمان طويل ومعاناة شخصية قاسية، والناموس العام لردود الأفعال البعد عن الموضوعية وفقدان الاتزان، وقد قبل أفكار (كارل ماركس) في البداية صنفان من البشر: صنف طحنه الظلم والحرمان، وتقلَّب دهراً في التعاسة، وطرق كل باب للخروج من نفق الظلمات الذي ولد فيه فإذا بنظرية تعده بجنَّة على الأرض تُنسيه طعم كل ما مضى من العناء والبلاء، فهبَّ إلى اعتناقها والترويج لها على أنها الحل الأخير والمخرج الوحيد، والصنف الآخر – وهم الكثرة من الأشياع – وجد في السلطات المطلقة التي تركزها النظرية في قبضة الحزب الشيوعي والدولة الماركسية ما يلبي من خلاله كل طموحاته الشخصية من الجاه والمال والتسلط، وما يتفرع عن ذلك من شهوات

وملذات ومصالح.. ولم يمض وقت طويل حتى أدرك الذين كانوا يحلمون بالفردوس أن الخُبر غير الخَبر وأن المحصول غير المأمول.. ولكن إدراك الشعوب كثيراً ما يأتي متأخراً بعد فوات الأوان.. فقد ركزت الحكومات البلشفية المتعاقبة على صناعة

السلاح دون باقي الصناعات حتى تتمكن من كسر شوكة أي معارضة محتملة للثورة على حين أنها لم توفر لشعوبها أحذية جيدة تنتعلها.. وجمعت إلى ذلك تجنيد عشرات الألوف من المخبرين السريين الذين يحصون أنفاس الشعوب ويعَّدون نبضات قلوبهم، ولجأت الشعوب إلى سلاحها الماضي وحيلتها الأخيرة، فشرعت في المقاومة السلبية، وأدارت ظهرها لخطط التنمية المتعاقبة التي كانت تضعها الحكومات الشيوعية. ومن البدهي أن الحكومة تخطط، وأن الشعب ينفِّذ فإذا لم ينفِّذ الشعب كانت الخطط حبراً على ورق أو صرخة في واد، وهذا ما جرى، فكان كل عام يمر يعنى مزيداً من الفروق المعيشية والحضارية بين أتباع الشيوعية وأتباع الرأسمالية، وحين انهار جدار (برلين) أدرك الألمان الشرقيون – الذين كانوا يُدلُّون بأنفسهم على أشياعهم من أبناء أوربا الشرقية– الفجوة الضخمة التي تفصلهم عن الألمان الغربيين، فالدخل عند الغربيين عشرة أضعاف الدخل عند الشرقيين، والهواتف عشرة أضعاف وأعداد السيارات مضاعفة، وهكذا أشياء كثيرة على هذه اللازمة..

وفى اعتقادي أن الأحزاب الشيوعية انهارت بهذه الصورة؛ لأنها عجزت عن بناء حضارة مناسبة للعصر، تُغني شعوبها عن تكفف الآخرين، وتوجِد الثقة بالأسس النظرية التي قامت عليها، وأسباب أخرى من هذا القبيل، لا نقصد هنا إلى تعدادها.

هل من معتبر ؟

كانت الأحزاب الشيوعية والحكومات التابعة لها بحاجة إلى نوعين من المراجعة:

الأول: مراجعة أصول النظرية وقواعدها الأساسية والتي أثبتت السنين أنها خيالية ومتناقضة.

الثاني: قياس أداء النظرية من خلال الواقع الذي أفرزته التجربة الطويلة، لمعرفة

مكامن الخلل ومواضع الداء في النظرية والتطبيق. ومع أن (برجنيف) كان يقول: إذا لم نستطع كشف الأخطاء قَتَلتنا، فإن سدنة الأحزاب الشيوعية بدءاً بقائل هذه الحكمة لم يستطيعوا الكشف عن أي خطأ ذي شأن فضلاً عن القدرة على إصلاحه. وكان الشغل الشاغل هو التبرير والدفاع، والثناء بالجملة على الوضع القائم، وفى عالمنا الإسلامي اليوم الكثير الكثير من الأخطاء وأصناف القصور على المستويات كافة، ووجود الأخطاء أمر طبيعي؛ ذلك لأن حركة الزمن تدع الكثير من الجديد بالياً، وتوجِب استمرار الاجتهاد والتكييف بين المبدأ والمصلحة، وبين الوسائل والغايات، وبين الأساليب والأهداف، وخلال عمليات التكييف هذه تحصل مفارقات تُحسب للأمة تارة، وعليها تارة أخر ى.

والأمة الحية اليقظة لا تكف أبداً عن عمليات المراجعة وقياس أداء المناهج والأساليب والأصول، كما لا تمل من بحث المعّوقات وطرح الحلول لها، وإذا كان الآخرون يحتاجون إلى نوعين من المراجعة فإننا بحمد الله نسير في طريق لاحبة رسمها الأصفياء الأولون من رسل الله وأوليائه، ومن ثم فإننا في حاجة إلى نوع واحد منها، وهو التأكد من موافقة خطانا لروح الشريعة الغراء ونصوصها ومدى توافر الشروط النفسية والاجتماعية التي يجب توافرها في حياة خير أمة أخرجت للناس.

وتتشخص هذه المراجعة في المفردات التالية:

١ – امتلاك الشجاعة الكافية للاعتراف بالأخطاء، وأنواع التقصير في مسيرتنا الحياتية.

٢ – التفريق الدقيق بين الأمراض، وأعراضها حتى لا نعالج مظاهر المرض

وأعراضه، ونترك حقيقته، فيكون العلاج مؤقتاً.

٣- البحث في البنى التحتية لتلك الأخطاء للوقوف على عللها الأولى وأسبابها الحقيقية اهتداء بقوله تعالى: ﴿ قُلْ سِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ﴾ العنكبوت: ٢٠.

٤- التغيير في برامجنا وأساليبنا بما يتناسب مع نتائج تلك المراجعات.

٥- وضعِ صمَام الأمان الذي يحول دون تكرار الوقوع في تلك الأخطاء.

٦- غرس روح تحمل المسؤولية في أفراد الأمة والتربية على الشجاعة الأدبية الباعثة على محاصرة الخطأ والنقد البنَّاء، وتنمية روح المبادرة الفردية لديهم.

إذا فعلنا هذا فإنا نكون قد ضمنّا استمرار الثقة بأصولنا الاعتقادية والفكرية، وأوينا إلى ركن شديد يعصمنا من الأعاصير العاتية والانهيارات المدمرة.

وليس هذا بعزيز، على وارثة تراث الأنبياء والمكلَّفة بتبليغ كلمة السماءالأخيرة.

ولله الأمر من قبل ومن بعد.

في
إشراقة آية

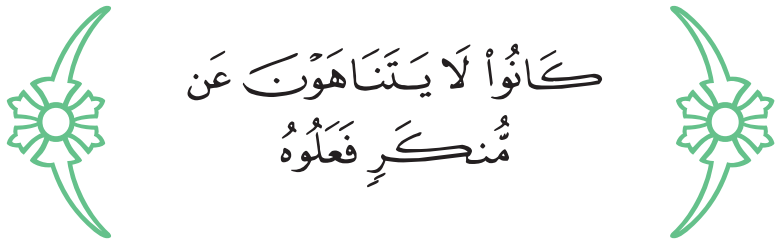

يشكِّل انهيار العلاقات الاجتماعية واحدة من أهم المشكلات التي تعانى منها المجتمعات الحديثة حيث نما الشعور بالفردية والتوحد، وحُكِّمت المصالح الخاصة في كثير من شئون الحياة، وقد أصاب أمةَ الإسلام شيء من ذلك، فاضمحلت ضوابط التربية الاجتماعية التي تشكل الحس الجماعي لدى الفرد المسلم مما أشاع الفوضى الفكرية والاجتماعية، وتضخمت مشكلات المسلمين الاقتصادية، لأن عمليات التنمية لا تتم على ما ينبغي في مجتمع واهي الروابط مختلف الأفكار والمفاهيم.

من هنا شددت تعاليم الإسلام على ضرورة المحافظة على العلاقات الاجتماعية وإقامتها باستمرار على هدي الرسالة الخاتمة التي تُعَدُّ استمراراً لدعوات الأنبياء؛ عليهم الصلاة والسلام، وتحقيقاً لذلك التواصل قصَّ الله تعالى علينا أخبار الأمم السابقة والعواقب الوخيمة التي انتهوا إليها حين شاعت فيهم الانحرافات والمخالفات دون أن يرفع أحد منهم رأساً، أو يقول كلمة لأولئك الذين يستعجلون أيام الله لأنفسهم وأممهم فقال تعالى: ﴿ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ

وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوۡنَ عَن مُّنكَرٖ فَعَلُوهُۚ لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ﴿٧٩﴾ المائدة: ٧٨-٧٩.

فقد أجرم القوم مرتين: مرة حين وقعوا في الآثام، وأخرى حين تركوا المعاصي تشيع فيهم دون أن تتحرك فيهم روح التناهي عنها، وقد جاء في الحديث ما يفسر تدرجهم نحو الحال التي استوجبت لهم اللعن، فقد روى ابن مسعود عن رسول الله ﷺ أنه قال: (إن أول ما دخل النقص على بني إسرائيل أنه كان الرجل يلقى الرجل فيقول: يا هذا اتق الله ودع ما تصنع؛ فإنه لا يحل لك، ثم يلقاه من الغد وهو على حاله، فلا يمنعه ذلك أن يكون أكيله وشريبه وقعيده، فلما فعلوا ذلك ضرب الله قلوب بعضهم ببعض ثم قال: ﴿ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾[1]، قد طال العهد بصالحي بني إسرائيل، فبدأت المناكر تزحف إلى حياتهم عن طريق أهل الأهواء والشهوات، وكان فيهم صالحون، فقاموا ونهوا أصحاب المعاصي ووعظوهم، ولكن هؤلاء تأصل فيهم المنكر، وصار النزوع عنه أمراً عسيراً، وكان الأمر يتطلب من صالحيهم جَلَداً وصبراً ومفاصلة إلا أن درجة التوتر الحيوي عند أولئك الصالحين لم تكن كافية بحيث يشعرون بالتميز ويشكلون تياراً نَشِطاً يحاصر أولئك العصاة، ويُشْعرهم بالشذوذ و الوقوع في الإثم...وكانت المرحلة التالية سيطرة شعور العجز والضعف على أولئك الصالحين مما جعلهم يخالطون أهل المعاصي، ويرضون عن أعمالهم، أو يظهر للناظر أنهم كذلك، فضاعت معالم الحق، وجاءت أجيال تالية، فنشأت في الانحراف، وشبت فيه، وصار التفريق بين المعروف والمنكر أمراً غير متيسر لكل الناس.

١-أخرجه الترمذي وحسَّنه .

وكانت العاقبة أن ضرب الله قلوبهم بعضَها ببعض، وهذه العبارة في الحديث النبوي ترمز إلى حالة من الفوضى المصحوبة بالعذاب حيث فقدت تجمعاتهم الشروط الضرورية لبقائهم واستمرارهم المادي والمعنوي، فكانت أيام الله في خاتمة المطاف جزاء ما فعلوا.

إن كل مجتمع مهما بلغ من الفضل والرقي لا يستغنى عن شريحة تتمثل فيها المثل العليا لذلك المجتمع، تحفظ عليه وجوده المعنوي المتمثل في عقيدته وأخلاقه وضوابط علاقاته، وهؤلاء يمثلون الخيرية في ذلك المجتمع كما قال عليه الصلاة والسلام: «ما من نبي بعثه الله في أمة قبلي إلا كان له في أمته حواريون وأصحاب يأخذون بسُنَّته ويقتدون بأمره، ثم إنها تخلف من بعدهم خلوف يقولون مالا يفعلون...»[1]، إن هؤلاء الآمرين بالمعروف الناهين عن المنكر يملكون من التوهج في أرواحهم والحيوية في نفوسهم ما يجعل همَّ مجتمعهم همَّهَم الأكبر، فيسعد بهم ذلك المجتمع إذ يحفظون عليه توازنه واستقامته وشروط استمراره، وكما لا يشترط لصحة المجتمع جسمياً وبيئياً أن يكون كل أفراده من الأطباء كذلك لا يشترط في المجتمع المسلم أن يكون كل أفراده من الدعاة الناصحين، ولكن ينبغي أن تتوفر نسبة كافية في المجتمع مسموعة الصوت واضحة التأثير تملأ الفراغ الثقافي، وتملك من الوسائل المؤثِّرة ما يسمح باستمرار وضوح جادة الحق والخير والصواب، ويسمح باستمرار سنة المدافعة بين الحق والباطل على وجه مكافىء، وهذا ما يشير إليه قوله ـ عز اسمه-: ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ۚ

١- رواه مسلم .

﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾﴾ آل عمران: ١٠٤.

وقد جرت سنة الله في الابتلاء أن تلقى هذه الفئة الطيبة الخيرة المُحَارَبة دائماً، وتلقى الأذية والعنت، وما ذلك إلا لأنها تسير في الاتجاه المضاد لأهل الشهوات والأهواء الذين يمكن أن نسميهم بـ (المختزلة) حيث يكثِّفون هموم البشرية كلها في هم واحد هو همهم، ويتجاوزون رغبات الخلق، ومصالحهم -مهما عظمت- إلى رغباتهم ومصالحهم هم... وعلى كل حال فإن الذي يظن أن في استطاعته أن يسير في دروب الأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ مقوِّماً للمعوج ومحارباً للأهواء والشهوات وناصراً للمظلوم، ثم لا يلحقه شيء مما لحق بهم، فهو واهم في ذلك، وإلى هذا أشار لقمان وهو يعظ ابنه حين قال: ﴿يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٧﴾﴾ لقمان: ١٧ فقد أشعر ابنه بما يمكن أن يلحقه من الأذية إذا هو قام بواجب الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، ولكن نظراً للأخطار التي تهدد الأمة بخلوِّها من هذه الشريحة المباركة التي تُعدُّ قلبها النابض وبصيرتها النافذة، فإن الله ـ تعالى ـ قرن محاربة هذه الفئة بالكفر به وقتل رسله حيث قال ـ جلَّ وعلا:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِٱلْقِسْطِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢١﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٢﴾﴾ آل عمران: ٢١-٢٢.

واليوم والأمة تسعى جاهدة إلى الخروج من نفق الظلمات نافضة عنها غبار الضعف والفرقة والتبعية والتخلف؛ تكثر المشاريع الحضارية المطروحة في البلاد الإسلامية من قبل أهل العلم والفكر، كما يكثر الضرب في الأرض لدراسة التجارب الحضارية الحديثة، والمعاصرة للأمم الأخرى، والنتيجة الملموسة إلى هذه الساعة من وراء كل

ذلك سلبية، والسبب في ذلك – والله أعلم – أننا نأتي البيوت من غير أبوابها، ذلك لأن التخلف المادي الذي يعاني منه المسلمون ليس هو المرض ولكنه من أعراض المرض، والمعالجة الصحيحة تكون بتفحص المرض وأسبابه وجذوره، فإذا عالجنا المرض ذهبت كل أعراضه، أما المرض فهو كامن في الخلل الذي أصاب رؤية المسلمين للدنيا والآخرة، والخلل الذي أصاب أخلاقهم ومقاصدهم وعلاقاتهم بعضهم ببعض، مما أوجد مفاسد جمة، قعدت بالسواد الأعظم من المسلمين عن أن يكونوا لَبِنات صالحة في أي بناء حضاري فذ متميزٍ، وغاب عنا روح الفريق حين التفت كلٌ منا إلى مصلحته الخاصة ضارباً عُرض الحائط بكل شيء وراءها. ولابد من وقفة متأنية عند هذه النقطة نظراً لخطورتها وكثرة المشكلات الناشئة عنها، إن كثيراً من مجتمعات المسلمين اليوم لا يتوفر فيه ما يجعله صالحاً لإطلاق اسم (مجتمع) عليه لأن التفلت من الواجبات الشرعية والوقوع في المحظورات – والتي في مجملها تشكل الحس الجماعي عند المسلمين– يجعل صفة الفردية طاغية على هذه التجمعات، وإن بدت حسب الظاهر في صورة مجتمعات منظمة متحدة.. إن المجتمع – كما يقول مالك بن نبي – الذي يعمل فيه كل فرد ما يحلو له ليس مجتمعاً، ولكنه إما مجتمع في بداية تكونه وإما مجتمع بدأ حركة الانسحاب من التاريخ، فهو بقية مجتمع.

واليهود حين أرادوا تدمير المجتمعات الغربية خططوا لتضخيم جانب الفردية على حساب الحسّ الجماعي حتى كثرت القضايا التي يَعدُّها العرف هناك خصوصيات تخضع لمزاج الفرد ومصلحته، وكانت النتيجة التي انتهوا إليها، تفكك تلك المجتمعات على نحو مخيف ذهب بأمن الحياة وروائها، وسيعصف بكل الجهود العزيزة التي بذلت في بناء الحضارة الحديثة في يوم من الأيام! وقد انتقلت هذه

العدوى إلى بلاد المسلمين، فصار كثيرون منّا غير مستعدين لقبول النصيحة من أحد بحجة أن ما يلاحَظ عليهم يعود إلى خصوصياتهم التي لا تقبل أي نوع من التدخل. وهذا الصنف من الناس – وهو يمثل اليوم في المسلمين الأكثرية – على غير دراية بفلسفة هذا الدين في إقامة المجتمعات وإنشاء الحضارات مما يجعل رؤيتهم للحياة كثوب ضم سبعين رقعة مختلفة الأشكال والألوان!

وفي إمكان المسلم من خلال نظرة سريعة في بعض النصوص أن يتعرف وجهة الشريعة في هذا، وإليك حديث السفينة الذي وضع النقاط على الحروف في هذه المسألة بصورة مدهشة، فقد روى النعمان بن بشير- رضي الله عنه - عن النبي ﷺ أنه قال: (مَثَلُ القائم في حدود الله والواقع فيها كَمَثَل قوم استهموا على سفينة، فصار بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها، وكان الذين في أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم، فقالوا: لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقاً، ولم نؤذ من فوقنا، فإن تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعاً، وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعاً) رواه البخاري .

إن هذه السفينة تمثل المجتمع الإسلامي الذي توحدت عقائده وتوحد اتجاه سيره، وتوحدت غاياته والمخاطر والتحديات التي تواجهه، وإن القائم في حدود الله - تعالى - هو تلك الفئة الصالحة الملتزمة بشرع الله الآمرة بالمعروف الناهية عن المنكر، وإن الواقعين فيها هم أولئك الذين ينتهكون حرمات الله بترك الواجبات والوقوع في المحرمات، والحديث يقرِّر أن ما يتوهمه بعض الناس من خصوصياته ليس كذلك كما أن الذين احتلوا أسفل السفينة كانوا واهمين حين ظنوا أن لهم الحرية الكاملة في التصرف في أرض السفينة؛ وذلك لأن تصرفهم فيها بخرقها يمسُّ مصالح الذين

فوقهم، بل مصائرهم، ولنضرب لما يتوهمه بعض الناس من خصوصياتهم مثلاً من حياتنا المعيشة حيث وقع في خَلَد كثير من الناس أن الصلاة عبادة بدنية تعبِّر عن صلة خاصة بين العبد وربه، وأن المقصر في أدائها لا يؤذي جاراً، ولا ينتهك لمجتمعه حرمة، وبذا تكون الصلاة من المسائل الخاصة بالمرء، يؤديها كلما حلا له ذلك، ويتركها كلما عنَّ له ذلك، ومن ثَمَّ فإن مساءلة الناس له عنها يعد ضرباً من الفضول الذي ينفر منه ذوق الإنسان المعاصر ذي الإحساس المرهف والرسوم الاجتماعية الدقيقة، ولكن الأمر في نظر الشريعة الغراء ليس كذلك إذ إن فقهاء الأمة مجمعون على أن الصلاة ليست من خصوصيات الإنسان التي يقف المجتمع المسلم تجاه تاركها صامتاً غير مبال ولا مؤاخذ، لذلك رأى بعض الفقهاء أن تاركها (كسلاً) مقراً بفرضيتها يقتل كفراً، وبعضهم قال يقتل حداً، وبعضهم ذهب إلى أنه يُسجَن إلى أن يصلي، وهم في هذا يصدرون عن فهم صحيح لطبيعة عمل هذا الدين في تسيير دفة الحياة الاجتماعية، لأن المعصية حين تشيع في الناس يستوجبون نزول العقوبة وذهاب الريح، ولا تشيع الفاحشة إلا حين يغض المجتمع الطرف عنها وطالما أُجهض الجهد الإنساني الضخم في إعمار الأرض بسبب التقصير في جانب العبودية لله ـ تبارك وتعالى ـ وشواهد الماضي والحاضر ناطقة بذلك، وكيف لا والله ـ تعالى ـ يقول: ﴿ وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةٗ لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةٗۖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴿٢٥﴾ ﴾ الأنفال: ٢٥. وكيف لا والرسول ﷺ يقول مجيباً لمن سأله: أنهلك وفينا الصالحون ؟ بقوله: (نعم إذا كثر الخبث)[1]، نعم إن الأمن حين يضطرب

١- أخرجه الشيخان.

حبله لا يضطرب على الطالحين وحدهم، وإن الأسعار حين تغلو لتفوق طاقة الناس لا ترتفع بالنسبة إلى الطالحين فقط، وإن العدو حين يستبيح الحمى لا يستثنى أحداً وهكذا... وإذا كان أصحاب الأهواء والشهوات لا يبصرون أكثر من مواقع أقدامهم، ولا يعبأون بحاضر ولا مستقبل، فإن على المجتمع أن يتحمل المسؤولية تجاه حاضره ومستقبله وآخرته.

في
إشراقة آية

هذه آية عظيمة القدر في كتاب الله ﷻ حيث إنها تسهم إسهاماً كبيراً في تشكيل رؤية المسلم إلى أشياء كثيرة في عالم الأحياء، وقد ترتَّب على عدم الاهتداء بهدي هذه الآية كثير من الخلل في حياتنا المعاصرة، وما اخترناه ليكون عنوانا لهذه المقالة جزء من آية، هي قول شعيب ـ عليه السلام ـ لقومه ﴿يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥۖ قَدۡ جَآءَتۡكُم بَيِّنَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡۖ فَأَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ وَٱلۡمِيزَانَ وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ وَلَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بَعۡدَ إِصۡلَٰحِهَاۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ٨٥﴾ الأعراف: ٨٥، وسياق الآية وإن كان يدل في ظاهره على أن المقصود المباشر بـ (أشياءهم) هنا ما يتبادله الناس في معاملاتهم من المتاع إلا أن ما يملكه الناس ويتمتعون به من أخلاق وأفكار وتاريخ... أولى بإقامة العدل وإنزاله في منازله من غير وكس ولا بخس، ولا شطط؛ لما يترتب على الإخلال بذلك من الحقد والقطيعة والفرقة وذهاب الريح... ولما كانت أصول دعوات الأنبياء – عليهم السلام – واحدة فإن الأمر بإقامة الموازين والحكم بالعدل، والإنصاف ظل الوصية الخالدة

التي يوجهها كل نبي إلى قومه؛ لأنه بالعدل قامت السماوات والأرض... وقد أوصى الله ـ تعالى ـ رسوله محمداً ﷺ أن يعلن لأمته أمرَ الله له بإقامة العدل فيها، فقال: ﴿وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ ۖ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ۖ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ ۖ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ ۖ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ﴾ الشورى: ١٥، وأوصى المؤمنين بإقامة العدل مع الناس كافة حتى الأعداء الذين يبغضونهم ويحاربونهم، فقال ـ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ المائدة: ٨، وقد كان ﷺ يقوم لله بالشهادة، فيعطي كل ذي حق حقه، وفي سيرته العطرة مئات الشواهد التي تفيد التزامه المطلق بإنزال الناس منازلهم، وذكر محاسنهم وميزاتهم، مهما كان انتماؤهم، وحيث كان موقعهم، فهذا هو يقول: (أصدق كلمة قالها شاعر كلمة لبيد: ألا كل شيء ما خلا الله باطل)، مع أن لبيداً وقتها كان كافراً[1]، وكان بإمكانه ﷺ أن يثني على شعر بعض أصحابه المملوء حكمةً وهدىً بدافع حصر الخير فيهم، ولكن الالتزام بالحق والإنصاف وعدم بخس أحد حقَّه يأبى ذلك، فأثنى على كلام رجلٍ كافر.

ومن الجدير بالذكر هنا أن عثمان بن مظعون ـ رضي الله عنه ـ سمع لبيداً ينشد البيت، فلما قال:

ألا كل شيء ماخلا الله باطلُ

قال له عثمان: صدقت، فلما قال:

١- فتح الباري ٧/١٥٣٠ .

وكل نعيم لا محالةَ زائلُ

قال له عثمان: كذبت نعيم الجنة ليس بزائل.

وإن المرء ليعجب لهذا الإنصاف أيضاً من عثمان المقتبِس من مدرسة النبوة حيث أثنى في النصف الأول على لبيد، وكذَّبه في النصف الثاني! وجاء المسلمون بسفَّانة بنت حاتم الطائي في السبي، فذكرت لرسول ﷺ من أخلاق أبيها ونبله فقال لها: (يا جارية هذه صفة المؤمنين حقاً لو كان أبوك مؤمناً لترحمنا عليه، خلُّوا عنها؛ فإن أباها كان يحبُّ مكارم الأخلاق، والله تعالى يحب مكارم الأخلاق)[1].

قد وقف رسول الله ﷺ من حاتم الموقف الذي تمليه شريعته الغراء التي جاء بها، فأثنى عليه؛ وأطلق سراح ابنته، وأكرمها، ولكنه لم يترحم عليه لعدم إيمانه لتهتدي الأمة بهذا الهدي النبوي العظيم! ونبَّه ﷺ النساء على ما يجري على ألسنتهن من انتقاص أزواجهن وجحد معروفهم عند أدنى خلاف فقال: (أُريتُ النار فإذا أكثر أهلها النساء يكفرن، قيل: أيكفرن بالله ؟ قال: يكفرن العشير، ويكفرن الإحسان، لو أحسنت إلى إحداهن الدهرَ ثم رأت منك شيئا قالت: ما رأيت منك خيراً قط) [2]

إن هذا الحديث يُبرز قضية العدل إبرازاً قلَّ نظيره حيث جعل ﷺ جحودهن المعروف سبباً كبيراً لكثرة وجودهن في النار، وكأن كفران العشير يُحدث في الحياة الزوجية من الشروخ والندوب ما يوازي الجرائم الاجتماعية الكبرى، وعلى هذا المنوال نسج الصحب الكرام ـ رضوان الله عليهم ـ حين كانوا يُصدرون الأحكام على الخصوم فضلاً عن الإخوة والرفاق، فقد قاتل عليٌّ ـ رضي الله عنه ـ الخوارج ـ وقاتلوه، ثم

١- البداية والنهاية ٢/١٩٨ .
٢- صحيح البخاري ١/٢٤ .

قتلوه، ولما سئل من قِبَل بعض الناس عنهم: أمشركون هم؟ قال: من الشرك فروا، فقالوا: أفمنافقون ؟ قال: إن المنافقين لا يذكرون الله إلا قليلاً ـ أي هؤلاء يذكرون الله كثيراً ـ قيل: فما هم يا أمير ألمؤمنين ؟ قال: إخواننا بغوا علينا فقاتلناهم ببغيهم علينا![1]، فهل بعد إنصاف أبي الحسن من إنصاف ؟ وهل هنالك كلام يقوله شاهر سيفٍ أرق من هذا الكلام ؟! وظل روح العدل والإنصاف سارياً في الأمة قروناً عديدة، وتجلى ذلك بشكل واضح جداً في القواعد التي صاغها المحدثون في الجرح والتعديل حيث وضَّحوا الجوانب المختلفة لشخصية الراوي، وحكموا على كل زاوية على حدة، ثم انتهوا إلى حكم عام حوله، وصار من الظواهر المألوفة عندهم أن يطلب أحدهم الدعاء من رجل، فإذا جاءه حديث عن طريقه حكم على الحديث بالضعف، لأن طلب الدعاء مبني على اعتقاد الصلاح، أما قبول روايته فيعتمد على شيء آخر كضبط الراوي وعلمه ونباهته، وغير ذلك... ولكن تراجعت هذه الرؤية الموضوعية الفذَّة فيما تراجع من الجوانب المختلفة من حياة المسلمين، وصار المنصفون الذين يجردون الشهادة لله، ويضعون الأمور في مواضعها دون بخس أو تزيد من القِلَّة الذين يشار إليهم بالبنان، وهذه بعض النماذج التي ضربت بجذورها في حياة المسلمين اليوم، وصارت تشكِّل ظاهرة مَرَضية مزمنة، وذلك نتيجة التطفيف في المكاييل وبخس الناس أشياءهم:

١- يقوم شاعر ماجن أو ملحد بنظم قصيدة عصماء تتوفر فيها كل العناصر الفنية المجمع عليها، فيتصدى لنقده واحد من أهل الخير، فيسقطه ويشنِّع عليه غاضاً الطرف

١-البداية والنهاية ٧/٣٠٠ .

عن كل إبداعه الفني، وما ذاك إلا لأن اتجاه ذلك الشاعر لا يروقه فاتخذ منه موقفاً ثابتاً، حتى لو كان مضمون تلك القصيدة لا يمسُّ أصولنا الاعتقادية، ولا مسلماتنا المذهبية، والواجب في مثل هذا أن يثنى على جوانب الإبداع في القصيدة، وينتقد المضمون إن كان فاسداً نقداً موضوعياً هادئاً عفيفاً. ومن الواجب كذلك أن يُفرَّق بين إنتاج الرجل الواحد فيكون الثناء على الصالح منه، وينتقد ما فيه دَخَن، فقد يقدِّم أحد الكتاب أو الشعراء خدمة جُلّى للمسلمين في كتاب أو قصيدة، ويتعثر في كتاب أو كتب أخرى، فيعطى حقَّه في كلٍ منها دون بخس أو شطط، وحين يكون النقد أوالخلاف في وجهات النظر على هذا المنهاج يكون إمكان الإصلاح أقوى، ونكون أقرب من الصواب، وأقرب للتقوى، والرؤية التي يشكِّلها الإسلام لدى المسلم السويِّ في مثل هذا هي أن يشجِّع الأعمال الإيجابية، ويثني عليها، ويكون عوناً فيها، فإذا رأى خللاً نبه عليه، وحذَّر منه وقام بالبلاغ المبين، ولو جرى مثل هذا في المجتمع لساد الانطباع بالإنصاف لدى كل الفرقاء، ولأدى ذلك إلى تفتيت كتل المتشنجين والمتحازبين الذين لا يرون لغيرهم فضلاً، ولا يظنون فيمن خالفهم إلا سوءاً.

٢ – يتآخى بعض أهل الخير في الله، ويسعون جهدهم لخدمة هذا الدين وأهله صفاً واحداً، ثم تحدث اجتهادات أو أخطاء تؤدي إلى تباين وجهات النظر، فتنشأ في الصف الواحد تيارات ومدارس، وقد يتطور الأمر فيجد بعضهم الاستمرار مستحيلاً مما يجعله يقعد، أو ينحو منحى آخر يجده أجدى وأنفع، وسرعان ما يختلف اتجاه الرياح، فيصبح الأخ الناصح أو القائد المحنك أو الصادق المخلص جباناً، أو بخيلاً أو صاحب مصالح، بل قد يصبح عميلاً أو منافقاً... إلى آخر ما يجود به قاموس(عمى الألوان) من الأوصاف الشنيعة والاتهامات المقذعة، ويصبح اللقاء بين الحميمين /

العدوين ضرباً من المستحيل مع أن نظرة متأنية منصفة في ساعة إنابة لله ﷻ كفيلة بتبديد الغيوم وإذابة الثلوج. وإنما يحدث مثل هذا لخللٍ في التربية الاجتماعية، وأسلوب التلقي، وغياب المناهج، والمعايير الدقيقة التي يتحاكم إليها المتنازعون، وما غابت المناهج النيرة إلا كان البديل هوالاتهام وسوء الظن وطمس الحقوق، أو تقديس الأشخاص والمبالغة في الثناء والمديح.

٣- قد يحدث أن يسوق الله طالب علم إلى أحد المشايخ، فيأخذ عنه بعض ما عنده من العلم في بعض الفنون، ويشعر الطالب في بعض الأحيان أن ما عند هذا الشيخ في تخصصٍ ما لا ينقع الغلة، ولا يروي الصادي، فيتجه إلى شيخ آخر يلتمس ما عنده، وهنا يشعر الأستاذ الأول أن ما فعله هذا الطالب فيه نوع من إساءة الأدب وعدم الوفاء، بل قد يشعر أن تصرف هذا الطالب يوحي بأن ما عند الشيخ في هذا الفن ضئيل الفائدة، وحينئذ يبدأ تقطيب الوجه، والتصريح والتلميح بعدم الوفاء والإشادة بأقران ذلك الطالب الذين يمثِّلون الأدب، وحسن العهد والعبقرية، ثم تكون الجفوة والقطيعة.... ونحن الآن في زمان ترك فيه الحلاق الحجامة، وقلع الأضراس، وترك فيه الطبيب الفلك والحساب، بل إن إحاطة المرء بأي فن من الفنون صار متعذراً نظراً للتراكم المعرفي العظيم والانفجار الهائل في المعلومات، وهذا الداء قديم عندنا، وما لم تُحرَّر النيات لله ـ تعالى ـ فستقطع رحم العلم، ويحل الجفاء موضع الدعاء، والإزورار موضع التزاور. وكم تختلف الصورة لو أن هذا الأستاذ أرشد تلاميذه إلى أولي الاختصاص ليُفيدوا منهم إذاً لقارضه الأستاذ الآخر الثناء، ولاتصلت الأنساب العلمية وأثريت الحياة الثقافية، ويحصل قبل هذا وذاك الالتزام

بمنهج الله ـ تعالى ـ الذي لا يرضى لعباده التباغض والتحاسد وبخس الحقوق...

والخلاصة أن هذه الآية الكريمة مما عُطِّل به العمل عند كثير من المسلمين، ونشأ عن هذا التعطيل مرض اسمه: (عمى الألوان) ولكنه في البصيرة دون البصر، فأطفئت ألوان كثيرة لا تكاد تحصى كانت تتوهج بين الأبيض والأسود، وكثر النمط الذي يُقرَّظ بـ(وحيد دهره وفريد عصره) والنمط الذي يقول فيه (الرجال): ما رأينا منه خيراً قط...

في
إشراقة آية

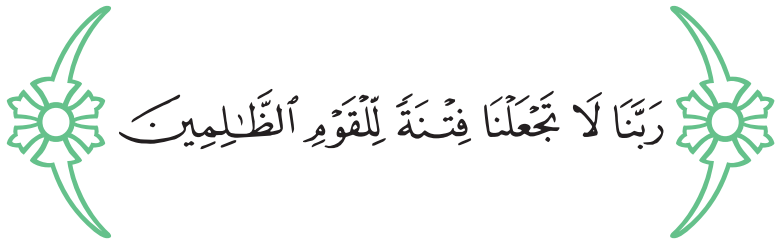

﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾ فَقَالُواْ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ يونس : ١٠ إن موسى ـ عليه السلام ـ قد ذكَّر قومه بأن من مقتضيات الإيمان بالله ـ تعالى ـ التوكل عليه وتفويض الأمر إليه، فقال قومه: على الله توكلنا، ثم سألوا الله ـ تعالى ـ أن لا يجعلهم فتنة للظالمين. قال مجاهد: ((المعنى: لا تُهلكنا بأيدي أعدائنا، ولا تعذبنا بعذاب من عندك، فيقول أعداؤنا: لو كانوا على الحق لم نُسلَّط عليهم، فيُفتَنوا)) وقال أبو مجلز: (يعني لا تُظهرهم علينا، فيروا أنهم خير منّا، فيزدادوا طغياناً) [1]

ولنا مع هاتين الآيتين المباركتين الوقفات الآتية:

١ ـ قد وقف قوم موسى ـ عليه السلام ـ الموقف المنهجي الذي ينبغي أن يقفه كل مسلم، فقد أعلنوا توكلهم على الله ـ تعالى ـ وإذعانهم له واستسلامهم لأمره، ثم طلبوا منه المعونة في علاقتهم مع أعدائهم، إنهم يطلبون من الله ـ تعالى ـ الغلبة عليهم،

١ ـ الجامع لأحكام القرآن ٨: ٣٧٠

وأن لا يمكِّنهم من رقابهم، والمسلم حين يطلب من الله ـ تعالى ـ المعونة على شأن من الشؤون أو في حاجة من الحاجات، فإنه يعلم أن عليه دوراً يقوم به، وهو الأخذ بالأسباب، وبذل الوسع والطاقة في سبيل تحقيق ما يطلب المعونة عليه من ربه فإذا طلب العبد من الله أن يرزقه رزقاً وافراً، كان عليه أن يوسِّع نشاطه، ويزيد في حركته، وإذا طلب من الله ـ تعالى ـ النصر على الأعداء، أخذ في إعداد العدة التي يتطلبها النصر، وإذا طلب من الله ـ تعالى ـ أن يُصْلح علاقته مع زوجه، فإنه يحسِّن علاقته به، ويسير في درب الإصلاح وهكذا... وكأنَّ المسلم حين يسأل الله شيئاً يقوم بفتح وعيه الشخصي على واجباته الشرعية والحضارية، وحين نفهم الدعاء على هذا المستوى من الملاحظة، فإنه يكون علينا أن نسأل أنفسنا عن الجهود الذاتية التي قمنا بها من أجل بلوغ ما نسأل الله ـ تعالى ـ أن يُبلِّغنا إياه. ومن هنا فإن على المسلم حين يدعو، ولا يستجاب له أن يحاسب نفسه على التقصير في الأخذ بالأسباب عوضاً عن اليأس والقنوط.

٢ـ يحتمل قول قوم موسى: ((لا تجعلنا فتنة للقوم الظالمين المعنيين اللذين أشار إليهما المفسرون: معنى فتنة المؤمنين من خلال انتصار الكافرين، ومعنى فتنة الكافرين من خلال هزيمة المؤمنين ونزول البلاء بهم، والمعنى العميق للحالتين واحد، إن الناس حين يُهزَمون، أو يعيشون حالة انحطاط شامل، يقومون بمراجعات كثيرة، وهذه المراجعات قد تمسُّ بعض عقائدهم وأصولهم ومناهجهم، وليس أهل الإيمان بمنجاة من هذا، فالمؤمنون يرون أن اتباعهم لدين صحيح كافٍ لتوفير كل أسباب النصر والازدهار، فإذا لم يحدث ذلك تسرَّب الشك، أو ما هو قريب من الشك إلى نفوس بعضهم. ونحن نرى اليوم ممن ينتسبون إلى الإسلام من يتحدث عن بعض الشعائر

والأحكام الإسلامية بأنها سبب تخلف المسلمين، وما كان لهذا أن يقال لو كانت الأمة في حالة نهضة وازدهار.

في المقابل فإن هزيمة المسلمين وانحطاطهم وارتباكهم في أمور معاشهم قد يكون فتنةً للكافرين والظالمين حين يقارنون أحوالهم المزدهرة بأحوال المؤمنين البائسة، وبذلك يكون أهل الإيمان هم السبب في افتتان أهل الكفر وتماديهم في طغيانهم لأنهم يعتقدون أنهم على الحق. إذن الحالة السيئة للمسلمين يمكن أن تؤذي أهل الإيمان، وتؤذي أهل الكفر في آن واحد، لكنَّ عملها يكون بطريقة مختلفة.

٣ـ في الآية إشارة لطيفة تبدو لنا عند تفسيرها على المعنى الثاني حيث يدعو المؤمنون ربهم ألا يجعلهم سبباً لإيقاع الظالمين في الفتنة، وهذا إن دل على شيء، فإنما يدل على النبل الذي ينبغي أن يكون في قلب كل مسلم، إذ إن نفوس أهل الإيمان تنطوي على حب الخير لكل الناس، وإن الهداية، وسلوك الصراط المستقيم في ذروة الخير والمعروف، وهكذا فإن علينا جميعاً أن نُشْفق على الآخرين، ونمدَّ لهم يد المعونة، ونحاول ألا نكون في وضعية تؤدي إلى ضلالهم وإغوائهم، وما أحوجنا إلى إحياء هذا المعنى في نفوس الأمة في هذه الأيام!.

٤ـ إن حالة التخلف الصناعي والعمراني والإداري الذي يعيش فيه معظم الشعوب الإسلامية أساءت إساءة بالغة إلى الإسلام، والحقيقة أننا نعاني من نوعين من التخلف: تخلف عن تعاليم ديننا، فنحن في حاجة إلى أن نتقدم ونرتقي إليه، وتخلف عن زماننا، فنحن في حاجة إلى مساعدات ومنتجات الأمم المتقدمة في معظم شؤون حياتنا. قد يقول قائل: لا يصح للآخرين أن يعتقدوا أن حال المسلمين تعكس مبادئ الإسلام على نحو كامل، فهناك فرق بين الإسلام وبين المسلمين..

هذا صحيح لكن الحقيقة أن الناس في البلدان الأخرى لا يعرفون هذا التفصيل، وهم يقولون: إن كل الأمم تتحدث بكلام منمَّق عن مبادئها وأخلاقها، لكن الذي يصنع الفرق بين الشعوب هو واقعها العملي. وقد عبَّر عن هذا المعنى العديد من الغربيين الذين دخلوا الإسلام من خلال الاطلاع على بعض الكتب الإسلامية، ولا أستطيع أن أنسى قول أحدهم بعد أن جاء إلى إحدى الدول العربية: الحمد لله أنني تعرفت على الإسلام، وأسلمت قبل أن أختلط بالمسلمين، وإلا لما كنت أسلمت، لأن أوضاع المسلمين وتعاملاتهم لا تدفع أحداً في اتجاه الدخول في الإسلام!.

٥ـ من الذين يَظْهرون بالمظهر الإسلامي، ويتمسكون ببعض السنن والشعائر الإسلامية من يقوم بعملية إجهاض منكرة للتعاليم والأخلاق الإسلامية، فينفِّرون أقواماً من الدين وأهله، ويشوِّهون مفاهيم أقوام آخرين عن الدين الصحيح، هناك فتيات يلبسن الثياب الضيقة جداً، ويضعن على رؤوسهن قطعة من القماش، فيظن بعض الناس أنهن محجبات الحجاب الشرعي، ثم يجدون بعضاً من المحجبات في الجامعات يقمن بالاختلاط بالشباب والمزاح معهم إلى حد تجاوز كل حدود الأدب والحشمة، مما يجعل قسماً من الناس يرى في الحجاب وفي المحجبات شيئاً سيئاً وسلبياً! وهناك شباب وكهول أطلقوا لحاهم، ثم تجدهم لا يتورعون عن الكذب وخلف المواعيد! وهناك رجال يصلون في الصف الأول خلف الإمام وهم يأكلون الربا، ويماطلون في دفع حقوق الناس، ويحرمون بناتهم من الميراث!. إن هؤلاء وأضرابهم يفتنون الناس، ويشوِّهون صورة الإسلام النقية!.

٦ـ إذا أرادت أمة الإسلام ألا تُفتَتن في أنفسها من خلال انتصار الأعداء عليها، وألا تكون فتنة لغيرها من خلال سوء أحوالها، فإنه ليس أمامها سوى التمسك الصحيح بأهداب

الدين، وسوى إصلاح أوضاعها السياسية والأخلاقية والاجتماعية والاقتصادية... إنها بهذا وذاك تستحق الخلافة في الأرض، وتصبح أوضاعها العامة عوامل جذب للتدين الصحيح، كما أنها تحصِّن نفسها من مخاطر إيقاع الأعداء لها في الفتنة.

والله من وراء القصد.

في
إشراقة آية

حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ

يقول الله ـ تعالى ـ ﴿ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۗ ﴾ سورة الرعد: ١١ وقال ـ سبحانه: ﴿ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٥٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٣﴾ ﴾ سورة الأنفال: ٥٢ ـ ٥٣.

تفيد آيتا الأنفال المباركتان أمراً جوهرياً، هو أن الله ـ تعالى ـ جواد كريم، حيث إنه إذا أسبغ فضله على طائفة من الناس، فإنه يديم نعماءه ما لم تغيِّر تلك الطائفة في أنفسها وسلوكها، أي ما لم تقصِّر في الشكر، أو تستخدم ما أنعم الله ـ تعالى ـ عليها به في معصيته، فإن الله حينئذ ينزع تلك النعمة منها. ونستفيد من آية الرعد أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ لا يغيِّر أحوال قوم من الأقوام من الخير والرخاء والعافية إلى الكرب والضيق والبلاء، كما أنه لا يغير أحوالهم من الكرب والشدة إلى الرخاء والنعمة إلا إذا قاموا بتغيير ما بأنفسهم، وما هو انعكاس لما في أنفسهم، وهو سلوكهم ومواقفهم

وعلاقاتهم، وهذا دليل عدله ـ سبحانه ـ فهو يعامل الناس بأعمالهم من خير وشر دون محاباة لأمة على أمة، وفي هذا تكريم عظيم للإنسان، حيث جعل ما في بيئته تابعاً له، فإن صلح أصلح له ما يعجز عن إصلاحه، وحباه ما ليس في متناول يده، وإن فسد، وخان الأمانة رفع يده عنه، ووكله إلى نفسه، ونزع منه الكثير من نعمائه. وفي هذا إشعار للإنسان بأنه مركز الكون، ولمَ لا وهو الذي سخر الله له ما في السموات وما في الأرض، كما أن فيه ما يدل على أن الإنسان يتحمل مسؤولية أعماله على نحو كامل، وعليه أن يتصرَّف على هذا الأساس

ولنا مع هذه الآيات المباركة الوقفات التالية:

١ ـ إنَّ فطرَ الله ـ تعالى ـ شؤون الحياة عامة والإنسان خاصة على التغيِّر يشتمل على رحمة كبرى بالعباد، بل أرى فيه كرةً ثانية على صعيد العدالة الإلهية المطلقة، إذ إن الناس يولدون في ظروف متفاوتة تفاوتاً كبيراً، وبعض تلك الظروف يكون ممتازاً ومحفِّزاً، ومساعداً على الازدهار ونيل السعادة، وبعضها يكون مؤلماً للغاية كما هو شأن من يولد في مخيم للاجئين، ومن يولد وعنده عاهة دائمة، ومن يولد في بيت بائس ومنقسم على نفسه... ولولا ما بثه الله ـ تعالى ـ في الكون من سنن التغيير لظلَّ هؤلاء يعيشون حياة مملوءة بالكروب بسبب الظروف الصعبة التي ولِدوا فيها. ومن هنا وجب أن ننظر إلى هذه السُّنَّة على أنها مظهر من مظاهر رحمة الله ـ تعالى ـ تصوروا معي لو كان المرء يؤخذ بذنبه بعد وقوع الذنب مباشرة دون إتاحة أي فرصة للتوبة والمراجعة والتغيير، كم سيكون الوضع شاقاً ومخيفاً ؟!.

٢ـ من الواضح أن معظم الناس يعتقدون بوجود أخطاء في حياتهم، ووجود عقبات ومشكلات، وهذه وتلك تكون موجودة بسبب قصورنا الذاتي وبسبب

رعوناتنا وأهوائنا، وبعضها يكون بسبب تجاوزات الآخرين، كما أن بعضها يكون بسبب الوضعية العامة، أي مجهولة المصدر... ونحن نلاحظ أننا ماهرون جداً في تشخيص المشكلات التي سبَّبها لنا الآخرون، لكن الذين يتحدثون عن دورهم الشخصي في أشكال معاناتهم يظلون قليلين؛ وهذا لأن ذلك سوف يجعلهم يُدِينون أنفسهم، وتلك الإدانة مع ما فيها من توبيخ للذات، تتطلب مجاهدة النفوس والإقلاع عن الأخطاء والخطايا الشخصية، وهذا ما لا يريده معظم الناس؛ لكن الآية التي نحن بصددها، توضِّح بجلاء أننا إذا أردنا تغيير ظروفنا ونوعية علاقات الآخرين بنا، فإن هناك طريقاً واحداً لذلك هو أن نغيِّر ما في قلوبنا ونفوسنا، وأن نغِّير في سلوكنا وأعمالنا، وهذا بيان واضح للناس، يجعلهم فعلاً أمام مسؤولياتهم بدقة متناهية!.

وما يقرره الله ـ تعالى ـ في الآيات المباركة التي نحن في صددها هو ما انتهى إليه زعماء الإصلاح في العالم اليوم، كما أنه يشكل العمود الفقري لأدبيات التنمية البشرية التي يحتفل العالم بها أعظم الاحتفال في هذه الأيام؛ فسبحان العليم الخبير!

٣ـ إن الآيات الكريمة التي نحن بصددها تشير بوضوح إلى أن ما ننتظره من معونة الله ـ تعالى ـ ونصره وتوفيقه... ينبغي أن يرتبط بما نُحدثه في حياتنا من التغيير الإيجابي، والذي يتمثل أساساً في فعل ما يُرضي الله ـ تعالى ـ والكف عما يُغضبه، كما يتمثل في مجاهدة الأنفس والأخذ بالأسباب والإعداد لكل أمر العدَّةَ التي تناسبه. فإذا لم نقم بشيء من ذلك فكيف سيغيَّر الله لنا الأحوال والأوضاع العامة؟ إن شيئاً من ذلك لن يحدث على حسب ما نفهم من الآيات التي أمامنا. إن كثيراً من المسلمين مضى عليهم عشرات السنين وهم يطلبون من الله ـ تعالى ـ النصر على اليهود وتحرير فلسطين، ولم يحدث شيء من ذلك. وهناك مسلمون كثيرون

يطلبون السعة في الرزق منذ سنوات كثيرة، ولم يوسِّع الله ـ تعالى ـ عليهم. وهناك وهناك... الله ـ سبحانه وتعالى ـ رحيم بعباده لطيف بهم، لكن هذه الدار دار أسباب وعمل وابتلاء وتكليف، فكيف يكون النصر على اليهود ونحن لا نعد العدة المطلوبة للنصر؟ وكيف يوسِّع الله رزق عبد، لا يزيد في نشاطه، ولا يعامل الناس بأخلاق التاجر الصدوق، ولا يحسِّن معرفته بمهنته وعمله؟

إن المعاصي حين تشيع في الأمة، ولا يقوم الأخيار من أبنائها بمحاصرتها ولا ينهون عنها بالقدر الكافي، أي لا يُحدثون مبادرات تتناسب مع الفواحش والأخطاء المعلَنة يحرمون أنفسهم من بركات الدعاء واستجابة الله ـ تعالى ـ لهم، وقد ورد هذا المعنى في قوله ﷺ: ((والذي نفسي بيده لتأمرُنَّ بالمعروف ولتنهونَّ عن المنكر، أو ليوشكَنَّ الله أن يبعث عليكم عذاباً، ثم تدعونه، فلا يستجيب لكم))[1].

٤ـ إن الآيات الكريمة نصت على تغيير ما في النفوس، أي تغيير المشاعر والتوجهات والاهتمامات وتخليص القلوب من أمراضها والنفوس من رعوناتها، وهذا هو التغيير الجوهري والأساسي، لأن الأصل في سلوك الإنسان أن يكون صدى لمعتقداته ومبادئه وروحه ونفسه. ويدلنا القرآن الكريم على أن تغَّيرت المشاعر ممكن من خلال العديد من الطرق، منها تغيير الأفكار، فالمرء إذا تغيرت أفكاره حول شيء تغيَّرت مشاعره، كما حدث لبعض الرهبان والقسِّيسين حين سمعوا القرآن الكريم: ﴿وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعۡيُنَهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلۡحَقِّۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكۡتُبۡنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ سورة المائدة: ٨٣.

١- حديث حسن رواه الترمذي.

ويمكن للنفوس أن تتغير وللمشاعر أن تتبدل من خلال الإحسان والمعاملة الحسنة، على نحو ما نجده في قوله ـ سبحانه: ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾ سورة فصلت: ٣٤ لكن هناك من يجادل في تغيير الطباع، ويعتقد أنها لا تتغير، ولهذا فلا فائدة من العمل على ذلك. ونحن نقول: إن تهذيب الطباع الرديئة ممكن بإذن الله ـ عز وجل ـ إذا جاهد المرء نفسه، وجعل وعيه يسيطر على أنشطته وعلاقاته. ومن وجه آخر فإن المهم هو السلوك، فإذا كنتُ لا أرتاح لشخص من الأشخاص، وحاولت أن أكوِّن صورة إيجابية عنه، فلم أستطع، فإن عليَّ ألا أغتابه، ولا أؤذيه، وأن أساعده إذا احتاج إلى المساعدة... إنني إذا فعلت ذلك أكون قد فعلت شيئاً مهماً أؤجر عليه. إذن يكون تغيير ما في النفوس باقتلاع الأمراض أحياناً وبالمقاصد الحسنة والنوايا الطيبة أحياناً أخرى، فإذا عجز المرء عن شيء من ذلك، فإن عليه أن يجعل سلوكه في معزل عنه، وهذا ممكن. وحين يرى الله ـ تعالى ـ من عبده حرصه على تغيير نفسه وبذله لجهده في ذلك، فإنه يُسعفه بمعونته، وينزل عليه من توفيقه وبركاته، وهو أرحم الراحمين.

في
إشراقة آية

وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا

فطر الله ـ تعالى ـ الإنسان على حب الدنيا والتعلق بها، والسعي إلى الاستحواذ على أكبر قدر منها، ويبدو أن كل الأسوياء من بني آدم معترفون بهذه الحقيقة، وحركتهم اليومية تؤكد هذا المعنى، وإن كان لدى كثير منا شعور عميق بأن التهافت على جمع المال ينطوي على ما يمسّ الكرامة ويجرح المروءة، وقد أعجبني ما نُقل عن أبي الوفاء ابن عقيل من قوله: (من ادعى أنه لا يحب الدنيا، فهو عندي كذاب إلى أن يثبت صدقه، فإذا ثبت صدقه ثبت جنونه)!. ولدينا عدد من النصوص التي تؤكد حب الإنسان للمال، منها قول الله ـ تعالى-: ﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾سورة العاديات: ٨ وقوله: ﴿لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَـٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ ﴿٤٩﴾﴾سورة فصلت ٤٩.

وقال ـ سبحانه وتعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَـٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَـٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَـٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ﴾ سورة آل عمران: ١٤ ولدينا أحاديث معروفة

ومشهورة في بيان تعلّق الناس بالمال وعدم شبعهم منه، لا داعي لسوقها. ولعلي أشير في مسألة المال وحبه إلى المعاني الآتية

١ـ في زماننا هذا ازدادت محورية المال في حياة الناس، فقد انتهى عصر الأشياء المجانية، أو كاد، وكما أن الناس يشترون الماء النقي من أجل الشرب، فقد يشترون قريباً الهواء النقي من أجل التنفس! أسعار كل الأشياء في ارتفاع مستمر، وأحياناً يكون الشيء متوفراً، ويرتفع سعره لأسباب غير معروفة. هذه الوضعية جعلت الناس يخافون كثيراً من المستقبل، وما عسى أن تأتي به الأيام؛ وصاحبَ هذا تراجعٌ في درجة التكافل والترابط الاجتماعي، مما أكَّد للناس أن الوسيلة الوحيدة التي يمكن أن يواجهوا بها صعوبات الحياة هي (المال) وهذا أدى إلى اندفاع رهيب، وفي كل اتجاه من أجل الحصول على أكبر قدر منه، بقطع النظر عن مدى ما يمكن أن يكون فيه من محظور ومشبوه! وعزّز هذه الوضعية قيام ظاهرة العولمة على نظام التجارة، وقد ثبت أن هذا النظام هو أقوى النظم الثقافية على الإطلاق، وهو نظام لا يلتفت كثيراً إلى مسألة الحلال والحرام، وإنما يركِّز على الحصول على أكبر قدر من الربح، وقد أشاع بعضَ الأخلاق السيئة، مثل المساومة والتنازل والكذب في مديح السلع، والتخلف في سداد القروض، وما شابه ذلك!

وقد ورد في الحديث الصحيح ما يشير إلى انتشار (التجارة) في آخر الزمان وإلى تقارب الأسواق، وقد حدث هذا اليوم بالفعل.

٢ـ إن القرآن الكريم يوجِّهنا، ويؤكد علينا بأن كل ما في أيدينا من خيرات وعطايا هو أداة ابتلاء لنا، ومنه المال، حيث يقول ـ سبحانه: ﴿ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ سورة الأنفال: ٢٨ وقال ـ سبحانه: ﴿ كُلُّ

نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۗ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةًۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾ سورة الأنبياء: ٣٥ إن الإسلام يحاول كبح جماح الإنسان والحد من حرصه على اقتناء المال عن طريق تقنين الحصول عليه، فلا يصح للمسلم أن يكتسبه عن طريق الربا أو العقود الفاسدة، ولا عن طريق الرشوة أو النصب أو الكذب أو التحايل .... كما يحاول كبح جماحه عن طريق تحديد قنوات صرف المال والانتفاع به، حيث لا يجوز للمرء أن ينفقه في إسراف أو تبذير أو محرَّم أو للحصول على أشياء غير مشروعة أو رياءً وسمعةً ومخيلةً... وكون المال هو أداة اختبار يُلقي في روع المسلم مسلَّمة جوهرية، هي أن الفرح الحقيقي لا ينبغي أن يقترن بالحصول على المزيد من المال، وإنما بالنجاح في استخدامه على نحوٍ يقرِّب العبد من ربه، ﷻ.

٣ـ ما دمنا لن نشبع من المال، وما دمنا سنظل مشغولين بالحصول على المزيد منه، فإن علينا إذن أن ندرك أن علينا حقوقاً لربنا ولأنفسنا ولأهلنا ومجتمعاتنا، ولا بد من أداء تلك الحقوق. إن الاعتدال والتوسط ومراعاة جوانب الحياة كافة يجعلنا أكثر حكمة في التعامل مع المال، وعلى كل من جَمَع ثروة طائلة، أو حقق نجاحاً باهراً أن يسأل: على حساب من تمَّ ذلك ؟ فقد يكون على حساب الدين والخُلُق والمروءة، وقد يكون على حساب الأسرة والأبوين، وقد يكون على حساب الصحة والاستقرار...

٤ـ إن الله ﷻ ذكر حب الإنسان للمال في معرض الذم لأن الحب الشديد للمال هو في نهاية المطاف حب للدنيا، وفيه الكثير من الانشغال عن الآخرة والاستعداد لها، ولهذا فإن علينا أن نسعى إلى تخفيف الطلب على المال من خلال

إنعاش الجانب الروحي لدينا، وتقوية الصلة بالله ـ تعالى ـ ومن خلال تعزيز الأنشطة الدعوية والأدبية والاجتماعية الخيِّرة، حيث إن اختناق المجتمع يكون ببطء حراكه الاجتماعي؛ والناس يحبون أن يحققوا ذواتهم، وأن يشعروا بالتفوق والتقدم والنجاح، وهذا قد يتم عن طريق رئاسة جمعية أو منظمة أو نشر فكرة أو محاربة آفة من الآفات الأخلاقية والسلوكية، وإذا لم يجد الناس الفرصة للقيام بذلك، فإنهم يتجهون إلى جمع المال من أجل استخدامه في التفوق على الأقران ومباهاة الزملاء وتوليد الإحساس بالنجاح، وهذا يضاعف المشكلة؛ إذ إن المال بطبيعته يثير التوتر والصدام؛ لأن المعروض منه دائماً أقل من المطلوب، فإذا صار هو الوسيلة الوحيدة للشعور بالتميز، فإن الصراع على اقتنائه سوف يحتدم، وسوف يسلك الناس كل سبيل إلى الوصول إليه. وقد صدق من قال: إن درهم مال يحتاج إلى قنطار عقل، ويحتاج اليوم إلى قنطار من الدين أيضاً

والله المستعان.

في
إشراقة آية

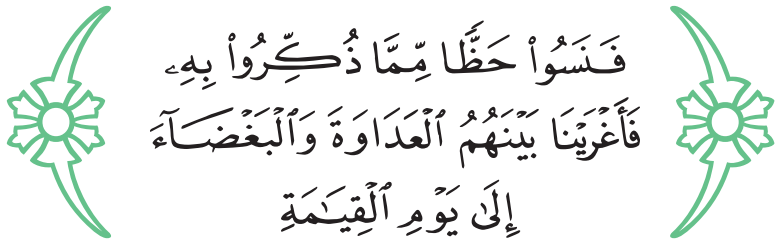

تشير الآية الكريمة إلى ما وقع فيه النصارى على مستوى الكليات حين جعلوا المعبود الواحد ثلاثة، ومنحوا البشر المخلوقين المحتاجين ما ليس لهم من العبادة والتقديس والدعاء والرجاء، وحين حرَّموا الحلال، وأحلوا الحرام، فخرجوا بالرسالة السماوية عن خطها الأصيل الممتد الذي خطه الأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام- ودعوا الناس إليه، وجرَّ ذلك عدداً من الانحرافات على العقيدة والشريعة والسلوك، وكانت نتيجة ذلك خروجاً عن سبيل الله؛ ليسلكوا سبلاً تتوازى معه أحياناً وتتقاطع أحياناً أخرى، وكانت عواقب ذلك بغضاء وعداوة هيَّجها الله ـ سبحانه وتعالى ـ بينهم حتى أصبحوا مللاً وفرقاً، بين كل واحدة والأخرى من البعد والخلاف كما بين أهل دينين مختلفين، وصار كل منهم يتقرب إلى الله بمعاداة الآخر! ولما كانت سنن الله ـ تعالى ـ ماضية في الأمم جميعاً على نحو واحد دون محاباة لأحد كان علينا أن نقف أمام هذه المسألة وقفة استبصار نُفيد منها في حياتنا العامة، حتى لا يحيق بنا ما حاق بغيرنا.

والذي نود أن نقوله هنا هو: أن في الرسالة السماوية التي أكرمنا الله ـ تعالى ـ بها نظاماً للأصول والكليات يمثل المدار الأعظم الذي تتحرك في فلكه الجزئيات والفرعيات، وهذه الأصول لوضوحها ورسوخها وقطعية ثبوتها ليست مناطاً للاجتهاد والجدل والنظر، وهي أصول لا تقبل التطوير والتحوير؛ لأن أداءها لمهام كثيرة أبدية يستلزم ذلك، وإلا لما أمكن استمرار الانتفاع بها. وهذه الأصول تمثِّل إطاراً من الثوابت التي لا تقبل الحركة لأن وظيفتها تنظيم حركة الإنسان وتوجيهها. وإلى جانبها هناك جزئيات وفرعيات كثيرة تختلف فيها الأنظار والاعتبارات بين جيل وآخر، وأهل بلد و بلد آخر، والناموس العام الذي يحكم هذه وتلك أن ما لا يختلف باختلاف الزمان والمكان والإنسان جاء مفصَّلاً واضحاً، وهو يتسم بالثبات لانعدام دواعي التغيير، وما كان يختلف باختلاف الأزمنة والأمكنة والأشخاص جاء مجملاً، ليس فيه أكثر من توجيهات عامة هادية، حتى يتاح للمجتهدين المسلمين النظر فيه وتفصيله بحسب ظروفهم وحاجاتهم المتغيرة والمتجددة، وعلى سبيل المثال فإنه لن يأتي على الناس زمان يرون فيه أنفسهم محتاجين لأن يضيفوا صفة جديدة لله ـ تعالى ـ لم يُنَصَّ عليها من قبل، أو أن يصلُّوا الظهر أربع ركعات، أو يقفوا على عرفات في اليوم العاشر وهكذا.... فوضوح الثوابت يساعد في رسم المسارات العامة لحياة الأمة، وتحديد قضاياها الكبرى، وإجمال الفرعيات يتيح لها الحركة والتجدد والتكيف وإعادة ترتيب الأولويات وإثراء فقه الموازنات...

وهناك اليوم جهود جبارة تُبذل من قبل فرقاء أخفقوا في تقديم شيء ذي بال لأمتهم، وعجزوا عن التفاعل مع أُطرها الثقافية... جهود تُبذَل للتشكيك في تلك الثوابت وطريقة تحديدها وبلورتها من قبل السلف، حتى يتاح لهم صرف الأمة عن

وجهتها التي ولاها الله إياها. وهم يتذرعون بمقولات نقد التراث واستلهامه وإعادة قراءته ووضعه في إطاره التاريخي.. وهذه المصطلحات كلها حق على مستوى النظر، لكنهم لم يريدوا منها إلا الباطل، وإذا ما كُتب لهم النجاح في ذلك فإن هذا يعني أن الأمة ستدخل في نفق مظلم تفقد فيه اتجاهها وانسجامها مع نظام ثوابتها، وسيكون ذلك نسياناً لحظ عظيم مما ذُكِّرت به، وسيكون العاقبة عداوة وبغضاء وصداماً، إن كل انحراف على مستوى السلوك يمكن تقويمه إذا سلمت الأصول، أما إذا ضاعت الأصول، وأما إذا تحول المعروف إلى منكر، وتحول المنكر إلى معروف، فإن الخلاف يصبح ضربة لازب، إذ ينهدم الإطار المرجعي، والمستند الفلسفي الذي تتحاكم إليه الأمة في كل شئون حياتها! إن مقاومة تلك الجهود المخرِّبة واجب في عنق كل أولئك القادرين على مقارعة الحجة بالحجة؛ ولن يكون ذلك بالخطابة ولكن بالطرح المتأني وبالفكر المستنير المتوقد؛ والله المستعان.

في
إشراقة آية

وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ

قال الله ـ سبحانه: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ الإسراء: ٧٠ يمنُّ الله ﷻ في هذه الآية الكريمة على بني آدم بما حباهم إياه من علوِّ المنزلة، وتوفر الإمكانات والاستعدادات التي حجبها عن غيرهم، وبما هيَّأ لهم من سبل العيش الكريم للتمتع بما سخره لهم. ولعلنا نوجز هنا بعض مظاهر ذلك التكريم

١ـ أمدَّ الله الإنسان بنعمة العقل الذي هو مجموع الإمكانات الذهنية التي تمكِّنه من إدراك الأشياء على وجهها الصحيح، كما تمكِّنه من إيجاد البدائل والخيارات وحل المشكلات المختلفة....

٢ـ ميز الله الإنسان عن باقي المخلوقات بالنطق الذي يتمكن به من البيان البليغ، والتعبير عن مشاعره وأفكاره، ويمكِّنه من تبادل الخبرات والتجارب مع أبناء جنسه.

٣ـ لما كان الإنسان لا ينهض بالعقل وحده، ولا يمكنه من خلاله إدراك منطق العلاقات الكلية في هذا الكون أرسل له الرسل تترى، فكان العقل بمثابة العين

المبصرة، وكانت الرسالات بمثابة الضياء فإذا كانت العين سليمة أمكنها رؤية كل الأشياء التي غمرها النور.

٤ـ سخَّر الله ـ سبحانه ـ للإنسان كل ما في الأرض، ومكَّنه من إدراك كثير من العلاقات القائمة بين الأشياء حتى يستطيع استثمار الطبيعة على الوجه الأكمل، كما بثَّ من النواميس ما يجعله يستفيد من بعض الأجرام السماوية كالشمس والقمر والنجوم، و وَضَع –سبحانه– من التشريعات ما يحفظ الطبيعة من التدمير والاستهلاك الجشع؛ حتى يطول أمد انتفاع الإنسان بها؛ فجعل الله المبذرين إخوان الشياطين في أن كلاً منهم يُفسد، ويهدم ما حوله، ولم يبح قتل الحيوان لمن لا يريد الانتفاع به، وحث على الاقتصاد في الماء مهما كان كثيراً، كما حث على النظافة الشخصية والعامة؛ حتى لا تتلوث البيئة، وتصبح غير صالحة للعيش الكريم.

٥ـ متَّع الله ـ تعالى ـ الإنسان بالإرادة الحرة التي يتمكن بها من اختيار الاتجاه المناسب له، والخروج من أسر غرائزه وشهواته، وبنى على ذلك مساءلة الإنسان عن أعماله؛ حتى تبتعد حياته عن العبث واللهو والفراغ والضياع والعدوان.

٦ـ مدّ الله ـ تعالى ـ في وجود الإنسان، فجعله يتجاوز الحياة الدنيا إلى الآخرة؛ فوجوده ليس عارضاً كوجود الجماد والحيوان، وعزَّز ذلك بفطره على النزوع إلى البقاء وحب الخلود؛ فهو متشوِّف إليه أبداً، ومستعد لأن يتخلى عن كثير من رغباته العاجلة في سبيل الآجل المنتَظَر، مما خفَّف من غلواء التزاحم على متاع الدنيا، وأشاع نوعاً من التسامح في بعض الأمور.

٧ـ كرَّم الله ـ تعالى ـ هذا الإنسان حين راعى أنواع قصوره الجِبلِّيِّ، وحين راعى الطوارئ والعوارض التي تُوقعه في الحرج، فسامحه بما يقع منه نتيجة خطأ أو نسيان،

كما خفَّف عنه في أحوال الاضطرار والإكراه والمشقَّة التي لا تُحتمل.

٨ـ لم يؤاخذ الإنسان بذنب ارتكبه غيره، ولم يحمِّله عواقب أخطاء الآخرين، ومع هذا وذاك ترك له أبواب التوبة والأوبة مشرعة مِنَّة منه وكرماً. فهل قابل الإنسان كل أشكال هذا التكريم بمزيد من العبودية والانكسار والالتزام ؟

الواقع أن أكثر بني الإنسان خالفوا شروط الاستخلاف وأهدافه، فعملوا على استنزاف كل موارد الطبيعة بصورة جشعة وغير مسؤولة، ولوَّثوا البيئة، وأشاعوا في الأرض الفساد، وأعرضوا عما أوصتهم به رسالات السماء كافة من القيام بأمر الله والعمل للدار الآخرة ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ إبراهيم: ٣٤

ولابد إن استمر أهل الأرض على هذا من أن تنزل بهم السنن التي نزلت بمن قبلهم، فهل من متدبرّ؟ وهل من متذكِّر؟.

في
إشراقة آية

لِتَعَارَفُوٓاْ

قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ١٣ ﴾ الحجرات : ١٣

في هذه الآية نداء عام إلى بني الإنسان ببيان الأصل المشترك، فهم ينحدرون من أب واحد وأم واحدة، وهم لأسباب كثيرة متفاوتون في قضايا متعددة، لكن الخلاف الذي بينهم يمكن اعتباره بوجه من الوجوه تنوعاً، والتنوع يجمعه إطار عام واحد، وهو يقتضي التكافل، لا التنافر، وهذا واضح من لفظ (لتعارفوا).

إن ذلك التخالف والتنوع بين البشر مدعاة جادة إلى السعي نحو التفاهم والتعاون المثمر كي يتم إعمار الأرض وبسط سلطان الحق وإشاعة الخير فيها. إن المنهج العام للإسلام لا يحبذ التوتر العالمي، ولا يسعى إليه للأسباب الآتية:

١ـ إن الإسلام دعوة لإصلاح العالم وإنقاذه، والتوتر عدو لدود لانتشار المبادئ والأفكار، ومن هنا نفهم بعض سر قبول النبي ﷺ بالشروط المجحفة لكفار قريش في صلح الحديبية، حيث أراد أن تُلقي الحرب أوزارها، ليعَّم السلامُ الحجازَ، وينخفض

التوتر، ويصبح هناك مجال لإعادة النظر فيما يُعرض على القبائل هناك من الدينونة لرب العالمين، وهذا الذي حدث.

٢ـ إن التوتر العالمي يخدم أصحاب القوة، ولم تكن القوة في يوم من الأيام أفضل ما يملكه المسلمون، وإنما المبادئ والأسس والقيم والنظرات الشمولية الثاقبة.. ومن هنا دخل من دخل من الناس في الإسلام عن طريق الاقتناع والحب لا تحت صليل السيوف.

٣ـ إن التوتر العالمي يؤدي إلى انهيار الحياة الفطرية وتدهور البيئات ونضوب الموارد على هذا الكوكب، مع أن الإسلام يريد من بني البشر أن يسعوا إلى إبقائه صالحاً لحياة طيبة كريمة رضية، ولهذه الأسباب، وأسباب أخرى يحث الإسلام شعوب الأرض على التعارف والتعاون، والبحث عن أوجه التشابه بدل النفخ في دواعي النزاع والشقاق، لكن الإسلام مع هذا يرفض بأن يكون ثمن السلام العالمي استغلال الأقوياء للضعفاء، واستهلاك موارد الطبيعة بصورة جشعة لم يسبق لها مثيل، أو سيادة أفكار الفجور والانحراف والغواية... ومن هنا جاء تذييل الآية الكريمة بقوله سبحانه: ((إن أكرمكم عند الله أتقاكم)) فالتقوى بمعناها الشامل هي التي ينبغي أن تكون معيار التفاضل في الساحة الدولية، لا القوة ولا النفوذ، إن الحاجة إلى التفاهم العالمي ليست مطلباً للفقراء، ولا لأبناء الدول النامية، وإنما هي حاجة عامة، لأن مشكلات التصحر وتلوث البيئة والهواء وارتفاع درجة حرارة الأرض ونضوب مواردها ستطال آثارُها العالم كله دون استثناء، وإن عالم الفقراء المجْهَد النازف لن يقوى على الاستهلاك المحفِّز للإنتاج بعد اليوم، وهذا سيُلحق أوخم العواقب باقتصاديات الدول المتقدمة، إنها لن تجد من يستهلك منتجاتها، ومن ثم،

فإن كل الأنظمة العالمية الجديدة، والقديمة سوف تصير إلى الإخفاق والزوال ما لم تراع التعددية والخصوصية الثقافية، وما لم تقم على العدل وحماية الحق وإنصاف المظلوم وترشيد استخدام الموارد المتاحة، وإذا ما تم ذلك فإنه سيكون المدخل الصحيح إلى سلامٍ عالمي يقترب من الاستفادة من تراث الأنبياء، والاهتداء بخاتمة الرسالات، وسيشكّل ذلك كله الفصل الأول من رواية العودة إلى رياض العبودية لرب العالمين.

في
إشراقة آية

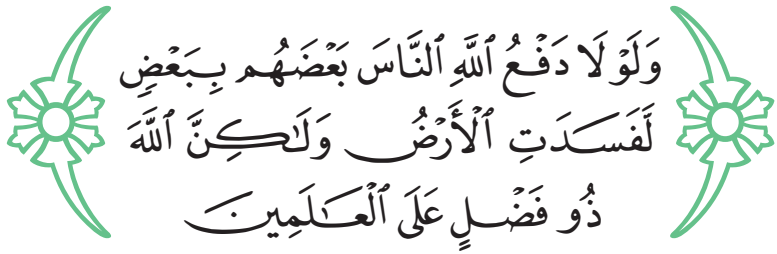

ذكر الله ـ تعالى ـ هذه الآية في سياق الحديث عن المعركة الفاصلة بين المؤمنين بقيادة طالوت، وبين الكافرين بقيادة جالوت، وما انتهت إليه من قتل داود جالوت مع صغر سن داود وقلَّة عدد جنده. وتشير الآية الكريمة إلى سُنة من سنن الله في الكون، هي سنة (المدافعة) هذه السنة التي لا تجعل الخير خامداً ساكناً في حيِّز أوجهة كما لا تسمح للشر أن يكون كذلك، فبينهما من التزاحم والتدافع ما ينشِّط الحياة، ويُطلق الطاقات المذخورة في عقول البشر ودمائهم. وقد فهم بعض المفسرين أن التدافع يجري بين أهل الشر والفساد فيتحولون إلى فرقاء يحجَّم بعضهم بعضاً، وهذا قصور؛ إذ إن الآيات السابقة على هذه الآية تحكي قصة المدافعة بين أهل الخير وأهل الشر، بل إن المشاهد في هذه الحياة أن سنة التدافع عامة؛ فهناك تدافع منوَّع يشتد كلما اشتد الخلاف بين المتدافعين ويضعُف، ويتهمش كلما اتحدت المنطلقات والأهداف إلى أن ترى شيئاً من التدافع في نطاق الأسرة الواحدة. وهذا التدافع ضروري لحفظ التوازن الحيوي على صُعُدِ الحياة كافة، فلا يطغى جانب على جانب

ولا عنصر على عنصر آخر؛ فمن خلال الفعل ورد الفعل يتم حفظ التوازن، كما يتم استخراج أفضل الإمكانات المخبوءة، ومن هنا فإن أولئك الذين يحلُمون بالعيش في عالم يسوده السلام والوئام، ويخلو من الصراعات، إنما يمرحون في حدائق من الوهم وأحلام اليقظة الوردية؛ فمفرزات العقائد ومعطيات التاريخ والصراع على الجغرافيا وإغراءات توسيع النفوذ، كل أولئك يجعل من منع الصراع ضرباً من المستحيل. وإن العالم اليوم أشبه بكتلة مضغوطة لا يمكن لجزء منها أن يتمدد إلا على حساب جزء آخر، هذا لا يعني بالضرورة ثبات أشكال الصراع ولا ثبات منطقه وأدواته، فلكل عصر صراعه، ولكل صراع منطقه ومحوره، والذين يملكون القدرة على فهم عصرهم ويملكون آليات إدارة الصراع هم الذين يربحونه، ومن هنا فإن الأمة إذا كان لها أن تختار صراعاً من الصراعات، فإن عليها أن تختار ساحة الصراع التي تمتلك أدواتها، وتُحسن المغالبة فيها، وواضح أن الاقتصاد هو محور صراع هذا العصر، وأن القادرين على التحكم في مفاصل حركته هم الذين يصبحون عمالقة، وإن لم يريدوا؛ أما أولئك الفقراء والمحتاجون والجياع، فسيظلون يبحثون عن مكان في ذيل القافلة إلى أن يتبدل محور الصراع، فتولد توازنات جديدة، وتبرز قوى جديدة.

فهل لأمتي من خيار ؟

في
إشراقة آية

قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ

كان من إكرام الله لهذه الأمة أن بعث فيها رسولاً من أنفسها يعلِّمها، ويزكيها، ويشكِّل عقولها على نحو معين يمكِّنها من بناء الحياة الدنيا على منهج الله ـ تعالى ـ ومراده. والناس في كل زمان ومكان ميالون للتعامل مع الحقائق على غير المنهج المطلوب، فكثير منهم يتيه عن إدراك الحقيقة بسبب نقص في خلفيته الثقافية، أو بسبب خلل في تربيته أو وسطه الاجتماعي...أو... وإيجاد بدائل عن الحقائق للتعامل معها فن يمارسه الناس في صور مختلفة، فقد تكون خوفاً من الأشباح، كما قد تكون تشاؤماً من دار أو اسم أو رقم... وفي عصرنا الحاضر تطور الهروب من الحقيقة إلى أشكال مختلفة أكثر تعقيداً، فمن الناس من يلقي اللوم في إخفاقه وأخطائه على الحظ، أو على الظروف المحيطة، أو على الاستعمار والقوى العظمى، وقد أراد القرآن الكريم من المسلم أن يقف وهو يتعامل مع الحقيقة أمام نفسه وجهاً لوجه انسجاماً مع العالم الذي نعيش فيه، وهو عالم الأسباب وعالم المقدمات والنتائج، والوقوف أمام النفس بالمراجعة والمفاتشة يعني بلوغ قمة الموضوعية، كما يعني وجود إمكانيةٍ

ما للإصلاح، إذ إن أدوات المرء التي يحتاجها في البناء والمدافعة قد تكون ناقصة أو غير موجودة، مما يجعل وقوع العطالة أمراً لا مفر منه، ولكن حين يكون الاتهام الأول موجَّهاً إلى القصور الذاتي، فإن الظروف الخارجية مهما ساءت يكون تأثيرها آنذاك محدوداً، فقد لا يستطيع المرء في بعض الأحيان أن يدعو إلى الحق الذي يؤمن به، أو لا يستطيع إحالته إلى واقع في دنيا الناس، ولكن ذلك لا يمنعه أبداً من أن يحيا في ظلال ذلك الحق في ذات نفسه، كما لا يوجد من يستطيع منعه من أن يموت في سبيله إذا اقتضى الأمر ذلك. وحين أصاب المسلمين ما أصابهم يوم أحد قال بعضهم: ﴿أَنَّىٰ هَٰذَا﴾ ؟ متعجبين من حلول الهزيمة بهم وهم جند الله وأولياؤه وجاء الجواب صريحاً ومباشراً: ﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ﴾، بسبب عصيان الرماة لأمر النبي ﷺ أو بسبب الخروج من المدينة، وقد كانت رغبته القتال فيها، أو بسبب قبول فداء الأسرى يوم بدر. وكان بالإمكان التعلل بأن أعداد المشركين كانت أكثر من أربعة أمثال المؤمنين، أو التعلل بأن عدة المسلمين أقل وأدنى من عِدَّة المشركين، إلى ما هنالك مما يمكن للعقل البشري أن يبتدعه، ولكن القرآن الكريم أراد أن يُشعرهم أن ما حلَّ بهم كان بسبب ضعف داخلي اعتراهم في صورة من الصور، وقد استفاد المسلمون الأوائل من هذا الدرس الثمين الذي دفعوا ثمنه دماءً وأشلاءً وآلاماً، وصار الانكفاء على الذات بالمحاسبة والمراجعة أحد الأسس التي يقوم عليها التصور الإسلامي في التعامل مع الأشياء والأحداث.. ومن هنا فإن عمر رضي الله عنه كان يخاف على جيوشه المعاصي والذنوب أشد من خوفه عليهم من عُدَد الأعداء وأعدادهم، إذ إن المعاصي رمز الوهن النفسي، والميل إلى الأهواء والشهوات مدعاة لأن يَكِلَ الخالقُ ﷻ الناس إلى أنفسهم، والذي ينظر في تاريخ

سلف الأمة يخرج بانطباع عام، هو أن جلَّ اهتمامهم كان منصرفاً لإصلاح ذواتهم، ومباشرة ما يمكن مباشرته من الأعمال استجابة للمنطق الذي رباهم عليه هذا الدين من التكليف على قدر الوسع، وعدم تضييع الممكن في طلب العسير أو المستحيل. قد تعلم أولئك الأخيار أن مباشرة الممكنات خير طريق لتذليل العسير وفق المقولة: ((إذا فعلنا ما هو ممكن اليوم صار ما هو مستحيل اليوم ممكناً غداً))

وهذا هو القرآن الكريم يخاطب المصطفى ﷺ بقوله: ﴿فَقَٰتِلْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ وَحَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأْسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ النساء: ٨٤

إنه تصور رائع لما ينبغي أن يكون عليه المؤمن من وجوب أداء الواجب وإبراء الذمة، ولو وقف وحده يعمل ويدفع.. وكأن هذا الحسَّ الذي كوَّنه الإسلام عند المسلم امتداد لما ربَّى الله عليه رسله الأخيار من قبل، فهذا موسى -عليه السلام- يدعو قومه إلى دخول الأرض المقدسة، فيدعو الله بضراعة مشوبة بالاستعداد لتنفيذ ما يملك تنفيذه حيث يقول: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ المائدة: ٢٥، واليوم كثيراً ما يجتمع أهل الغيرة والخير فينا، فيتحدثون في شؤون العالم الإسلامي من أدناه إلى أقصاه مستعرضين العذابات والآلام التي يعيشها ذلك العالم، ثم ينفضُّ المجلس بعد ذلك عن مثل ما اجتمع عليه دون أن يكون قد تغير شيء من ذلك الحال، وهذا في البداية يدل على أنه ما زال فينا ـ رغم ما أصابنا ـ بعض الأوتار الحية، ولكن النظر ينبغي أن ينصرف باستمرار إلى المحصَّلات والنتائج حتى لا ينطبق علينا المثل القائل: (أوسعتهم سبَّاً وأودوا بالإبل).

إننا حين نشرِّق، ونغرِّب نتجاوز أمرين مهمين:

الأول: هو أنفسنا، إذ إن الحقيقة الماثلة أن المسلمين إن كانوا متخلفين فنحن جزء منهم، وأعمالنا ومواقفنا جزء من واقع التخلف، فإذا أردنا أن نقوم بعمل ذي شأن فليتعاقد وليتعاهد الذين يبحثون شؤون العالم، وهم متكئون على الأرائك الوثيرة على محاربة أنماط من السلوكيات الخاطئة مثل الترف والكسل والفوضى والسلبية والأنانية إلى آخر ما يفيض به معجم الوهن من ألفاظ... فذلك أجدى من كلام كثير لا يُشبع جائعاً، ولا يعلِّم جاهلاً ولا يرفع لذليل رأساً.

الثاني: الوسط العام الضيق الذي نعيش فيه، حيث إننا دائمو الشكوى من كثرة أنواع القصور التي تلفُّ العالم الإسلامي، وبدلاً من الحسرة والألم من كثرة إعراض الناس عن صلاة الجماعة ـ مثلاً ـ بإمكاننا أن نزور أحد جيراننا لنبني معه علاقة اجتماعية طيبة نمرر من خلالها عدداً من الأفكار، من جملتها الحرص على أداء الصلاة مع الجماعة، ثم متابعة ذلك دون كلل أو ملل، وبهذا نكون قد أوقدنا شمعة، وأضفنا إلى رصيد المسلمين نقطة، ولا ينبغي أن يُفهَم من هذا أننا ندعو إلى عدم الاهتمام بشؤون المسلمين، وإنما المراد أن نركز اهتمامنا على ما يمكن تغييره نحو المنشود، ولا ينبغي أن ننهي هذا المقال قبل الوقوف عند الحديث الشريف الذي يُعدُّ معلماً بارزاً في هذه الفكرة، ألا وهو قوله ﷺ: ((سألت ربي ثلاثاً، فأعطاني اثنتين، ومنعني واحدة، سألته ألا يسلِّط عليهم عدواً من غيرهم، فأعطانيها، وسألته ألا يجعل بأسهم بينهم، فرد علي)) وفي رواية: يا محمد إني إذا قضيت قضاء فإنه لا يرد، وإني أعطيت لأمتك ألا أهلكهم بسَنَةٍ عامة، وألَّا أسلِّط عليهم عدواً من سوى أنفسهم يستبيح بيضتهم، ولو اجتمع عليهم من أقطارها حتى يكون بعضهم يُهلك

بعضاً، ويسبي بعضهم بعضاً))[1].

إن كل أنواع الاعتداءات التي وقعت على هذه الأمة من خارجها كانت نتيجة استعداد لدينا لقبول العدوان، وإن من دولنا وشعوبنا من ازدادوا سوءاً بعد خروج المستعمر..!!

إننا نعاني في حياتنا العامة من نقص في الفهم ونقص في التربية وقصور في الحيوية وقصور في الالتزام، وحين نتلافى هذه الفنون من الوهن والضعف فإنه لن يضرنا كيد المستعمرين ولو اجتمعوا من أقطارها. ولله الأمر من قبل ومن بعد.

١- رواه مسلم وغيره بروايات عدة.

في
إشراقة آية

أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ

امتَّن الله ـ تعالى ـ على هذه الأمة حين بعث فيها رسولاً من أنفسها يدلها على مراشد الحق ومقاطع الرَشَد، وأنزل عليه كتاباً يَظَلُّ تذكرة لأولى الألباب مهما اتسعت أمداء الزمان والمكان حيث تعهد بحفظه، فلا تمتد إليه يد التغيير والتحريف على نحو ما أصاب الكتب السماوية السابقة، فقال ـ سبحانه: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾ ﴾ الحجر: ٩، ولا ريب أن حفظ الله ـ تعالى ـ لكتابه هو القَدَر الأعلى لكن الستار لقدر الله ـ تعالى ـ هم المؤمنون الصادقون الذين يحفظون هذا الكتاب في صدورهم، ويُشيعون تلاوته في المساجد والبيوت امتثالاً لأمر الله بالعناية به، وقد قامت الأمة بجزء من واجبها تجاه الذكر الحكيم حين أنشأت المدارس والحِلَق لحفظه وضمه إلى الصدور، فشاعت بذلك ثقافة قرآنية عطرة في أوساط الأشبال والشباب، وبُذِلتْ في سبيل في ذلك جهود مبرورة مشكورة، وإننا لننتظر منها المزيد... وهناك جانب آخر من جوانب الثقافة القرآنية كان محط أنظار السلف، بل كان لدى كثير منهم الجانب الأهم، لكننا لم نُعِره الاهتمام الكافي في العصور المتأخرة ألا وهو جانب

(التدبر) لذلك الكتاب، ومحاولة الغوص على كنوزه ودرره بغية إضاءة دروب الحياة بأنواره الهادية في عالم يسوده الظلام والتنافس والتغيير السريع، إن العالم اليوم يغرق في الملايين من مفردات المعلومات والتفاصيل الصغيرة، لكنه فقد في المقابل إحكام الأصول والكليات، بل فقد الاتجاه والأهداف العليا التي يعادل فقدُها فقدَ الوجود ذاته! وصار الإنسان الحديث في تأملاته وتصوراته أشبه بمن حبس نفسه في حجرة صغيرة، ثم شرع يردد النظر في محتوياتها حتى أحاط بها علماً، لكنه يجهل العمارة التي تقع فيها تلك الحجرة، كما يجهل الحي والمدينة والقارَّة... ومما يؤسف له أن هذه الحالة البائسة قد أصابت كثيراً من مسلمي اليوم حيث تحولت مشاغل الحياة اليومية الصغيرة إلى محاور جذب لاهتماماتهم وأنشتطهم بعيداً عن الغايات والأهداف العليا التي على المسلم أن يحقِّقها قبل أن يرحل عن هذه الحياة... إن المسلمين لم يكونوا في يوم من الأيام أحوج إلى تدبر القرآن منهم في هذه الأيام حيث اختلطت عند كثير منهم الثوابت بالمتغيرات، فطوَّروا ماحقُّهُ الثبات، وجمدوا على ما حقه التغيير، وحيث فقد كثير من مبادئهم الفاعلية، فما عادت تكِّيف حياتهم ولا تولِّد لديهم طاقة الحركة والعطاء.

التقدم العلمي وتدبر القرآن:

أتاح لنا التقدم العلمي على الصُّعُد النفسية والاجتماعية والطبيعية فرصاً جديدة لتدبر القرآن الكريم على نحو لم يكن متاحاً لمن كان قبلنا، فالتراكم الثقافي والعلمي أدى إلى تعاظم الخلفية الثقافية ونموها نمواً يقرِّب الأذهان من فهم إطلاقات القرآن الكريم وتقييداته وإيماءاته بصورة حسنة، وإنما قلنا هذا لأن الإنسان حين يقرأ نصاً ـ أي نص ـ يقرؤه عبر تفاعل نشط لإمكاناته الذهنية وخلفياته الثقافية مع الطاقات

الدلالية للنص المقروء، وفي هذا الإطار فإن خلفيتنا الثقافية في تحسُّن مستمر، كما أن الطاقات الدلالية والإيحائية للنص القرآني تتجاوب مع كثير من ذلك النمو..

إن كل الإنجازات العلمية والحضارية على الصُعُد الحياتية كافة جاءت لتؤكِّد أن القرآن الكريم تنزيل من العليم الخبير، وصارت تلك المكتَشفات تقوم بمهام الشارح والمفسِّر لقوله ـ سبحانه ـ ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾ فصلت: ٣٥، لكن متابعة ذلك وتنزيله على القرآن يحتاج إلى موازين دقيقة، حتى لا تقع في الشطط.

نماذج مما تمسُّ الحاجة إلى تدبره:

إن حاجة المسلمين ستظل ماسَّة لتدبر جميع القرآن الكريم وسوره، والمؤشِّرات الوقتية والظروف الحاضرة قد تملي علينا أن نركِّز على بعض المحاور القرآنية فقهاً وتأملاً وتدبراً على نحو ما يصفه الطبيب من الأدوية في أوقات مختلفة. وتواجه أمتنا اليوم نوعاً من الركود الحضاري حيث ضعفت إنتاجيتها وطاشت أوزانها في المعايير الدولية، وصارت نهبة لكل طامع، وهذا يفرض علينا أن نقوم بتحديد الأسباب والعوامل التي أدت بنا إلى هذه الحال مع وزن تأثير كل عامل من تلك العوامل، ثم توصيف الحلول والعلاجات وبيان أولويات استخدامها، وفي هذا الإطار نجد أن من الواجب علينا أن نتدبَّر ما يلي:

١ـ نتيجةً لكثير من التآمر وكثير من الجور العالمي على أمة الإسلام ساد اعتقاد لدى العامة، وكثيرٍ من الخاصة بأن مصدر مصائبنا هو العداء الخارجي الذي نتعرض له وأننا لو تُرِكنا وشأننا لكنا شيئاً آخر، وما دمنا نعيش في دار الابتلاء وتنازع البقاء فإن

توجه الآخرين إلينا بالأذية سيكون مفهوماً، والقرآن الكريم يُرشدنا إلى أننا إذا كنا في الوضع الصحيح فإن آثار تأمر الأعداء ستكون محدودة، وفي هذا يقول ـ سبحانه ـ ﴿لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى ۖ وَإِن يُقَٰتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ ٱلْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾ آل عمران: ١١١. ويقول ـ سبحانه: ﴿وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿١٢٠﴾﴾ آل عمران: ١٢٠، والتبصر في آيات القرآن التي تتحدث في هذه المسألة مع التبصر في الشأن العالمي المعيش سيمكِّننا من العيش في حالة من التوازن العقلي والنفسي ونحن نواجه تحديات الداخل والخارج.

٢- يميل كثير من المسلمين اليوم إلى جعل النقد عبارة عن أشعة موجَّهة نحو الخارج، فكل فئة تُلقي تبعات المشكلات التي تعاني منها على فئة أخرى، بل إن جيلاً كاملاً يُلقي تبعات ما يعانيه من أزمات على الأجيال السابقة، وعندما نُنْعِم النظر في القرآن الكريم نجد أن الله ـ تعالى ـ قصَّ علينا العديد من حالات النقد الذاتي الذي مارسه الأنبياء والمرسلون ـ عليهم السلام ـ مع ما أكرمهم الله به من العصمة، وذلك حتى تتأسَّى بهم الأجيال فتلتفت إلى معالجة الأخطاء والخطايا التي اقترفتها تجاه ربها وأنفسها. ومما عرضه لنا القرآن الكريم في هذا قول أبينا آدم وزوجه بعد الأكل من الشجرة: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ الأعراف: ٢٣. وهذا يونس عليه السلام يستغفر ويسترحم، ويقول: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾﴾ الأنبياء ٨٧، وفي هذا كله ضروب من تعليم القرآن الكريم لنا وتعميمه لثقافة النقد الذاتي، وعلينا أن نكتشف المزيد من تلك الثقافة، وأن ننفعل بها حتى لا تستمرَّ ألوان الانحرافات وتتراكم..

٣ـ تكاليف الإسلام كثيرة، وألوان القصور في حياتنا أكثر، وقد كثر الدعاة إلى الإصلاح، وجنح بعضهم إلى التهويل من خطر الانحراف في بعض الأمور على حين غفلوا عن إصلاح الانحراف في أمور أخرى ربما كانت في موازين الله أخطر، ويمكننا أن نتعرف على ذلك من خلال اهتمام القرآن الكريم نفسه به وتكراره له في أساليب عديدة، لأنه يشكِّل أصلاً إذا ما تم الالتزام به حُلَّت مشكلات كثيرة مرتبطة به؛ فإسلام الوجه لله وخوف يوم الحساب والإيمان والصلاة والزكاة والعدل والعلم والتقوى وإشاعة الخير والمعروف بين الناس أمور تكررت في القرآن الكريم على وجه غزير لافت للنظر؛ لأنها تمثل أصولاً يَصْلح بمقتضاها دين الإنسان ودنياه. وإذا ما نظرنا في القرآن وجدنا إلى جانب هذا أن القرآن الكريم لم يذكر الغيبة ـ مثلاً ـ إلا مرة واحدة، ولم يذكر السرقة إلا مرتين أو ثلاثاً، وهناك محرمات لم يرد ذكرها في القرآن الكريم مثل حرمة لبس الذهب والحرير على الرجل المسلم.. ولا يعني هذا عدم حرص القرآن الكريم على صون أموال الناس وأعراضهم أو استهانته بخطر ولوغ المسلمين في الترف والبذخ بمقدار ما يعني أن الإيمان بالله ـ تعالى ـ حين يتمكن في قلب المسلم ويصحبه تذكر دائم ليوم الحساب، فإن المسلم يكفُّ عن ارتكاب هذه القبائح وما دونَها، وحين لا ترسخ تلك الأصول في قلب المسلم وحياته اليومية، فإن الامتناع عن بعض المحرمات يمكن أن يتم بصورة شكلية ليقع المسلم في بعض المعاصي التي تخالف مقاصد التشريع أكثر من ذلك المحرم الذي نهى الله – تعالى ـ عنه... ومن هنا فإن تدبر القرآن الكريم يُسعِفنا في ترتيب أولويات ما ينبغي علاجه، كما يفيدنا في إعطاء كل مشكلة ما هي جديرة به من العناية والعمل.

٤ـ خلق الله ـ تعالى ـ بنى آدم ليبلوهم أيهم أحسن عملاً، وذلك الابتلاء يتجلى

في أمرين أساسيين، هما: العبودية لله -تعالى- بفعل الأوامر واجتناب النواهي، وإعمار الأرض من خلال الكشف عن كنوزها، وتثوير الطاقات الكامنة فيها وكشف العلاقات القائمة التي تحكمها. والذي نلاحظه اليوم أن كثيراً من المصلحين انصرفوا إلى العناية بالجانب الثاني وإهمال الجانب الأول، فحركة الفكر تتجه بصورة متزايدة إلى تأسيس ثقافة تتمحور حول قضايا الإعمار والبناء والعمل والرفاهية... على حين أنه قلَّ الاهتمام لدى كثير من الباحثين والمصلحين بقضايا الالتزام وتطوير الحياة لتتكيف مع تعليمات الشرع الحنيف، وذلك كله بسبب طغيان الحضارة المادية الحديثة وضغطها على ثقافات شعوب الأرض المختلفة. والتدبر للقصص القرآني سينتهي بنا إلى أن استئصال الأمم السابقة لم يحدث بسبب تقصيرها في إعمار الأرض والعزوف عن استنباط خيراتها، وإنما كان بسبب الانحراف عن منهج الله وعصيان رسله! وفي هذا تذكرة لأولئك المسلمين الذين لم يُفْسِحوا ـ إن أفسحوا ـ في خططهم الحضارية والتنموية للقضايا الشرعية والأخلاقية، إلا أضيق المساحات - بأن البلاء القادم سيكون من ذلك الإهمال المتعمَّد لكل ما يتصل بجانب المنهج الرباني من نشره، وتربية الناس على الالتزام به وبناء الخطط الحضارية المختلفة في هديه!.

إن حاجتنا إلى مدارس وحِلَق لتدبر كتاب الله ـ تعالى ـ لا تقل عن حاجتنا إلى مدارس حفظ القرآن الكريم، وإننا نتطلع إلى أن ينهض بعض أهل الخير في هذا المجال من أجل ترسيخ قيم التدبر وفضله؛ وعلى الله قصد السبيل.

في
إشراقة آية

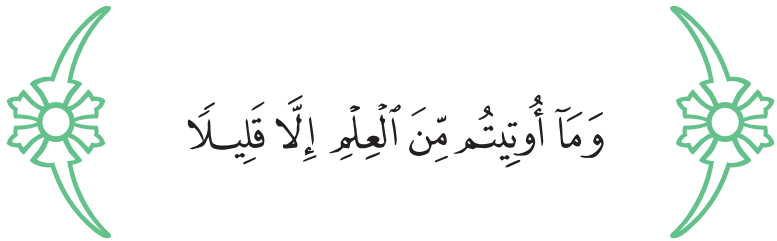

كان أهل الكتاب في جزيرة العرب يُكثرون من الأسئلة التي تتعلق بأمور يُعدُّ البحث فيها نوعاً من الفضول والترف العلمي. وكان مما وجهوه للنبي ﷺ من أسئلة، استفسارهم عن ماهية (الروح) وكنهها على نحو ما ورد في قوله تعالى: ﴿ وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا ﴿٨٥﴾ ﴾ الإسراء: ٨٥

إن الموقف العام للقرآن الكريم تجاه شئون الحياة المختلفة ليس حجر البحث والنظر ولا تضييق الخناق على العقل، وإنما توجيه الإنسان إلى البحث والاهتمام بما يعود عليه بالنفع والفائدة،ولاسيما أن إمكاناته وخبراته محدودة وضئيلة، وهذا التذييل الجميل للآية بالوصف بقلة ما أوتيه الناس من علم يتناسب مع غموض شأن الروح وماهيتها، وتعقد وصفها واستشفافها. وعلى الرغم من الجهود الحثيثة التي بُذِلت في حقل الروح فإن أقل ما حازه الإنسان من العلم، والخبرة هو في مجال الروح، وما يتعلق بها من أسرار الحياة، وكأنَّ النص الكريم يومئ إلينا أن نستزيد من العلم ما دامت بضاعتنا منه محدودة، كما يرشدنا إلى ألا نغتر بما لدينا من المعرفة

مهما كَبُرَ حجمه في المستقبل، لأن ذلك سيظل بالنسبة إلى ما نجهله قليلاً، وهو إذا ما قورن بعلم خالق السموات والأرض لا يعدو أن يكون قطرة في بحر.

وفي القرن التاسع عشر منح العلماء للعلم أهمية بالغة، وأناطوا به من الآمال العريضة ما لا يستطيع حمله، وتأثر رجال الإصلاح لدينا آنذاك بذلك تأثراً بالغاً لكن المعطيات العامة للقرن العشرين رسمت دوائر من الشكوك وخيبة الأمل حول كثير مما كان يُعَدُّ مصادر للبهجة والأحلام الجميلة. والخبراء بمجاري الأمور يدركون اليوم أكثر من أي وقت مضى عَجْزَ العلم عن الإدراك الكلي لما يؤدي إلى تقدم الإنسان، وفرزه عن العناصر التي تؤدي إلى تقهقره وشقائه، وهذا ضرب من ضروب (قلة العلم) التي تزداد وضوحاً يوماً بعد يوم.

إن الانتكاسات التي يلاقيها الإنسان على صُعُد عديدة، ولاسيما الصعيد الاجتماعي والأخلاقي بدأت تحجِّم الثقة بالخبرات البشرية المتراكمة، وتدفع الناس إلى اليأس والحيرة! وقد كانت الفلسفة أيام اليونان هي (ملكة العلوم)، ثم حلّ الإحصاء واعتماد لغة الرقم محلها على ما هو مشاهد اليوم، لكن البنية الذهنية للعالم تتجه الآن نحو الفلسفة من جديد بعد التأزم والاختناق الذي تعاني منه البشرية اليوم نتيجة هيمنة المنطق العملي، وربما كانت الصحوة الدينية العالمية تعبيراً عن بعض ملامح التوجه الجديد، كما أنها تعبير عن إفلاس مناهج التقدم التي اعتمدتها الحضارة الغربية خلال القرون الثلاثة المنصرمة، وهذا أيضاً من نقص علم الإنسان وعجزه عن الاستقلال بإدراك الصراط المستقيم دون عون وهداية من رب العالمين.ولعل من أبرز ما حصل في هذا القرن من تشكك في كفاءة ما استحوذ عليه الإنسان من علم ما جرى (للألمان) عقب الحرب العالمية الأولى حيث تطلع

العلماء الألمان أثناءها إلى مرحلة ما بعد الحرب على أمل أن يتطور العلم وتزدهر التقنية، وتتمتع ألمانيا بمزيد من الهيبة الدولية.. لكن الهزيمة الكارثية التي حاقت بهم هَزَّتْ إيمان الألمان بالنظام وعقلانية العالم، وبدا أن استرداد العافية لابد أن يستند إلى فلسفة جديدة تعمل على تقوية البواعث الإنسانية والوجدانية الجميلة أكثر من تلك (اليد الميتة) والنظرة الآلية القديمة التي كانت سبباً في الهزيمة. وساد نوع من العداء لفكرة (السببية). وعبر عن الألم من الثقة الزائدة بالعلم وأهله (كارل بيكر) وزير التعليم الروسي بقوله: ((إن المبالغة في تقويم المثقفين هو الشر الأساسي وما علينا إلا أن نطالب مرة أخرى بما هو غير عقلاني)). ونحن نتوقع أن يحصل مثل ذلك على الصعيد العالمي إذا ما استمر التأزم في الاقتصاد، واستمرت الحياة الروحية في التراجع!

إن الأحوال والمظاهر التي تؤكِّد على (قلة العلم) لدى الإنسان كثيرة جداً، لكننا نريد هنا أن نشير إلى ثلاثة أنساق نظن أنها مهمة في هذا الصدد، وهي:

١ـ يقولون: ((إذا أردت أن تعرف المستقبل فانظر إلى الماضي)) ونحن إذا نظرنا في تاريخ العلم وجدنا أنه ـ في كثير من الأحيان ـ عبارة عن نظريات متناسخة، فكل جيل يشعر بالدهشة من سذاجة الأجيال السابقة، وضعف حصيلتها العلمية وتسرعها في إصدار الأحكام الكبرى دون مقدمات كافية تسندها. ونحن نعتقد أن أبناء عصرنا ليسوا بدعاً من البشر، وأن شيئاً مما نقوله عن غيرنا سوف يقال عنا! ومن ثم فإن من الأخطاء القاتلة أن نُضفي صفة (النهائية) على ما هو تحت التأسيس. وعلينا أن نكون على حذر من استخدام العبارات الرنانة وإطلاق الشعارات الكبرى حتى لا يكون مستقبلنا علامة

استهزاء بماضينا، فنحن لم نؤت من العلم إلا قليلاً.

٢ـ إن من قلة علمنا أن جهلنا أظهر ما يكون عند البحث في الشأن الإنساني الخاص، فالباحثون في علم الاجتماع وفي علم النفس خاصة يجدون طرق البحث تتشعب أكثر فأكثر كلما غذّوا السير قدماً، ويشعرون بهشاشة الأرض التي يقفون عليها، ويتوفر عدد أكبر من الاحتمالات كلما توغلوا في مسارات النفس البشرية، على حين أن الباحثين في علوم الطبيعة يفيدون من أنواع الانتشار الأفقي للمعارف المختلفة في التقدم الرأسي الحثيث في مجالات بحوثهم. والسبب في ذلك أن العنصر الروحي ما دخل في أمر إلا عقّده مما يجعل المرء يشعر أحياناً بأنه الحجر والنحّات معاً!. وصدق الله ـ تعالى ـ إذ يقول: ﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ٢١﴾ الذاريات: ٢١

٣ـ يشكّل الماضي والحاضر والمستقبل عناصر (الديمومة) الثلاثة. ويُعذر المرء حين يعجز عن فهم الماضي واجتراح المستقبل لأسباب موضوعية معروفة، لكن المدهش حقاً هو عجز العلم الظاهر عن فهم الواقع وسبر أغواره! فالواقع الذي يدعي كل منا فهمه واستيعابه أكثر تعقيداً مما نتصور، فنحن لا نفهمه إلا بعد أن نشكله عبر عمليات ذهنية عديدة تقوم على ما لدينا من عقائد وخبرات، وعلى العناصر الموضوعية التي تشكّل الواقع. وإذا كانت صلابة كل رأي نابعة من صلابة العمليات الذهنية التي أدت إليه أدركنا مدى القصور والضعف الذي يعترينا كلما أردنا القبض على هذه المادة الهلامية المتفلتة! وذلك أيضاً من قلة العلم ومحدوديته، لم نرد هنا نزع الثقة من العلم، ولا التقليل من شأنه، ولكننا أردنا أمرين:

الأول: ألا نطلب من العلم توليد العقائد الكبرى، ولا الأهداف العليا للوجود، فذاك شيء ذهب به الوحي، والعلم يتعلق بالجزئيات لا بالكليات.

الثاني: التعامل الموضوعي المرن مع المعطيات العلمية التي تشتمل على أجزاء متحركة، وتلك التي ما زالت في طور التشكل والنمو. وإذا فعلنا ذلك أمكننا أن نستضئ بالعلم دون أن نحترق بناره. والله أعلم.

في
إشراقة آية

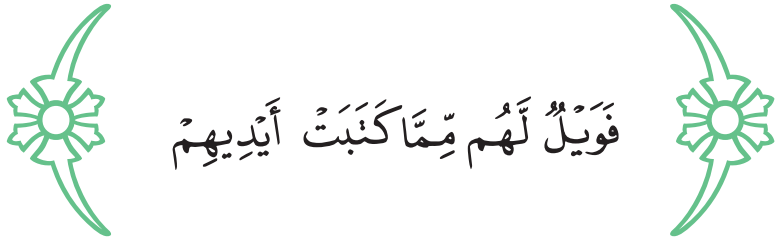

قال الله ـ تعالى ـ ﴿ فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ يَكۡتُبُونَ ٱلۡكِتَٰبَ بِأَيۡدِيهِمۡ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشۡتَرُواْ بِهِۦ ثَمَنٗا قَلِيلٗاۖ فَوَيۡلٞ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتۡ أَيۡدِيهِمۡ وَوَيۡلٞ لَّهُم مِّمَّا يَكۡسِبُونَ ﴾ البقرة: ٧٩، تحكي لنا هذه الآية الكريمة خُلقاً قديماً من أخلاق اليهود، وهو خُلُق التحريف والتزوير، ويزداد ذلك شناعة حين يكون في كلام الله الذي أنزله ليكون هدى للناس. وقد ذكر بعض المفسرين أن مما حرَّفه اليهود في التوراة تغييرهم بعض صفات محمد ﷺ حتى يسدوا سبل الهداية أمام بني دينهم، وكان الدافع لذلك هو الحرص على المكاسب والامتيازات التي ستذهب لو أن اليهود دخلوا في الإسلام، فعمد أحبارهم إلى التزوير والتحريف. وما أشبه اليوم بالبارحة! فقد شهد عصرنا أكبر عمليات التزوير، وفي كل اتجاه حيث صار كثير من مصادر الخبر ووسائل انتشاره في أيدي اليهود؛ وهذا يشكل تحدياً كبيراً أمام العرب والمسلمين.

وقد استقرَّ كثير من الأعراف الدولية على عدم جواز تدخل دولة في شؤون دولة أخرى، كما استقرت على ضمان حرية المعتقد وضمان حرية التعبير عن الرأي لبني

البشر، وفي هذه الأجواء فإن المستعمرين (الجدد) لا يستطيعون دخول بلد دون توطئة مناسبة ودون إقناع للرأي العام بأخلاقية ذلك التدخل، لما فيه من حفاظ على السلم العالمي، أو لما فيه من دفع الظلم والشر إلخ.... وبالنسبة إلي العالم الإسلامي فقد اتخذ تحريف مبادئه وواقعه أسلوبين مختلفين في الشكل، متكاملين في الطبيعة والوظيفة، أما الأسلوب الأول فقد وضع أساسَه المستشرقون، ثم تلقفت وسائل الإعلام الغربية حصيلة البحوث والدراسات التي انتهوا إليها هم، ومن يحطب في حبالهم لتدمجها في أطروحتهم التحليلية والإخبارية المناسبة، ومضامين هذا الأسلوب تتمحور حول تشويه حقائق الإسلام ومبادئه وإبرازه على أنه مناقض لكثير من القيم الإنسانية، كما تتمحور حول تشويه صورة نبي الإسلام ﷺ وتشويه واقع الصحوة الإسلامية المباركة....

أما الأسلوب الثاني فهو اللعبة المفضلة لدى بعض من يُنسب إلى هذه الأمة حيث لا يستطيعون تشويه الإسلام، ولا القدح في النبي ﷺ وهم يعلنون الانتماء إليه، وحيث يحول الضغط الشعبي دون ذلك، وهذا الأسلوب يقوم في مجمله على اتخاذ الصورة التي رسمها أعداء الإسلام في الخارج له إطاراً مرجعياً يجب على المسلمين أن يحاكوه ويتماثلوا معه، ومن ثم فإن الصحوة الإسلامية هي غلو وانحراف عن الإسلام السمح الكريم المسالم الذي يشبه الماء في أنه ليس له طعم ولا ريح!!

وحين كنت صغيراً كنت أعجب من كلمة واحدة يقولها المرء من غضب الله فيهوى بها في النار حيث ورد في الحديث: ((إن العبد ليتكلم بالكلمة من سخط الله ـ تعالى ـ لا يلقي لها بالاً يهوي بها في جهنم)) والآن بعد أن رأيت أثر الكلمة وفنون استخدامها صار لديَّ يقين بأن من الكلام ما يجاوز في فظاعته الجرائم الكبرى!!..

لأنه قَدَّم المستند الفلسفي لها. إن بعض الكتَّاب سيبعثون يوم القيامة وفي صحائفهم رائحة الدم ـ مع أنهم كانوا في الدنيا أجبن من أن يحملوا سكيناً ـ بما كتبت أيمانهم، وبما اشتروا من عرض الدنيا الفاني.

في
إشراقة آية

الفهرس

	مقدمة الطبعة الثانية	٧
١	وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ.	١١
٢	نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمۡ أَنفُسَهُمۡ	١٦
٣	فَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَ.	٢٧
٤	وَمِن كُلِّ شَيۡءٍ خَلَقۡنَا زَوۡجَيۡنِ.	٣٥
٥	وَإِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمۡ كَيۡدُهُمۡ شَيۡـًٔاۗ.	٤٥
٦	وَمَن يُؤۡتَ ٱلۡحِكۡمَةَ فَقَدۡ أُوتِيَ خَيۡرٗا كَثِيرٗا.	٥١
٧	كُلُّ نَفۡسٖ ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِۗ وَنَبۡلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلۡخَيۡرِ فِتۡنَةٗۖ.	٥٩
٨	وَخُلِقَ ٱلۡإِنسَٰنُ ضَعِيفٗا.	٦٧

٩	ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةَ .	٧٣
١٠	وَأَن تَصُومُواْ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ .	٧٩
١١	إِنَّ خَيۡرَ مَنِ ٱسۡتَـٔۡجَرۡتَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡأَمِينُ .	٨٥
١٢	وَإِذَا رَأَيۡتَهُمۡ تُعۡجِبُكَ أَجۡسَامُهُمۡ .	٩١
١٣	إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ .	٩٩
١٤	وَكَيۡفَ تَصۡبِرُ عَلَىٰ مَا لَمۡ تُحِطۡ بِهِۦ خُبۡرٗا .	١٠٧
١٥	كَم مِّن فِئَةٖ قَلِيلَةٍ غَلَبَتۡ فِئَةً كَثِيرَةَۢ بِإِذۡنِ ٱللَّهِ .	١١٣
١٦	إِنَّ مَعَ ٱلۡعُسۡرِ يُسۡرٗا .	١١٩
١٧	وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحۡوِيلٗا .	١٢٣
١٨	وَقُلِ ٱعۡمَلُواْ .	١٣١
١٩	فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ .	١٣٧
٢٠	أَصۡلُهَا ثَابِتٞ وَفَرۡعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ .	١٤٣
٢١	فَٱعۡتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ .	١٥٧
٢٢	كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوۡنَ عَن مُّنكَرٖ فَعَلُوهُ .	١٦٣

٢٣	وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ .	١٧١
٢٤	رَبَّنَا لَا تَجۡعَلۡنَا فِتۡنَةٗ لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ .	١٧٩
٢٥	حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ .	١٨٥
٢٦	وَتُحِبُّونَ ٱلۡمَالَ حُبّٗا جَمّٗا .	١٩١
٢٧	فَنَسُواْ حَظّٗا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَأَغۡرَيۡنَا بَيۡنَهُمُ ٱلۡعَدَاوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ .	١٩٥
٢٨	وَلَقَدۡ كَرَّمۡنَا بَنِيٓ ءَادَمَ .	١٩٩
٢٩	لِتَعَارَفُوٓاْ .	٢٠٣
٣٠	وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لَّفَسَدَتِ ٱلۡأَرۡضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ .	٢٠٧
٣١	قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡ .	٢٠٩
٣٢	أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ .	٢١٥
٣٣	وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا .	٢٢١
٣٤	فَوَيۡلٞ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتۡ أَيۡدِيهِمۡ .	٢٢٧

تم بحمد الله

في
إشراقة آية

لا أستطيع أن أقول : إن ما كتبته في هذا الكتاب هو من قبيل التفسير أو الشرح لبعض آيات الذكر الحكيم، وإنما هو نوع من الانغماس في ضيائه ونوع من الحوم حول حماه المصون، وإننا ستظل ننهل من فيوض القرآن الكريم، وسنظل نقبس من مفاهيمه وإشاراته، كما أنه سيظل فيه ما ينقع الغلة ، ويشفي الصدر، وينير الطريق ما تعاقب الليل والنهار، ولا حاجر على فضل الله وكرمه.

إنني حين أتدبر شيئاً من الكتاب العزيز أشعر بدرجة عالية من الثقة والطمأنينة، وأشعر أنني آوي إلى ركن شديد، وليس عليّ سوى أن أمتّع القلب والوجدان بشلالات أنواره المتدفقه ومعانيه السامية... كلما نضجنا أكثر وعرفنا أكثر وجدنا أنفسنا أقدر على فهم القرآن الكريم والاستفادة من بركاته

والله ولي التوفيق

د عبد الكريم بكار

الإسلام اليوم
الإنتاج و النشر

مؤسسة الإسلام اليوم / إدارة الإنتاج والنشر
المملكة العربية السعودية
الرياض ص.ب. 28577 الرمز : 11447
هاتف : 012081920 فاكس : 012081902

للحصول على هذا الكتاب يمكنكم التواصل عبر الموقع :
www.drbakkar.com

1 269326 541323
WOJOOOH.COM
SR 28

وجوه
WOJOOOH
دار وجوه للنشر والتوزيع
Wojooh Publishing & Distribution House
www.wojoooh.com

المملكة العربية السعودية – الرياض
ت: 4918198 فاكس: تحويلة 108
للتواصل والنشر:
wojoooh@hotmail.com